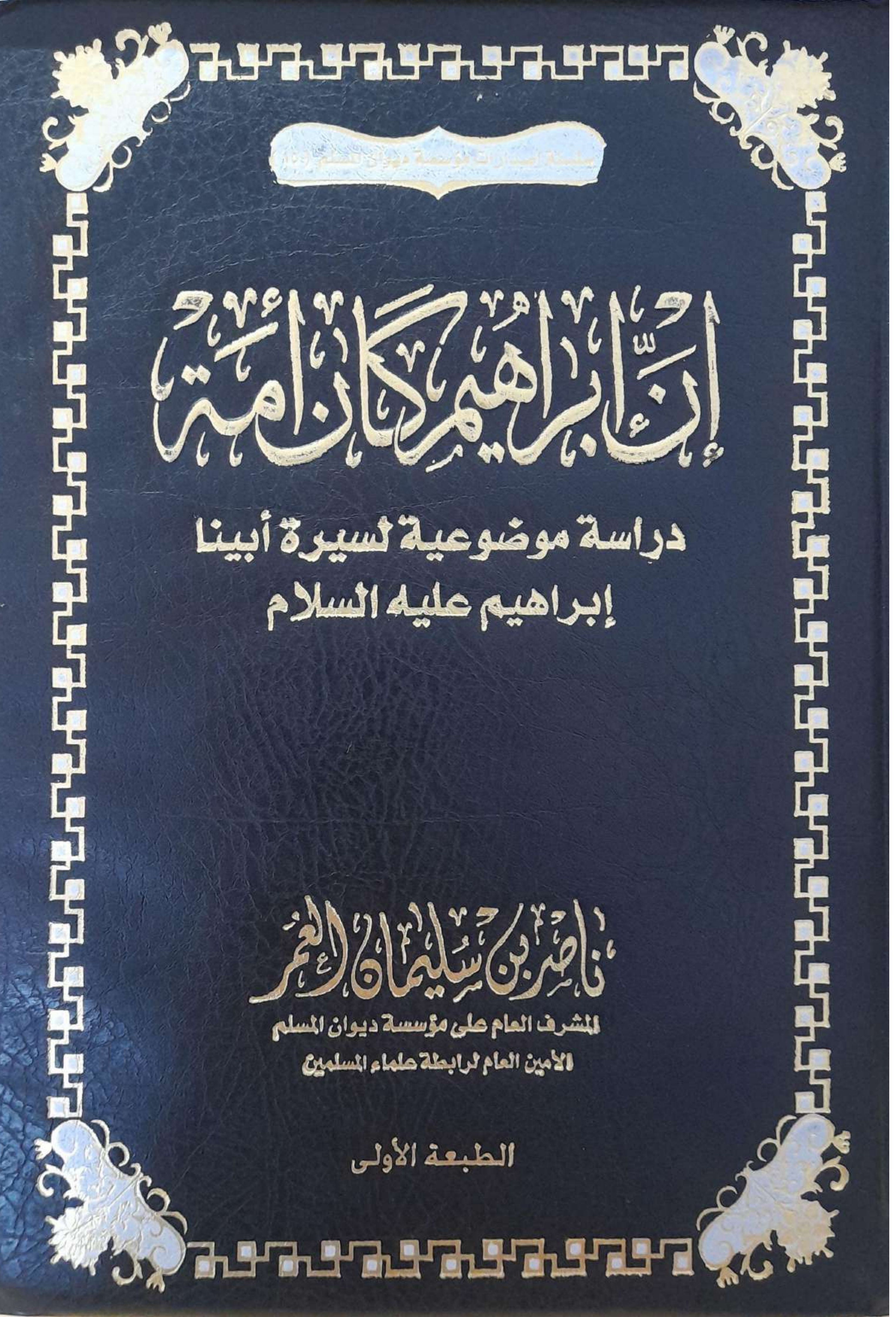

إن إبراهيم كان أمة
دراسة موضوعية لسيرة أبينا
إبراهيم عليه السلام
ناصر بن سليمان العمر
المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم
الأمين العام لرابطة علماء المسلمين
الطبعة الأولى

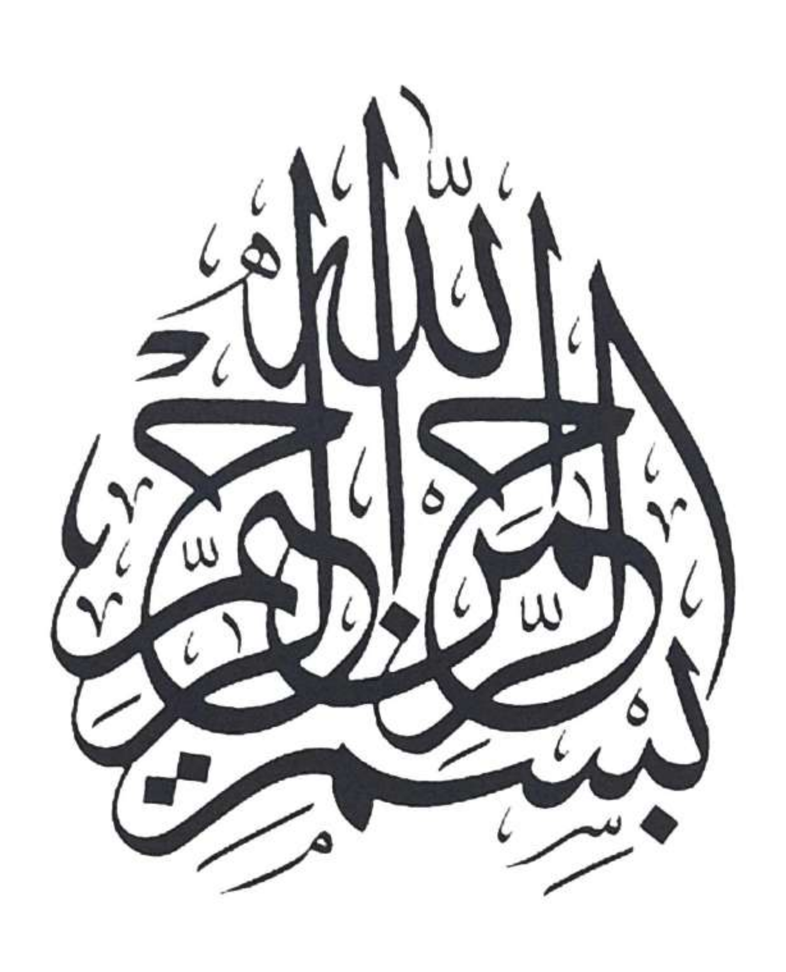
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

الأستاذ الدكتور

ناصر بن سليمان العمر

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفرُه ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب]

أما بعد : فكنت قد ألقَيْتُ دروساً في مسجد خالد بن الوليد، بحي الروضة من الرياض العامرة، وذلك في رمضان من عام ١٤٢٥،

ثم بدا لي إخراجها مطبوعة لما في أخبار هذا الإمام أعني إبراهيم عليه السلام من العِبر والعِظات التي أُمِرْنَا في كتابنا أن نأتسي به فيها، ولئن كانت سائرُ أنْبَاءِ الرُسُلِ إنما ذُكرت للاعتبار، فإن لاتباع ملة إبراهيم مزيد مزية، إذ جاء الأمر بذلك في غيرِ موضعٍ، ثمَّ إنَّ في أخباره، ما ليس في أخبار غيره، والعناية بشأنها فرعٌ عن معرفة مقامه عليه السلام، وهو من الفضل بمكان عال لا يخفى. فقام بعض الإخوة في إحدى مكاتب دور النشر، بكتابة المحاضرات المسموعة، وسبك بعض عباراتها وتخريج كثير من الأحاديث والآثار، فجزاهم الله خيراً على جهودهم، غير أن المادة لم تكن مناسبة للإخراج في تلك الصورة، إذ فرق بين المرتجل المسموع والمحرر المطبوع ، فيُتَسامح في الأوَّل ما لا يُتسامح في الثاني، فبقيت المادة حبيسة الأدراج والوسائط الإلكترونية مدة! ثم رأى الإخوة في إدارة الإنتاج والنشر بمؤسسة ديوان المسلم -جزاهم الله خيراً- إخراجها، فَرَاجَعَتْهَا بالتعاون معهم إحدى الأخوات الفضليات مقارِنةً لها بأصلها، بارك الله لها في وقتها وجهدها، ثم

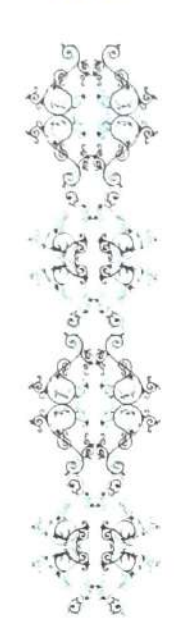
عُرِض المشروع على المكتب العلمي التَّابع لإدارة الإنتاج والنشر، فحرر القائمون عليه المادة، ووثَّقوا النُّقُول، واستبدلوا الكلام المرسَل بأصله المنقول، وعزوا المعاني المذكورة لبعض مظانِّها، ثم رجعوا لأصل الدُّروس المُعَدَّة التي أُلقيت، فتمموا منها ما لم يُساعد الوقتُ على إلقائه، إلى غير ذلك من مقتضيات العمل، ثم قُمْت بمراجعته، والتوجيه بما رأيت، وقد أبقيت على بعض التكرار في مواضع عن قصد، وذلك للحاجة إلى طرق بعض المعاني في أكثر من موضوع يتعلق بها، وكذلك لأهميتها. وعلى كل حالٍ فقد فخرج هذا السِّفْرُ لا أقول كاملاً، بل مَرْضِيّاً في الجملة ولاسيما مع مراعاتنا لرغبة الإخوة في إدارة الإنتاج والنشر إخراجه في هذا الوقت، وإلاّ فإنّه ما مِن كتاب إلاّ ويبقى لمزيد التحرير والإضافة والتعديل فيه مدخل إلاَّ كتاب الله عز وجل.

والله أسأل أن يجعل هذه الصفحات مباركةً، معينةً لنا على تدبر آياتٍ كان موضوعها رجلاً صلتُنا به وطِيدة، فهو جَدُّ نبينا، وإمام الملة

الحنيفية السمحة، إنه إبراهيم ﷺ، الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، وكفى، والحمد لله أولاً وآخِراً، وصلى الله وسلم على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين.

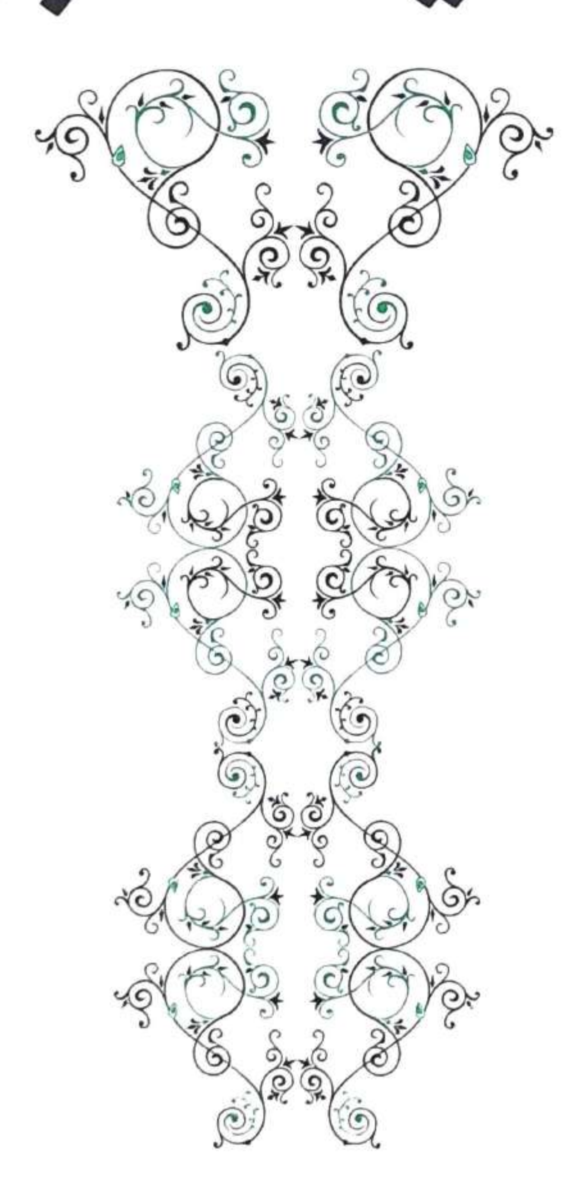
ناصر بن سليمان العمر

الرياض ١٤٣٤/٣/١٨





أهمية التدبر



أهمية التدبر

القرآن أُنزل ليُتَدَبَّر

أُنزِل القرآن الكريم من أجل التدبُّر والعمل وليس للتلاوة فحسب، والمطَّلع على واقع الأمة الآن يلحظُ في كثيرٍ من بلاد المسلمين -والحمد لله- إقبالاً على كتاب الله جل وعلا، ويشتدُّ هذا الإقبال في المواسم والأيام الفاضلة كالجُمَع وفي شهر رمضان الذي هو شهر القرآن، ويلحظ أيضاً -والحمد لله- انتشار حَلْقَاتِ تحفيظ القرآن في أماكن عدة من بلدان العالم الإسلامي، وكل هذا خير ولا شك، ولكن المتأمِّل يلحظ كذلك أن هناك تقصيراً ظاهراً في تدبُّر القرآن، فهناك من يقرأ القرآن يَهُذُّه هَذّاً، لا يقف مع آية واحدة يتأمَّل معانيها ويتدبَّر ما فيها.

والله جل وعلا يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقد ذَّم الله جل وعلا أولئك الذين لا يتدبرون القرآن فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ

﴿قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ [محمد]؛ أي: بل على قلوب أقفالها! فهي مطبقة لا يخلَص إليها شيء من معانيه[1].

التدبر هدي نبوي سلفي

لنوجه السؤال الآتي إلى أنفسنا: هل أعطينا القرآن الكريم حقَّه من التأمل والتدبر والوقفات؟ لينظر كلٌّ مِنَّا إلى نسبة ما يتدبره مقارنة بما يتلوه، وعندها سيتوصَّل كثيرٌ منّا إلى حقيقة مُرَّة.

بينما كان جبريلُ عليه السلام يأتي إلى النَّبي ﷺ ويُدارسُه القرآن[2]، ومدارسته عليه الصلاة والسلام لا تخلو من تدبُّر. ويقول أبو عبد الرحمن السُّلَمي: حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: ما كنا نَتَجَاوز عشرَ آياتٍ حتى نعلم ما فيها من العلم والعمل[3]، وكان بعض الصحابة ربما وقف مع السورة الواحدة كسورة البقرة سنوات[4] متدبراً ومتأملاً تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢٠.

(٢) كما في صحيح البخاري (٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢).

(٤) انظر شعب الإيمان للبيهقي (١٩٥٦) و(١٩٥٧).

[ص:٢٩]، إن القرآن أُنزل ليُتَدَبَّر.

ولذلك فإننا في هذه الوقفات مع خبر نبي الله إبراهيم نُشيرُ إشارات يسيرة إلى أهمية تدبّر القرآن؛ إذ إن تدبُّر القرآن من أعظم أسباب ظهور آثار القرآن في تفكير المسلم وسلوكه، آلاف الحَلْقَات بل عشرات الآلاف في أنحاء العالم الإسلامي، يقرؤون كتاب الله جلَّ وعلا، وهذا خير ولا شك، لكن هلا تدبرنا القرآن؟ فذلك نور إلى نور، يهدي الله لنوره من يشاء!

تدبر القرآن شفاء

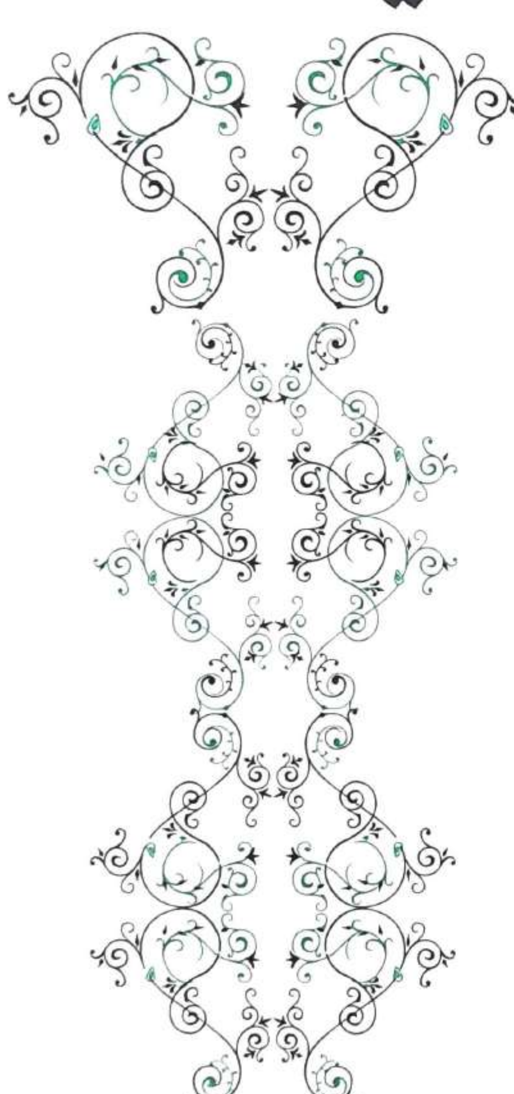
إن في تدبُّر القرآن شِفاءٌ، ورحمة وأَثَرٌ إيجابي ينعكس على الحياة، انظروا إلى قوله جل وعلا: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]، يتصور كثير من الناس أن الشفاء في القرآن هو بالرُّقية المعهودة فقط، أي: إذا أُصِيب أحدٌ بمرض حسي أو معنوي أو نفسي ذهب إلى أحد الرقاةِ أو القُرَّاء فقَرَأ عليه، ونفث مع قراءة القرآن والأدعية، ويتصور أنَّ هذا هو الشفاء! وهذا فهمٌ ناقص قاصر يحتاج مِنَّا إلى مراجعة،

فالشفاءُ أعمُّ من ذلك، بل ما قيمة سلامة البدن، والنفسُ خرابٌ والقلبُ أسود مِرْبَّادٌ! يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، والتدبُّرُ هو المفتاح لأسرار هذا الشفاء، عَرَف ذلك الأوائلُ من صحابة رسول الله ﷺ، فطابت نفوسهم، وفازوا ونَجَوا ونجحوا ﷺ.



وقفات ومفاهيم في التدبر





وقفات ومفاهيم في التدبر

نظراً لتقصيرنا الظاهر في تدبُّر القرآن، لنقف وقفات سريعة مع معاني في التدبر. هناك أناسٌ يَقرؤون القرآن في كل يوم وخاصة في رمضان، وبعضهم يختم في رمضان ثلاثين ختمة؛ أي: في كل يوم ختمة، ولكن قد يَصْدُق على بعض أولئك قول ابن مسعود ﵁: يهذُّونَه هَذَّ الشِّعر[1]! وحري بمثلهم أن لا ينعكس أثرُ ما يَقْرَؤون على سلوكهم، إذ لا يتدبرون القرآن! ولا بد من التدبُّر، وفي المقابل إذا وُفِقْتَ للتدبُّرِ فستجد الآثار العظيمة في نفسك وفي بيتك وفي أهلك وفي مجتمعاتك كلها.

يقول أحدُ كبارِ الأطباءِ -وكان مديراً لإحدى المستشفيات الكبرى للأمراض النفسية- : طِيلةَ مدة بقائي في هذا المستشفى، وقد مكثتُ سنوات طويلة -وكان يَتحدَّث وهو لا يزال مديراً للمستشفى- لم يدخل هذا المستشفى النفسي رجلٌ واحدٌ من أهل القرآن. ثم عقّب

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٥) ومسلم (٨٢٢).

بكلام جميل يكتب بماء الذهب، فقال: كيف يأتيني أهل القرآن، ونحن إذا عجزنا عن معالجة مريضنا بالعلاج الطبي المعروف، ذهبنا به لأهل القرآن فشُفِي على أيديهم بإذن الله وتوفيقه؟ اهـ. وهنا ينبغي يتنبه للفرق بين أهلِ الالتزام -كما يقال- وأهلِ القرآن وهم فئة أخص، فأهل القرآن معهم الدواء الناجع، والشفاء التَّام كما قال جَلَّ وعلا وقوله الحق: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء:٨٢].

تدبر القرآن من أسباب النجاة من المخاوف في الدنيا قبل الآخرة

إن تلاوة كتاب الله تعالى وتدبره من أسباب أمان الخائف ونجاة المطلوب من شرور كثيرة، وفي حديث أبي هريرة في الصحيح: «إذا أويتَ إلى فِراشك فاقرأ آيةَ الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ [البقرة:٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزالَ عليك من الله حافظٌ ولا يقربنَّك شيطانٌ حتى تصبح»[1]، بل قد يكرم الله من شاء من خلقه بما لم تجر به العادة، وقد أورد القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا

---

(١) البخاري ٢/ ٨١٢ (٢١٨٧) وغير موضع.

قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء] آثاراً فيها أن الله أكرم نفراً بأن أعمى عنهم أبصار الأعداء حال طلبهم إيَّاهم وجعل ترديد بعض الآيات سبباً لذلك، بل ذكر أمراً وقع له فقال: «ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدو، وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعَبَرَا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيَبْلُه؛ يعنون شيطان. وأعمى الله ﷻ أبصارهم فلم يروني والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك»(١).

يقول أحدُ الدُّعاةِ: كنتُ في دولة عربية، وأنا في الطريق بلغني أن هناك كميناً من الأعداء يتربصون بي، فيقول: كنت لا أعرف غير الطريق الذي أنا فيه، والعجيب أنه لم تبلغه قصة الإمام القرطبي. يقول: لما أقبلتُ عليهم بدأت أكرر قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

---

(١) تفسير القرطبي، آية الإسراء: ٤٥، ١٠/ ٢٣٤، وحصن منثور لعلها مصحفة.

سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[يس]، يقول: لما أقبلتُ عليهم جاءت ريحٌ شديدة، فهرب أولئك، واستطعت أن أعبر الطريق آمناً سالماً.

فسبحان من جعل في القرآن حمايةً وأمْناً، ولو أن الأمة رجعت إلى القرآن، تدبُّراً وعلماً وتحكيماً وتطبيقاً، لما احتاجت إلى أحدٍ يحميها، أما الآن فقد احتاجت في عصورها المتأخِّرة إلى أعدائها ليحموها! وهل يَحمي الذئبُ الغنم! وممَّن يحميها العدو! وكيف يحميها وهو المخوف؟!

إن القرآن الذي بين أيدينا فيه الحماية وفيه الأمان، يرشد لأسباب ذلك، ويَقي من التزَمَه، ويُدخله في زمرة حزب الله الصالحين، وعباده المقربين، ومن كان الله معه فما يخاف؟ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وفوق ذلك فإنَّ في تدبُّر القرآن علاجاً للأمراض النفسية، وحلًّا للمشكلات الاجتماعية، وذهاباً للأدواء الجسدية.

فأين المتدبِّرون، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

تدبر القرآن ومشاكل البيوت

كما أن التدبّرُ حمايةٌ للأنفس من الأعداء فهو حَلٌّ للمشكلات البيْتِيَّة، يحدثنا أحد المشايخ فيقول: اتصل بي رجل فقال لي: إنني أريد أن أطلِّق زوجتي، ولكن عندي عددٌ من الأولاد، والطلاقُ له آثاره السلبية، فإن أبقيتها فالمشاكل مستمرة، وإن طلقتها فستنشأ مشكلات جديدة، فماذا أفعل أيها الشيخ؟ يقول الشيخ -وكان ممن يُعَالج بالدعوة إلى تدَبُّر القرآن، وهذا علاجٌ لا يفهمه كثيرٌ من الناس- يقول: فقلت له: كيف أنت والقرآن؟ فقال: مقصِّر، وازداد تقصيري بسبب هذه المشكلات.

قلتُ: سبحان الله! كان المفروض لما حَدَثَتْ عندك هذه المشكلات أن تَفِرَّ إلى الله ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] لا أن تَفِرَّ من الله، ومن الفِرار إلى الله: الفرار إلى كتابه.

قال: بماذا تنصحني؟

قلت: أنصحُك أن تعيش مع القرآن قارِئاً متدبِّراً ومتأمِّلاً، وستجد لآثاره عجباً.

يقول: ما مَرَّتْ إلا أسابيع قليلة فإذا هو يتصل بي ويقول: أُبشِّرك يا شيخ، لقد حُلَّت مشكلات البيت، وأصبح بيني وبين زوجتي وِفاقٌ ووِئَامٌ. قلتُ له: هذا هو القرآن، القرآن يَعْصم من الشيطان، ويهدي للتي هي أقوم، وينتفع به في سلوكه وشؤونه من تدبره.

ويقول أحدُ الدُّعاة: اتصلتْ بي امرأةٌ، قالت: يا شيخ، أنا أتوب إلى الله جَلَّ وعلا من المعاصي؛ من رؤية المحرمات، أتوب ثم أعود، فبماذا تنصحني أيها الشيخ؟ فقلت لها: كيفَ أَنْتِ والقرآن؟ قالت: مُقَصِّرة، وخاصة مع ظُلْمة المعاصي. فقلتُ لها: ارجعي إلى القرآن قراءةً وتدبّراً. قال: فما مَرّت إلا أيام، فإذا هي تتصل وتقول: أُبشِّرك، لا أقول: إنني تركت المعاصي، بل أصبحت أكره المعاصي.

لماذا؟ لأنَّ نور القرآن حَلَّ في قلبها، فجلا ظُلْمَةَ المعصية وأذهب لَـمَّة الشيطانِ وغَيَّرَ الهوى.

ويُذكر أنّ امرأة فهمت بعض دلالات قوله تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ

ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود] وذات يومٍ حدثت بينها وبين زوجها مشكلة، والبيوت لا تخلو من مشكلات، يقول زوجُها: فخرجتُ مُغْضباً وذهبتُ إلى المسجد حتى أنظر في أمري؛ فلما وصلتُ إلى المسجد وأدَّيْتُ تحية المسجد، وجدتُ أن هناك ما يدفعني بقوة للعودة إلى البيت، فعدتُ إلى البيت فإذا زوجتي تستقبلني وهي تبتسم وتقول: رجعتَ؟ قلت: نعم رجعتُ، وماذا في ذلك؟ قالت: كنت أعلم أنك سترجع. قلتُ لها: لماذا؟ قالت: كنت أعرف أن الاستغفار سيُعيدك ويُرجعك، قلت: كيف! قالت: منذ أن خرجتَ من عندي وأنا أستغفر الله جل وعلا، لأنني عرفت أنني أخطأتُ في حقك، فبدأتُ أستغفر، فعلمتُ أن الاستغفار سيعيدك إليّ، وفعلاً حدث ذلك.

وسمعتُ أحد طلاب العلم يقول: ما وقعت عندي مشكلة في بيتي مع نفسي أو مع زوجتي أو أولادي أو مع غيرهم خارج البيت إلا لجأت إلى الله، ومن أعظم ما أفعله هو الاستغفار، آخذاً بآية من

القرآن، فتنحل المشكلة بشكل عجيب، يقول: ما استعصى علي أمر إلا توجهت إلى الله جل وعلا.

قال ابن عبد الهادي في ترجمة شيخ الإسلام نقلاً عن بعض قدامى أصحابه أول أمره، قال: "ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ، فأستغفر الله تعالى ألفَ مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل. قال: وأكون إذ ذاك في السوق، أو المسجد، أو الدَرْبِ، أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي"(١). فالاستغفارُ انشراحٌ في الصُدور، وما أحوجنا إلى الاستغفار في كل أحوالنا.

ومن نظر لآيات الاستغفار في القرآن، صعب عليه حصرها لكثرتها، فهلا تدبرناها؟ هلا طبَّقناها؟ إذا عرض لنا عارض في شؤوننا كلها؛ في بيوتنا، ومع أزواجنا، ومع أولادنا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾

---

(١) ترجمة ابن تيمية لابن عبد الهادي المطبوعة باسم العقود الدرية ص٢٢.

[الشورى]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾[آل عمران]، إن محو الأخطاء، وتخفيف المصائب، وانشراح الصدر، وسعة الرزق، وقبول العمل، كل ذلك وغيره يكون بالاستغفار، وهو شأن يطول الحديث فيه، ولكنها إشارات كما قلت، والقصد التنبيه على أعمال ومعاني يقود إليها تدبر القرآن.

تدبر القرآن يسهل ما استعصى

وهذا يظهر مما سبق، ومن الموافقات أني كنت أتحدث ذات يوم عن تدبُّر القرآن، فقلت: إن القرآن إذا تدبرته يُسَهِّل لك الله ما استعصى من أمرك، ثم ذكرت بعض القصص، وبعد مدة قال لي أحد طلابي: كنت قد تقدمت للجامعة عدة مرَّات فلم يُقبَل مَلَفي! ثم أدخلتُ شفيعاً ممن تُقْبَل شفاعته، لكنها لم تُقبل هذه المرة، فلما سمعتُ حديثك صَمَّمْتُ وعزمتُ على أن أذهب للجامعة، بعد أن سألت الله التيسير، فدخلت وأنا أكرر قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء]، يقول: فقدَّمتُ ملفِّي

للجامعة، فإذا به يُقبَل بدون مناقشة[1].

قد يقول آخر: إنني أنا فعلتُ ذلك ولم أَرَ ما قلت. فيُقال له: ارجع إلى نفسك، فإنَّ عمر رضي الله عنه[2] يقول: والله إنني لا أحمل هَمَّ الإجابة، ولكنني أحمل هَمَّ الدعاء. يقول النبي ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[3]، فإذا وثقت بما عند الله جل وعلا فستجد فَرَجاً عجيباً.

وإذا كان ما سبق أمثلة فردية، فكذلك شأن الأمة، وهل الأمة إلاَّ مجموعة أفراد؟

ولنعتبر بالجيل الأول ولنعلم أننا تعاملنا مع القرآن كما تعامل معه صحابة رسول الله ﷺ لتبدلت أحوالنا؛ فقد كانوا يقرؤونه بتدبّر وتأمّل، وكانوا يعملون به، ربما جلس أحدُهم الليلةَ كاملةً يردِّد آية ويبكي، سبحان الله! أتُراه بعد ذلك يخالفها؟ أتُراه يحجم عن العمل

(١) لا يخفى أنه لا تلازم بين قراءة الآية وتحقيق المطلوب، ولسنا بحمد الله ممن يحدثون أذكاراً لتحقيق المطالب الخاصة! لكن لا يبعد أن يكون تعلقه بالله، والتفاته إلى كتابه، واستعانته به تعالى وحده، سببا للإجابة.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨/ ١٩٣.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بمقتضاها؟ فكيف لا تنير لهم الطريق؟ وتصلح لهم الحال؟ عُدْ إلى القرآن، عُدْ إلى كلام العلماء، إلى كلام المفسرين، قف عند بعض الآيات تجد الدلالات وتجد الهدى وتجد النور، تجد المنجى من كل الشرور.

الختم وكثرة القراءة أم التدبر

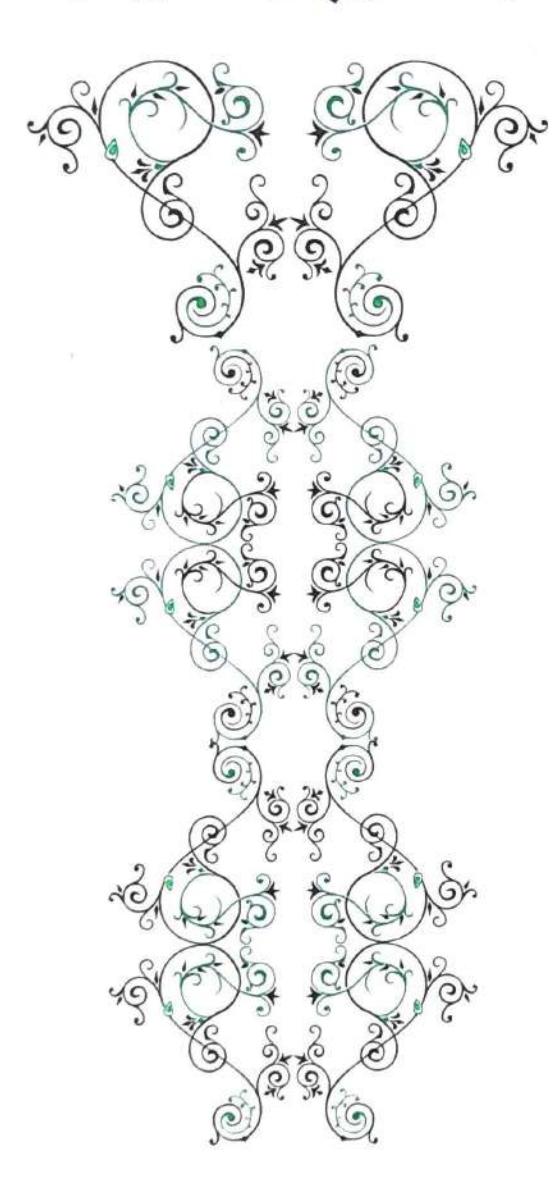
ينبغي للمسلم أن يجعل جزءاً من وقته ليعيش مع القرآن تدبراً وتأملاً، وينبغي أن لا يلتفت إلى من يقول: لو أنني لا أتلو القرآن إلّا متدَبِّراً ما ختمته! بل الجمع بين الأمرين ممكن، اجعل وقتاً للتلاوة وأحضر قلبك ما استطعت، واجعل وقتاً خاصاً للتدبّر، فلو أن أحداً أخذ في كل يومٍ عشر دقائق يَتَدبّر فيها القرآن ويتأوّله ليفهم ما فيه من الدلالات ليعمل بها، ثم استمرَّ على هذا البرنامج عمره. فكم سيكسب من الخير؟ ستتأثر أخلاقه وطِبَاعه وحياته، لأن القلب سيصح.

إنَّ الأمة اليوم في ظروف صعبة، ولا علاج لها إلا أن تعيش مع القرآن، لا تلاوة فقط، وإنما تلاوةً وتعلُّماً وتدبُّراً، وعندئذٍ سيعود لها عزها، وسيهابها أعداؤها.

وإسهاماً في ذلك نعيش في هذه الصفحات بإذن الله مع إبراهيم ﷺ، وسنجد من خلال تدبُّرنا لقصة إبراهيم ﷺ في القرآن الكريم سيرة كاملة وأثراً عجيباً.



مقدمة بين يدي
أخبار إبراهيم عليه السلام





مقدمة بين يدي أخبار إبراهيم عليه السلام

قال ابن عاشور: "إبراهيم: اسم الرسولِ العظيمِ الملقَّبِ بالخليل، وهو إبراهيم بن تارح -وتسمي العرب تارح آزر- بن ناحور بن سروج ابن رعو ابن فالح ابن عابر ابن شالح ابن ارفكشاد ابن سام ابن نوح هكذا تقول التوراة.

ومعنى إبراهيم في لغة الكلدانيين (أب رحيم)، أو (أب راحم)، قاله السهيلي وابن عطية.

وفي التوراة أن اسم إبراهيم: (إبرام) وأن الله لما أوحى إليه وكلمه أمره أن يسمى إبراهيم لأنه يجعله أبا لجمهور من الأمم، فمعنى إبراهيم على هذا: أبو أمم كثيرة.

ولد في أور الكلدانيين سنة (١٩٩٦ ق.م)، ست وتسعين وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح، ثم انتقل به والده إلى أرض كنعان -وهي أرض الفينيقيين- فأقاموا بحاران -هي حوران- ... وتوفي إبراهيم سنة (١٧٧٣ ق.م)، ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح.

وفي اسمه لغات للعرب:

إحداها: إبراهيم وهي المشهورة وقرأ بها الجمهور.

والثانية: إبراهام وقعت في قراءة هشام عن ابن عامر حيثما وقع اسم إبراهيم.

الثالثة: إبراهم وقعت في رجز لزيد بن عمرو بن نفيل :

عُذْتُ بما عَاذَ بِه إبراهِمُ   مُسْتَقْبِلَ الكعبَةِ وهو قائِمُ

وذكر أبو شامة في شرح حِرْزِ الأماني عن الفرَّاء في إبراهيم ستَّ لغات: إبراهيم، أبراهام، إبراهوم، إبراهِم بكسر الهاء، إبراهَم بفتح الهاء، إبراهُم بضم الهاء.

ولم يقرأ جمهور القراء العشرة إلاَّ بالأولى، وقرأ بعضهم بالثانية في ثلاثة وثلاثين موضعاً .. ومع اختلاف هذه القراءات فهو لم يكتب في معظم المصاحف الأصلية إلاَّ إبراهيم بإثبات الياء، قال أبو عمرو الداني: لم أجد في مصاحف العراق والشام مكتوباً إبراهم بميم بعد الهاء، ولم يكتب في شيء من المصاحف إبراهام بالألف بعد الهاء على وَفْقِ قراءة هشام. قال أبو زُرْعَة سمعت عبد الله بن ذَكوان قال

سمعت أبا خُليد القارئ يقول: في القرآن ستة وثلاثون موضعاً إبراهام. قال أبو خليد: فذكرت ذلك لمالك بن أنس فقال: عندنا مصحف قديم فنظر فيه ثم أعلمني أنه وجدها فيه كذلك، وقال أبو بكر ابن مهران: روى عن مالك بن أنس أنه قيل له إن أهل دمشق يقرأون إبراهام ويدعون أنها قراءة عثمان رضي الله عنه، فقال مالك: ها مصحف عثمان عندي ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق"(١).

وفيما يلي معلومات تاريخية مختصرة عن إبراهيم عليه السلام، جمعتُها من بعض بحوث المعاصرين وكتب المؤرخين:

- المدة التاريخية التقريبية : ١٩٩٧ - ١٨٢٢ ق.م، أو قبيلها.
- وقت البعثة بالتقريب : ١٩٠٠ ق.م.
- قومه عليه السلام : الكلدانيون.
- والده : آزر وهو تارح اسمان، والمحفوظ والمعروف عند أهل العلم الأول.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦٨١-٦٨٤.

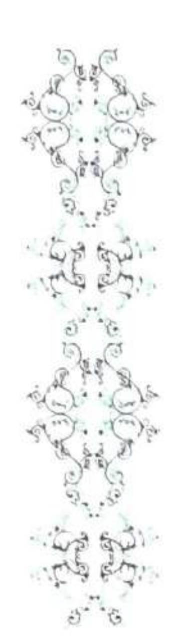
- أولاده : إسماعيل، وإسحاق، ومديان، ومدان، وزمران، ويقشان، وبشباق، وشوح.
- عدد ذريته : قيل ثلاثة عشر وقيل ثمانية.
- إخوته : ناحور، وهاران والد لوط.
- ترتيبه بينهم : الأوسط.
- مكان بعثته : أور بالعراق.
- ذكره في القرآن الكريم : في ٦٩ موضعاً.
- أكبر أولاده : إسماعيل عليه السلام وهو أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة.
- مدة حياته : أصح ما قيل ٢٠٠ سنة.
- مكان وفاته : الخليل على ما يعتقد.

قال شيخ الإسلام: "كان غير واحد من أهل العلم يقول: لا يثبت من قبور الأنبياء إلاّ قبر نبينا ﷺ. وغيره قد يثبت غير هذا أيضا

مثل: قبر إبراهيم الخليل عليه السلام"[1]، وقال في موضع آخر وقد ذكر قبر إبراهيم عليه السلام: "هذا إذا كان القبر صحيحاً، فكيف وعامة القبور المنسوبة إلى الأنبياء كذبٌ، مثل القبر الذي يقال إنه قبر نوح؛ فإنه كذب لا ريب فيه، وإنما أظهره الجهال من مدة قريبة وكذلك قبر غيره"[2].

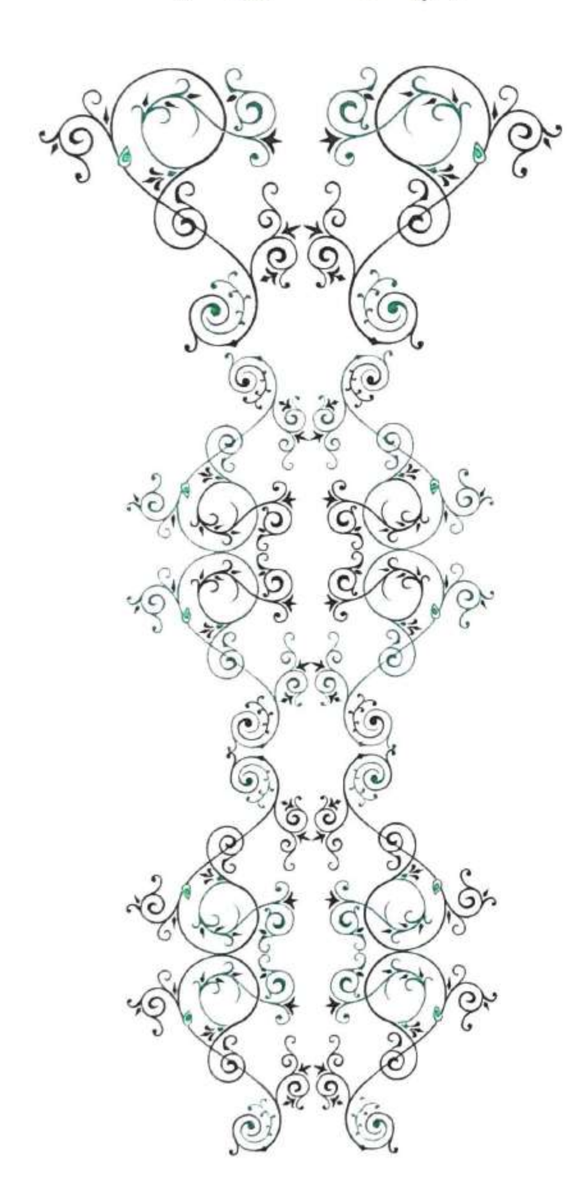
(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٤١.





لماذا إبراهيم عليه السلام؟



لماذا إبراهيم عليه السلام؟

جمعه خصال الخير وكثرة الثناء عليه

إبراهيم عليه السلام خليلُ الرحمن وجامعُ خصالِ الخير، وهو إمامُ الموحدين، أُمِرنا بأن نقتدي به عليه السلام، وقد أثنى الله تعالى عليه في مواضع: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود]، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

﴿ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل]، ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [آل عمران]، أوبَعْدَ هذه الآيات تجد محلاً لسؤال سائلٍ: لماذا هذا الموضوع؟ إن تدبر آية واحدة مما سبق يكفينا لنعرف أن هذا الإمام حري بأن نقف معه وأن نتدبر أخباره، فكيف بكلِّ هذه الآيات وغيرها؟

واقع الأمة وحاجتها لأن تقتدي به

ثم إنَّ في هذا الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم ما يظهر أنها تحتاج إلى قدوات ترفع من همتها، وتصبو بها نحو سؤددها الأول، وتغرس فيها معاني تؤهلها للقيادة، وإن لنا أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، فنحن أحق الناس به اليوم. كما أن أمتنا أحق الأمم بالخيرية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران]، ولكنها لما تنكبت خطى من هدى الله وأمر باتباع هداهم، وفصل كثيراً من أخبارهم في كتابه، تغيرت حالها وآلت أوضاعها إلى ما ترى! فمن الذي يقود البشرية الآن؟ أهي أمَّتنا أم إخوان القردة والخنازير من اليهود والنصارى والمشركين؟ مع كل

أسف آذوا المسلمين وسيطروا على إمكاناتهم ومقدراتهم. لأن المسلمين تخلَّوا عن كتاب الله جل وعلا، إلاّ من عصمه الله ووفقه، أسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم منهم.

إن إبراهيم -عليه السلام- جاء لمجتمع يَعُجُّ بالشرك والكفر، فعالجه وفقاً لمنهاج عظيم، أمرنا الله تعالى بالاتساء به فيه، كما قال الله جل وعلا: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [الممتحنة:٤] الآية، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾ [الممتحنة]، وحين ذكر اللهُ جلَّ وعلا أبانا إبراهيم في سورة الأنعام وذكر الأنبياء من قبله ومن بعده قال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

فلابد من الاقتداء بأولئك لنسلم في الآخرة، وننعم في الدنيا، لابد من الاقتداء بالمصطفَيْن لنكون خير أمة أخرجت للناس كما كان سلفنا، وتزيد حاجتنا للاقتداء اليوم مع تأخر الأمة التي من حقها أن تتقدم.

والغرض من هذه الدروس أن نعيش مع إبراهيم ﷺ ونتدبر شؤونه؛ في توحيده، في عبادته، في أخلاقه، في معاملاته، إلى غير ذلك من أجل أن نقتدي به، ومن أجل أن يرتفع مستوى الأمة من الواقع الذي تعيشه الآن -وهو واقع محزن- إلى مستوى الخيريّة والقيادة، وطريق الخلاص بيِّن، يقول المصطفى ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي»[1]، فإذا كُنَّا نَنْشُدُ العزة -ويجب أن نكون كذلك- فلنسلك الطريق إليها. فمن احتاج أمراً سلك الطريق الموصلة إليه، فإذا أردة الصلاة ذهبت إلى المسجد، وإذا احتَجْتَ إلى غَرضٍ من أغراض الدنيا ذهبت إلى المكان الذي يوجد فيه، فإذا كُنَّا نُريدُ العزةَ والسُّؤْددَ والخيرية فلنسلك هذا الطريق، وهو طريق واحد؛ إنه اتباع المرسلين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾[الأنعام:٩٠]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود]. هذا ما قاله الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، والأمة اليوم تحتاج إلى

---

(١) أخرجه الحاكم ١/ ٩٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومالك في موطئه ٢/ ٨٩٩ بلاغاً.

تثبيتٍ، لأن هناك من أساء الظنَّ بالله جل وعلا! هناك من اتهم الدِّين بالتَّأخر! وما سبب ذلك إلا ضعف الإيمان.

وأخبار إبراهيم وما واجهه من مِحَنٍ ومصائب، تثبت بإذن الله من تدبرها وتعقل ما فيها. إن الأمَّةَ اليوم تحتاج إلى من يسكن اضطرابها، تحتاج إلى من يثبتها، تحتاج إلى من يَدُلُّها على الصراط المستقيم، وأخبار إبراهيم عليه السلام سنجد فيها ذلك بإذن الله، كما سيجد متتبعها أصولاً تنفعه في التوحيد، وفي العبادة، وفي الأخلاق، وفي أبواب كثيرة لا تحصى، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

إن في أخبار إبراهيم عليه السلام ما ينير الطريق لشبابنا، ويرشدهم إلى مسالك النجاة إن هم اقتدوا بمن آتاه الله رشده شاباً وأشيباً، انظر إلى اهتمامات كثير من شبابنا اليوم -هداهم الله- وانظر إلى اهتمامات إبراهيم عليه السلام، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء]، كان فتى، شابًّا، ولكن انظر إلى اهتماماته بالتوحيد، بالعقيدة، برِفْع أمته عن ضحاضح الشرك، وإنجائهم من الخسران المبين، ثم انظر إلى هموم كثير من شبابنا اليوم تجدها تجول في ملاعب الرياضة، وساحات

في الفن، في أهواء الأعداء، وأنواع المخازي. ومن غرضنا عندما نعرض طرفاً من سيرة إبراهيم عليه السلام في هذه الصفحات أن ندعو الشباب إلى اتخاذه قدوة لهم في شبابه وفي كهولته وفي شيخوخته، نريده قدوة لكل الأجيال. بل في سيرة إبراهيم عليه السلام ما تحتاجه نساؤنا!

انظر إلى سيرته مع زوجتيه سارة وهاجر عليهما السلام، سارة أم إسحاق، وهاجر أم إسماعيل عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، تجد له معهما مواقف فيها عبر، تجد كيفية التعامل مع الزوجات، تجد السكينة، فبيت إبراهيم عليه السلام من أفضل البيوت، فيه اطمئنانٌ وإيمانٌ، وشيء من ذلك سيأتي بإذن الله[1].

فنحن إذاً نعيش مع هذا الإمام الأُمة، مع إبراهيم؛ لأن اللهَ أمرَنا أن نقتدي به، وفي أخباره عِبَرٌ لطبقات شتى رجالاً ونساءً، كهولاً وفتياناً، ونعيش كذلك مع أخباره في القرآن الكريم لأن الله أمرنا بتدبره، وما ثنى أخبار هذا الإمام ونوَّه به إلاّ لشأنها.

فكل من قرأ سيرة إبراهيم سيجد فيها مَنْهلاً عَذْباً، في العبادةِ

(١) انظر ص٤٠٢ من هذا الكتاب، وما بعدها.

والتوحيدِ والولاءِ والبراءِ، في التفكيرِ، في القضايا الاجتماعية، وفي الضيافةِ، وفي النَّجدةِ، وفي المبادَراتِ، وفي الحِكْمة، وفي التعاملِ مع القضايا المستَجِدَّة.

نعم إنَّ إبراهيم عليه السلام قدوة، ولا عجب في ذلك، فقد سمَّاه الله أُمَّة، فهو إمام، وهو أسوة، وفي سيرته الشمول والتكامل، وفي مواقفه العظات والعبر، وفي تصرفاته الرشاد والحكمة، ولذلك اصطفاه الله جل وعلا، وكان هو خليل الرحمن، محل الأُسوة والاقتداء.

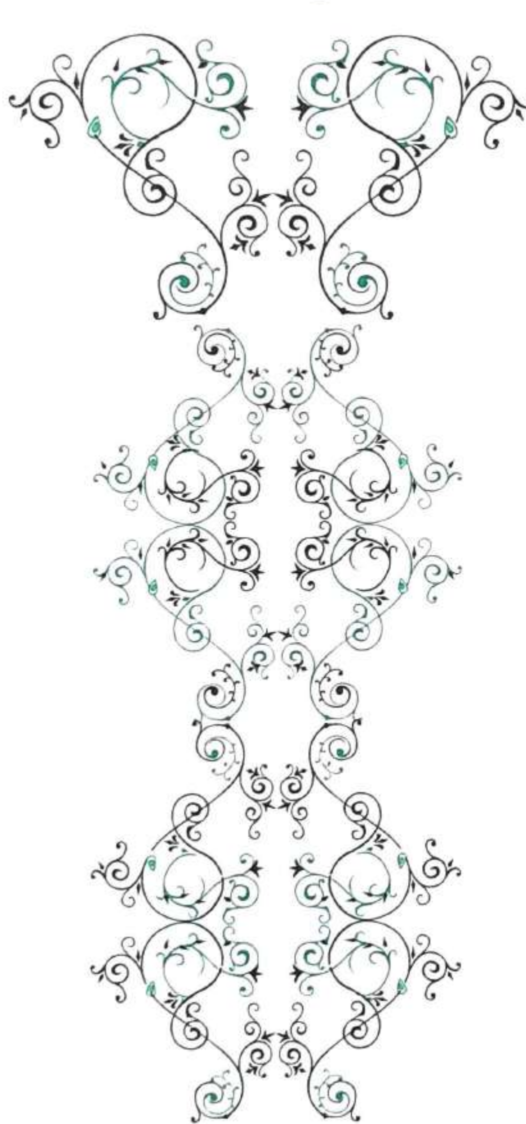
إننا عندما نعيش مع أولئك الرُّوّاد، ونعلِّم سِيَرهم لأبنائنا وشبابنا، فإننا نقول لهم: هؤلاء هم آباؤكم، فكونوا على آثار كرامكم في مكارمهم لتكنوا كراماً، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، فعطفهم باسم الأبوة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ﴾.

فقدموا لأبنائكم سيرة أبيكم، وإخوته من الأنبياء والمرسلين، ولا تقدِّموا لأبنائكم نماذج الكفار، والممثلين أو اللّاعبين أو مَنْ هم أقلُّ

من ذلك، فإن تراثَنا وقبله كتاب ربنا مليءٌ بالنماذج الرائعة التي ترفع من مستوى الأمة وتؤهلها لسُّؤْدد وأسباب الكرامة والعزة في وقتٍ هي أحوج ما تحتاج إلى العِزَّة والكرامة والسُّؤْدد في ظل هذا الواقع المؤسف.

إن إبراهيم كان أُمَّة







إن إبراهيم كان أمة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[النحل]، إن الوصفَ بالأمة في هذه الآية مرتبةٌ عاليةٌ جداً، وهي أعلى من الوصف بالإمامة، لأن الأمّة إمامٌ وزيادة، وأما الإمام فقد لا يكون أُمَّةً، فإذا وُصف الإنسان بأنه أمة فهو ولا شك إمام، ولكن إذا وُصف بأنه إمام فهي درجة عالية، لكنه قد لا يصل إلى درجة أنْ يُوصف بأنه أمة. فلماذا كان إبراهيم ﷺ أُمَّة؟

معنى الأمة

في مستهل هذه السيرة القرآنية يحسن أن نقف مع معنى الأُمة، فما المراد بذلك؟

قيل: إنه كان وَحْدَه أُمةً من الأمم، لكمال صفاته في الخير، وأنشدوا:

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع الأمة في واحد!

قال ابن الأعرابي: "يقال للرجل العالم: أُمّة، والأُمّة: الرجل

الجامع للخير"[1]. فعلى هذا معنى (كان أمة) أي معلماً للخير، أو جامعاً لخصال الخير، وقيل عالماً بما علَّمه الله من الشرائع. ونحو هذا قول بعضهم: إنه كان في الفضل والفتوة والكمال بمنزلة أمة كاملة[2]. وقيل وصف بأنه أمة: لأنَّه كان مؤمناً وحدَه، نقل نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، أي: مرَّ على إبراهيم عليه السلام زمن لم يكن فيه مؤمن غيره فكان وحده بمثابة الأمة[3]، ومن شواهد ذلك ما وَرَد في قصة زيد بن عمرو بن نفيل عندما وَصَفه النبي ﷺ قال: «يبعثه الله أمةً وحده»[4]، وإبراهيم عليه السلام كان في زمنٍ من الأزمان هو المؤمن الوحيد من بين قومه، وبقيّتهم كانوا على الشرك، ولذلك وُصف بأنه أُمَّة.

---

(١) ذكره الشوكاني في تفسير الآية.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/ ٢٥٤.

(٣) انظر السابق وتفسير ابن أبي حاتم (١٣٥٣٩) وما بعده.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٨١٣١) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

وقيل: سمي أمة لأن الناس يأتمون به[1]، فهو قدوة وأسوة، ولذلك سمي أمة. وهناك معاني أخرى ذكرها العلماء عند تفسير هذه الآية، وكلها متقاربة، وقد استحق هذا الوصف لذلك كلِّه عليه الصلاة والسلام.

وصفه بالأمة يقتضي الاقتداء به

والمهم هو أن كونه أمة عليه السلام، يقتضي مِنَّا ما يأتي:

أولاً: أنْ نقرأ سيرتَه بتدبُّرٍ وتأمُّلٍ، وأعظم كتاب لسيرة إبراهيم عليه السلام هو القرآن. فقف أخي الكريم وأنت تَتْلو كتاب الله متأملاً متدبراً كلما مرت عليك سيرة إبراهيم عليه السلام،قف وتأمل قصته مع قومه عندما حطَّم أصنامهم، قف مع قصته عندما حاجَّه قومُه كما في سورة الأنعام، قف مع إبراهيم عليه السلام في أخلاقهِ وضيافتهِ حين قرّب إلى أضيافه عجلاً سميناً حنيذاً وقال لهم: ألا تأكلون؟ كم مررنا على هذه القصة العظيمة التي تكررت في القرآن لِحِكَم عظيمة؟ فهل خرجنا منها بعبر؟

ثانياً: أَنْ نتخذ إبراهيم قدوة وأسوة، ومثلاً لنا جميعاً، وإن كان

---

(١) نقله ابن عطية عن بعض اللغويين انظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٩.

مثلنا الأَوْلَى هو رسول الله ﷺ، لكن مع ذلك فإبراهيم عليه السلام هو قدوةٌ ومَثَلٌ نُقدِّمه لأجيالنا، فقد أمر الله نبينا محمداً ﷺ باتباع إبراهيم واتخاذه قدوة ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾.

فتأمَّل أخي الكريم حالك، وانظر إلى صفات إبراهيم كما في القرآن واسأل نفسك: كم خَصْلةً فيك من خصاله عليه السلام؟ لا أقول لك: هل أنت كإبراهيم؟ لا فذلك بعيد، إن إبراهيم عليه السلام كان أمة! لكن أقول لك: كم خَصلةً فيك من خِصَال الخير التي تحلّى بها عليه السلام، هل توحيدك لرب العالمين خالصاً من شوائب الشرك كتوحيده عليه السلام، هل هو قدوة لك في الولاء والبراء، وقد ضاع هذا المَعْلَمُ عند كثير من المسلمين اليوم مع الأسف، فهل من همِّك أن تُحقِّقَ الولاء والبراء كما حَقَّقَهُ إبراهيم؟هل عبادتك مثل عبادة إبراهيم عليه السلام، هل تعاملك مع أهل بيتك مثل تعامل إبراهيم مع أهل بيته؟ انظر كيف تَعامَل مع زَوْجَتَيْهِ، انظر كيف تعامل مع أبنائه، مع إسماعيل وإسحاق عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، أخلاقٌ عالية؛ شُورى، ورحمة، وحكمة. هل أنت في ضِيَافتك واستقبالِك للضيوف كإبراهيم عليه السلام؟

مما ورد أن إبراهيم لم يأكل وحده، وإذا حضر الطعام ولم يأته ضيف ذهب يلتمس ضيفاً، ونحن نقول: إن هناك كثيراً من المسلمين إذا رأى الضيف صدّ عنه خوفاً من أن يأكل معه!

هكذا يجب أن نُقدِّم هذا الإمام لأبنائنا، لقد كان إبراهيم عليه السلام في تَوكُّلِه وإيمانه خير قدوة، ولا عجب، فهو خليلُ الرحمن، قَلبُه مع الله.

إبراهيم عليه السلام واجَهَ الابتلاءات العظيمة في كل مراحل حياته، من شبابه حتى وفاته عليه السلام، وصبر وصابر وثبتَ حتى نال الجزاء الأسمى والأعلى في الدنيا والآخرة، فهل أنت كذلك؟ إذا واجهتْك هذه الابتلاءات فهل تأخذ بالأسباب كما أخذ بها إبراهيم عليه السلام؟

لا نريد أن نعيش مع هذا الإمام لاستمتاع بقصة بَطَلٍ فقط! بل من أجل أن نتخذه قدوة وإماماً، كما أنَّ محمداً ﷺ قُدوَتُنا وإِمامُنا، فإبراهيمُ كذلك، فهُما كلاهما خليل الرحمن، وكلاهما من أُوْلي العَزْم من الرسل.

تدبر أخباره وإضاءات على واقعنا!

من تدبر القرآن، وعاش مع أخبار هذا الإمام، وجد لذلك إضاءات تكشف له حقائق على أرض الواقع، من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]،

آية عظيمة تكشف لك عدداً من السفهاء اليوم! إذا رأيتَ من يرغب عن ملَّة إبراهيم فاعلم أنه سفيه.

فهؤلاء العلمانيون، وهؤلاء المنافقون سُفهاء بنَصِّ القرآن، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، هذا قول الحقِّ جَلَّ وعلا.

كذلك من إضاءات أخباره حرصه عليه السلام على الأمن واستقرار المجتمع: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، وإنك لتعجب من عناية إبراهيم عليه السلام بذويه في الجانب الاجتماعي والديني، فهل يُعْنى كثير من أهل الفضل بالشَّأْنِ الاجتماعي وحاجات النَّاس، كأكلهم وشربهم وطعامهم كما كان يُعنى به إبراهيم عليه السلام؟ حيث يقول: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ

مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [البقرة:١٢٦]، دعا لمكة بالأمن ودعا لأهلها بالبركة، بأنْ يُبارك الله في طعامِها وشرابِها[١].

وفي ما يأتي نقف مع صفات هذا الإمام، نقترب من هديه، ونقتبس من مشكاته، ونستفيد من كريم شمائله وأخلاقه وأفعاله، لعلّ الله أن يَمُنَّ علينا وأن يعفو عنَّا وأن يجمعنا به وبمحمد ﷺ في جَنَّات النعيم.

وتلك درجة عالية فمقام إبراهيم عليه السلام رفيع! عندما أُسْرِيَ بالنبي ﷺ وعُرِج به إلى السماء، وَجَد إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة مُسْنداً ظهره للبيت المعمور[٢].

والطريق مفتوح أمامك لتكون معهم؟ نعم، الطريقُ مفتوحٌ؛ فقد بَيَّن لنا النبي ﷺ أنَّ «المرء مع من أحب»[٣]، فإن كنتَ تحبُّ إبراهيم -

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

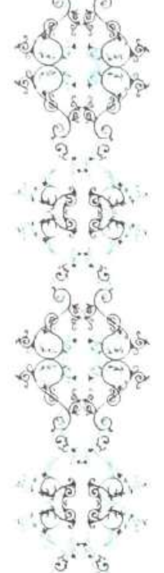
(٣) أخرجه البخاري (٦١٧٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ويجب أن تكون كذلك- فاتَّبِع هديه، واقتدِ به، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وأبشِر بإذن الله، ولذلك لما سأل ربيعةُ بنُ كعبٍ الأسلمي ﷺ رسول الله ﷺ أن يكون معه في الجنة قال له: «أعني على نفسك بكثْرَةِ السُّجود»[١].

وفي البدء نقف مع فضل إبراهيم بإشارات تناسب المقام، إذ يصعب أن نحصي هذا الفضل في هذه السطور القليلة، ولكني أشير إشارات مناسبة.

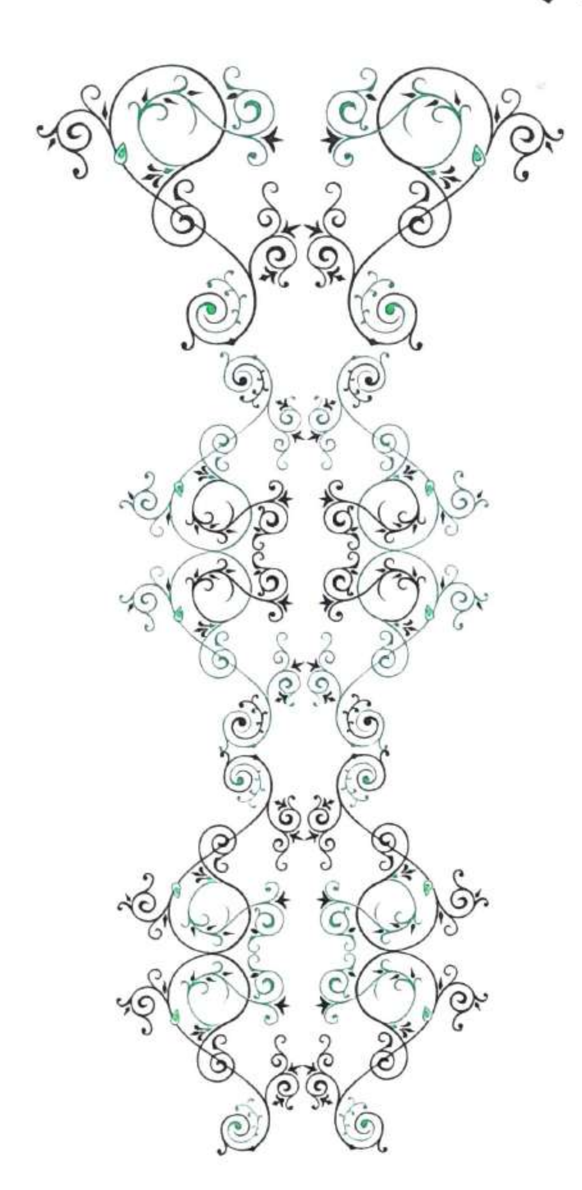
(١) رواه مسلم في صحيحه (٤٨٩).





فضائل

إبراهيم عليه السلام



فضائل إبراهيم عليه السلام

أبو الأنبياء ومن أفضلهم

أولاً: إبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، يقول الله جل وعلا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) ﴾ [العنكبوت]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦) ﴾ [الحديد]، فرجل مؤمنٌ هو أبو الأنبياء كفاه بذلك شَرفاً وفضلاً ومقاماً ومنزلة.

ومن فضل إبراهيم عليه السلام أنه أحدُ أُولي العزم مِن الرسل، بل هو أفضلُهم بعد محمدٍ ﷺ، وأولو العزم من الرسل هم الذين ذكرهم الله جل وعلا في سورة الأحزاب[1] وفي سورة الشورى، قال سبحانه وتعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى

(١) الآية: ٧.

ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى]، فهم خمسة: أوّلهم نوح ﷺ، ثم إبراهيم ﷺ، ثم موسى ﷺ، ثم عيسى ﷺ، ثم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأفضلُهُم هو محمد ﷺ ثُمَّ يأتي مِن بعده في الفضل إبراهيم ﷺ. وكل رسولٍ فهو نبيٌّ، وليس كلُّ نَبي رسولاً، وأولو العزم هم أعلى الرسل درجات، فهم أنبياءٌ ورسلٌ.

خير البرية

ثانياً: ومن فضله ﷺ أنه خير البرية، شهد له بذلك رسول الله ﷺ، ففي «الصحيح» أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا خَيرَ البَرِيَّة، فقال ﷺ: «ذاك إبراهيم ﷺ»[1]، كيف نجمعُ بين هذا القول وبين كون نبيِّنا ﷺ هو خَير البَرِّية، حيث قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[2]؟ ذكر الإمام النووي[3] وغيره[4] أن قولَ النبي ﷺ لذاك

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) شرح مسلم ١٥/ ١٢١.
(٤) كالقاضي عياض في إكمال المعلم ٧/ ١٧٠.

الرجل: «ذاك إبراهيم» تواضعٌ منه عليه الصلاة والسلام، وإبعاداً لأمَّته عن الغلو، وإلا فقد ثَبَت أنه سيِّدُ ولدِ آدم، وهو معنى ذكره الإمام أحمد[1]، والشاهدُ هنا أنَّ هذه منزلةٌ عظيمةٌ شَهِد بها النبيُّ ﷺ لإبراهيم عليه السلام، وهذا فضلٌ ودرجةٌ عالية. لا أستطيع أن أوفي هذه المعاني حقها، ولكن كل ذلك توطئة وإشارات لوقوفنا مع هذا الإمام، مع أبينا إبراهيم عليه السلام.

أول من يُكْسى يوم القيامة

ثالثاً: ومن فضل إبراهيم عليه السلام: أنه أول من يُكْسى يوم القيامة، فقد ثَبَت في «الصحيح» من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن أول من يُكْسى هو إبراهيم عليه السلام[2]. قيل لأنه أُلْقِي في النار عُرياناً وفيه نظر من جهة ثبوته ومعناه، وقد عَلّل بعض أهل العلم هذا فقال: أول من يُكْسى لمبادَرَاتِهِ العظيمة ولِسَبْقِهِ، فهو صاحبُ مُبادرات عظيمة ذكرها القرآن في مواضع عِدَّة، فقد بادر بإنكار الأصنام وتحطيمها،

(١) انظر فتح الباري لابن رجب ١/ ٣٩.

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

وبادر بإبداء العداوة الدينية لقومه، وبادر بالنُّصْحِ والمناظرة، وكان أول من سَنَّ سُنناً حسنة، قال ابن حجر: "وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة، منها أول من ضاف الضيف، وقصَّ الشارب، واختتن، ورأى الشيب وغير ذلك، وقد أتيت على ذلك بأدلة في كتابي إقامة الدلائل على معرفة الأوائل"[1]، وقيل هو أول من لبس السراويل، وأول من استحد[2]، فلأوليته عليه السلام ومبادرته بالخير، أكرمه الله جل وعلا بأن يكون أول من يُكْسى يوم القيامة، ويأتي لهذا المعنى مزيد بيان[3].

خليل الله

رابعاً: ومن فضائل إبراهيم عليه السلام: أنه خليلُ الله، والخُلَّة درجة عالية، فهي أعلى درجات المحبة، وهي خاصة بإبراهيم وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ

(١) فتح الباري ٦/ ٣٩٠.

(٢) انظر البداية والنهاية ١/ ٢٠٢.

(٣) انظر ص٣١١ من هذا الكتاب.

خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء]، ويقول نوح عليه السلام للخلائق: «ائتوا إبراهيم ﷺ الذي اتخذه الله خليلا»[1]، وذلك في حديث الشفاعة، وقد بَيّن النبي ﷺ أنه خليلُ الرحمن، كما في صحيح مسلم من حديث جندب بن جنادة قال ﷺ: «إنَّ الله اتخذني خليلاً كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً»[2]. وهي درجة تدل على فضلِ إبراهيم ومنزلتِه عليه السلام، وما حصل على هذه الدرجة إلا لأعماله العظيمة وخلاله النبيلة، مع سلامة قلبه التي أشيد بها في التَّنزيل! ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]، فبذلك كله استحق عليه السلام أن يوصف بالأمَّة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، فهو قُدوة وأسوة، وتلك الدرجة نتيجة لأعمال عظيمة جبارة ذكرها الله جل وعلا في كتابه، وذكرها النبي ﷺ في مواضع عدة، لذلك وغيره كان إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن.

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، رواه البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (١٩٣).

(٢) صحيح مسلم (٥٣٢).

الشبه بينه وبين نبينا محمد ﷺ

خامساً: ومن فضل إبراهيم عليه السلام أنَّ محمداً ﷺ -وهو أكمل الناس- كان أشبه الناس بإبراهيم، في سمته الحسن، وأخلاقه العالية، وهديه الطيب، فإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام يتشابهان في الخَلْق والخُلُق، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعدٌ آدم، على جَملٍ أحمر مخطوم بخُلْبَةٍ كأني أنظر إليه انحدر في الوادي»(١)، وجاء عند أحمد والترمذي من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاةً من النبيين، وإن وليي أبي وخليل ربي، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨]»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (١٦٦)، ومسلم (٣٣٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٨٠٠)، والترمذي في سننه (٢٩٩٥)، والحاكم في مستدركه (٣١٥١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الجامع (٣٩٢١)، وأُعِل بالانقطاع.

استجابة الله دعاءه

سادساً: ومما يَدلُّ على مكانة إبراهيم عليه السلام استجابة الله جل وعلا الدعاء له: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة]، وقد استجاب اللهُ جلَّ وعلا لإبراهيم عليه السلام في مواضع مثبتة في القرآن؛ فقد دعا بالبركة لأهل مكة، وهو الذي دعا الله أن يبعث في القوم نبياً منهم، فبعث الله محمداً ﷺ، قال ﷺ: «أنا دعوةُ أَبي إبراهيم وبُشْرَى عيسى ورؤيا أُمِّي»[1]، وقد أخبرنا الله تعالى عن تلك الدعوة فقال عز وجل خبرا عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة] فاستجاب الله دعوته، وجاء عيسى عليه السلام بعد ذلك وبَشَّر بمحمد ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]. ومن إجابته لخليله إحياء الموتى له كما في قوله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٦١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة].

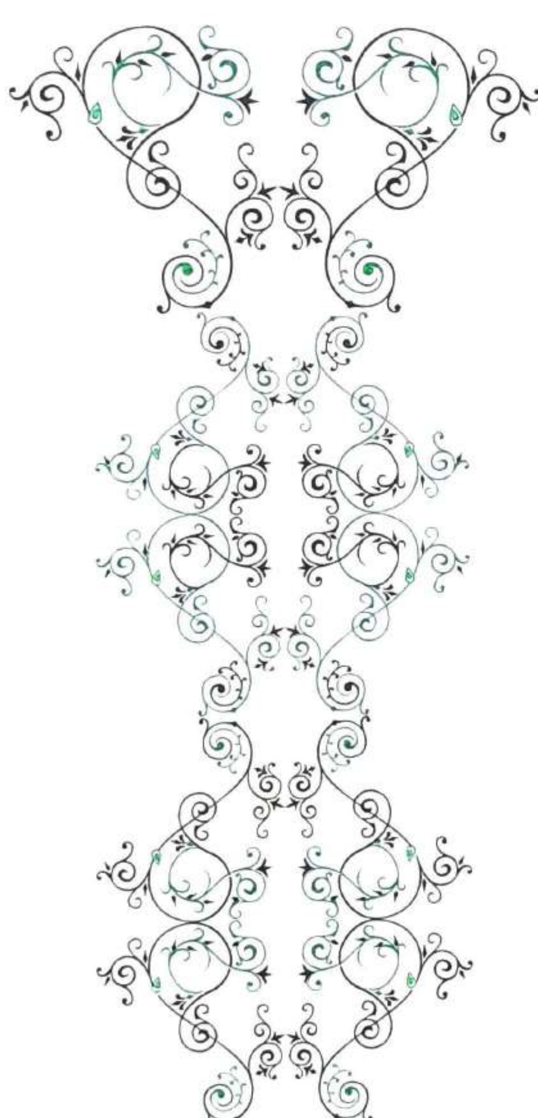
لماذا نذكر بعض فضائله وخلاله

إنَّ فضائلَ إبراهيم عليه السلام يَصْعُب حَصْرُها في هذه الصفحات، وفضيلةٌ واحدة من هذه الفضائل التي أشرتُ إليها كافيةٌ لتبيِّن منزلةَ هذا الإمام، هذا الرجل الأُمة ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠].

إنَّ ثمرة الوقوف على هذه الفضائل هي معرفة شيءٍ من مقام إبراهيم عليه السلام، ولنتَّبع هديه فنقتدي به ﷺ، ولهذا ثُنِّيَت تلك الأوصاف والأخبار في القرآن، ونص الله تعالى فقال: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]، وبعد ذلك قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ [الممتحنة: ٦]، ولا يمكن أن تكون لنا فيه أسوة إلاّ بعد أنْ نعرف صفاته وأخلاقه

المُقتدَى به فيها، وإلاّ فكيف نتَّبع إماماً لا نعرف سيرته؟! وفي الصفحات الآتية سنقف مع سيرته عليه السلام من أجل أن نعتبر ونقتدي به فيما ذكر الله جل وعلا عنه؛ في توحيده، وفي ولائه وبرائه، وفي عبادته، وفي كرمه، وفي خُلُقه، وفي عامة شأنه المذكور في شريعتنا، المنوَّه به في قرآننا، الذي فرض الله علينا تدبره والعمل به، والله المستعان.

إبراهيم عليه السلام والتوحيد





إبراهيم عليه السلام والتوحيد

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ كما ذكرتُ لم يصل عليه السلام إلى هذه الدرجة العالية إلا لصفات عظيمة كان يتصف بها. ومن أجل أن نقتدي به لا بد أن نعرف هذه الصفات، ولا بد أن نعرف المسلك الذي سلكه؛ فمن ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان إماماً من أئمة الموحدين العظام، فحياته كانت توحيداً.

إبراهيم إمامُ المِلَّةِ الحنيفية

وقد نص بعض المفسرين على أن إبراهيم عليه السلام "رئيس الموحِّدين، وقُدوةُ المحققين، جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدَّامغة. ولذلك عقَّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين"[1]. "نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامها، وخفض رايات الشرك وجَزَمَ ببواتِرِ الحُجَجِ هَامَها"[2]. وما ذاك إلاّ لأن التوحيد قضية عظمى

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ٣/ ٤٢٥.

(٢) انظر روح المعاني ٧/ ٤٨٣.

باشرت جميع أحواله عليه السلام، ولهذا وصفه الله بالحنيفية فقال: ﴿وَقَالُوا۟
كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١
(١٣٥)﴾ [البقرة]، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٥)﴾ [آل عمران]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل عمران]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ
دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ
إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾ [النساء]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾ [الأنعام]، ﴿إِنَّ
إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل]، إلى
غيرها من الآيات، قال المحققون من أهل العلم: "الحنيفُ: المُقْبِلُ على الله، ويلزم هذا المعنى مَيْلُه عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف لا أنَّه موضوعه لغة"[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٤.

تبرئته من الشرك

والآيات في تبرئته عليه السلام من الشرك كثيرة:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل].

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

[النحل].

ولو وقفنا مع الآيات التي وردت في تبرئة إبراهيم عليه السلام من الشرك لطال بنا المقام، والمهم أن نعلم أن إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين، وكذلك نبينا ﷺ، وقد قال ابن القيم رحمه الله في معرض حديثه عن التوحيد وبيان أنّ أقربَ الخلقِ إلى الله أقومُهم به قال: "لهذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أقرب الخلق إلى الله، وأقربهم إليه وسيلة أولو العزم، وأقربهم الخليلان، وخاتمهم سيد ولد آدم، وأكرمهم على الله لكمال توحيده وعبوديته لله"[(١)]، والمهم الآخر استحضار أن هذه الصفة من أجَلِّ صفاته عليه السلام التي يجب أن نقتدي به فيها.

أقسام التوحيد

وبمناسبة ذكر التوحيد يحسن أن أشير إلى أقسام التوحيد من أجل أن يُستوعب الموضوع؛ فأقول: قسَّم العلماءُ التوحيدَ إلى ثلاثة أقسام، وهو تقسيمٌ اصطلاحي، فبالتتبُّعِ والاستقراء والحَصْر وصلوا إلى هذا

---

(١) الصواعق المرسلة ٢/ ٤٠٣.

التقسيم: توحيدُ الرُّبوبِيَّة، وتوحيدُ الأُلوهِيَّة أو الإلهيَّة، وتوحيدُ الأسماء والصفات.

النوع الأول: توحيد الربوبية: وهو توحيدُ الله جل وعلا بأفعاله هو؛ فهو الخالقُ وهو الرازقُ والمحيي والمميتُ؛ فنوحِّدُ اللهَ جل وعلا بأفعاله؛ فهو الخالقُ وحده، والرازقُ وحده، والمحيي وحده، والمُميتُ وحده، إلى غير ذلك من الأفعال التي تدخل في توحيد الربوبية.

النوع الثاني: توحيد الألوهية: وهو توحيدُ الله بأفعال العباد؛ فيجب أن نُوَحِّدُ الله جل وعلا بأَفْعَالنا؛ فلا نعبدُ إلا الله، لا نصرف شيئاً من العبادة لغير الله، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فوجب توحيده بأفعال العباد.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو أنْ نُثْبِت لله جل وعلا ما أَثْبَتَهُ لنفسه، وما أثبته له رسولُه ﷺ من الأسماء والصفات، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله ﷺ من الأسماء والصفات ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف.

هذهِ هي أقسام التوحيد التي ذكرها العلماء، وبعضهم جعلها قسمين، والمعنى واحد.

توحيد الربوبية يعرفه المشركون

أما القسم الأول -وهو توحيد الربوبية- فالمشركون الذين بعث إليهم محمدٌ ﷺ، بل عامة المشركين يعترفون به في الجملة، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزُّخرُف]، يعترفون بأنَّ الله هو الرزاقُ ذو القوةِ المتين، لكنهم يُخَالفون في توحيد الأُلُوهِيَّة، وهذا النوع من التوحيد هو الذي بُعثت به الرسل، وأُنزلت من أجله الكتب، وفي هذا النوع من التوحيد أيضاً تخبَّطت البشرية ووقع فيها الخلل، حتى في أمَّةِ الإسلام، تجد مَن أخلَّ بهذا الركن كما سيتضح بإذن الله.

تفاوت الصالحين في التوحيد

إبراهيمُ عليه السلام حَقَّق التوحيد بأقسامه كلها. حقق توحيد الربوبية؛ وتوحيد الإلهية؛ وتوحيد الأسماء والصفات. وكذا سائر الأنبياء -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- وإن اختلفت شرائعهم في كثير من الأحكام؛ فهم مُتَّفِقون في العقائد والأصول، إذ كُلُّهم

مسلمون موحدون، غير أن التوحيد منه أمور لا يكون إيمان العبد إلاّ بها، ومنه أمور واجبة، ومنه كمالات وهذا يتفاوت فيها أولياء الله وأنبياؤه تفاوتاً عظيماً فليُنتبَه لهذا المعنى. وقد ظهرت بجلاء عناية إبراهيم الخاصة بالتوحيد، وكمال تعلقه بربه تعالى دون سواه، وتأمل ما يُذكر من قوله لجبريل وهو بين السماء والأرض يتجه نحو النار العظيمه، وجبريل عليه السلام يسأله: ألك حاجة فيقول: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى[1].

غضب رسول الله ﷺ من نسبة إبراهيم عليه السلام للشرك

وقد برأ الله تعالى إبراهيم من الشرك، وأثنى عليه بالحنيفية، بما لم يبرئ مثله ولم يثن به على غيره في كتابه، وقد ذكرتُ طرفاً من الآيات، ولمقام إبراهيم غضب النبيُّ ﷺ لما دخل جوف الكعبة ووجد أنَّ المشركين قد صَوّروا الخليلَ وإسماعيلَ عليهما وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام يستقسمان بالأزلام –وكانت تلك عادة من أصول الجاهلية–

---

(١) ذكر هذا كثير من السلف انظر تفسير ابن جرير ١٦/ ٣٠٩، والبغوي ٥/ ٣٢٧، وشعب الإيمان للبيهقي (١٠٤٥)، (١٢٣٤)، وحلية الأولياء لأبي نعيم ١/ ٢٠، وجامع العلوم والحكم ص٤٤٠، وليس بمسند للنبي ﷺ.

غضب ﷺ عند ذلك كما في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ لما قَدِمَ أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم، وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله ﷺ: «قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قَطُّ»(١). فالمشركون قاتلهم الله من أجل أن يسوغوا فِعْلَتهم واستقسامهم بالأزلام -وهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم- صَوَّروا إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام اللّذين بَنَيا البيتَ الحرام يستقسمان بالأزلام! فبرّأَهُما النبي ﷺ من ذلك، وغضب من أجل ذلك، وأقسمَ بالله إنهما لم يفعلا ذلك، بل انظر إلى المعنى الدقيق، فالنبي ﷺ يقول: «أَمَا واللهِ لقد علموا أنَّهما لم يستقسما بها قَطُّ» يعني كذبوا تَعمُّداً على إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فهم قد علموا.

وما أشبه الليلة بالبارحة! تأتي لبعض أهلِ البدع المنكرة؛ فتجدهم يحتجون بأحاديث واهية أو مكذوبة على محمد ﷺ، كما كذبت قريش

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وانظر إلى واقع الأمة وتأملت استدلالات المبتدعة ترى هذا العجب وترى هذا الكذب؛ فالنبي ﷺ شهد لإبراهيم عليه السلام أنه بَرِيءٌ من الاستقسام بالأزلام، ولأنه شركٌ ضد التوحيد، ولا يمكن أن يكون من إمام الموحدين عليه السلام.

مما يدل على رسوخ قدم الخليل في التوحيد مناظرته لقومه فيه

ومما يدلُّك على مقام إبراهيم عليه السلام **ورسوخه في التوحيد** قِلاه مُنْذُ صِباه ما عليه المشركون، بل ناظر وجادل وأقام البراهين على التوحيد، فاستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، استدل بتوحيد الله بأفعاله على وجوب توحيد العباد له بأفعالهم، وقد ذكر الله جل وعلا ذلك في مواضع، ومن أعظمها حكاية المناظرة كما في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا

تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الآيات [الأنعام]، وفي هذه المُحَاجَّةِ مسائلُ كثيرة
يهمنا منها هنا معرفة ما يأتي:

• قوم إبراهيم كانوا يقرون بصانعٍ للكون، فليست الآيات في إثبات الصانع عن طريق إبطال الحركات كما يزعمه جمهور الفلاسفة والمتكلمين، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿..أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٠]، فاستثنى مما يعبدون رب العالمين، وقال عَقِيب المناظرة المذكورة: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام]، فدل على أنهم يعتقدون وجود الله، وهذا المعنى ونحوه تكرر في بضع آيات حاجَّ فيها

إبراهيم قومَه. ولهذا جعل نهاية العدواة معهم ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، أي بغير إشراك، وإلاّ فقد كانت للكلدانيين والصابئة معابدهم ومصلياتهم التي تتجه جهة القطب الشمالي وقد ذكرها أهل العلم، وإنما يقال بأن من أنكر الصانع منهم أفراد كالنمروذ بن كنعان، وحتى هذا يذكر بعضهم أن إنكاره للصانع ليس صريحاً في القرآن[1]، لكنه زعم أنه شريك في بعض خصائص الربوبية، وما نقله المفسرون من أخبار –على ما فيها- يفيد بأنه لم يكن ملحداً، لكنه مدع لصفات من صفات الربوبية، ومدَّعٍ للألوهية.

• ثم إن الأفول ليس هو الحركة بل حركة الكواكب حاصلة منذ بزوغها ولم يستدِلَّ بها، والعرب تقول: "أَفَلَ النجمُ أُفُولاً غاب، والأفول خاص بغياب النيرات السَّماوِيَّة يقال: أفل النجم وأفلت الشمس وهو المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية فلا يقال: أفلت الشمس أو أفل النجم

---

(١) ونص على أنهم معترفون بالوجود المطلق انظر المجموع ٢/ ٨٣، وجامع الرسائل ٢/ ٥١.

إذا احتجب بسحاب"[1] ولايسمون من تحرك أو طار آفلاً، وإنما أراد عليه السلام هذه التي تغيب سواء لانطماس ضوئها بضوء الشمس أو بسقوطها جهة المغرب لايصلح أن تكون إلهاً يعبد، قال ابن كثير: "فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزُّهَرَة لا تصلح للإلهية، فإنها مُسَخَّرةٌ مُقدَّرَةٌ بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جِرْمٌ مِن الأجرَام خلقها الله مُنيرة، لما له في ذلك من الحِكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المِنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾"[2]، وقال ابن عاشور: "ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة

(١) انظر التحرير والتنوير ٦/ ١٧٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٢.

لتدبير عباده فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطلاع على الناس وقد بنى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم؛ يعني أن ما يَغيب لا يستحق أن يُتَّخذ إلهاً؛ لأنه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه. وليس الاستدلال منظوراً فيه إلى التَّغيُّر لأن قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغير وانتفاء صفة الإلهية؛ ولأن الأفول ليس بتغير في ذات الكوكب بل هو عَرَضٌ للأبصار المشاهِدَة له أما الكوكب فهو باق في فَلَكِه ونِظامه يغيب ويعود إلى الظهور، وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعا لهم"[1].

استدلاله بتوحيد الربوبية على الإلهية

ومن جملة استدلاله عليه السلام بالربوبية على الإلهية قوله لقومه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن

(١) انظر التحرير والتنوير ٦/ ١٧٨.

يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء]، فأثبتَ توحيد الربوبية واستدلَّ به على توحيد الألوهية؛ فما دام أنَّ الله هو الخالقُ وهو الرازقُ وهو المحيي وهو المميتُ وهو الشَّافي سبحانه وتعالى؛ فلا بد أن تكون العبادة له، وهذا استدلال يبين لنا رجاحة عقل إبراهيم وعمق تفكيره عليه السلام.

براءته من الشرك وأهله

ومن عنايته عليه السلام **بشأن التوحيد وحربه للشرك وبراءته منه ومن أهله دعوته لاجتناب الأصنام وعبادتها،** حيث قال عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم]، وقال لقومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء]، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت]، وانظر كيف حطم الأصنام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء]، ثم كيف كانت محاجته لقومه فيها.

إلحاحه في الدعاء بسلامته وبنيه من الشرك

وإن تعجب فاعجب من دعائه العظيم وهو إمام الموحدين بأن يجنِّبَه وبَنيه ربُّه تعالى طريقة الوثنيين: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]، إنهن أضللن كثيراً من الناس! فيهم الأذكياءُ وأصحاب العقول ومخترعو القنابل والصواريخ! بل فيهم أذكياء بُعث إليهم محمد ﷺ وزعموا أنهم اتَّبعوه!

إنَّ النَّاظر في واقع الأمة اليوم وما يجري فيها يجعله يلهج بدعاء إبراهيم: رب اجنبني وبني أن نعبد الأصنام! إن لم يكن مُغتراً غافلَ القلب! انظر إلى انتشار الشرك، انظر إلى عبادةِ الأموات، انظر إلى الطَّوافِ بالقبور، ألا تجد ذلك في أمَّةِ الإسلام! لست أتحدث عن اليهود والنصارى ولا عن المشركين أصالة، بل عن بعض من ينتسب إلى الإسلام، انظر كيف وقعت البِدَع ووقع الشرك الأكبر في الأمة! رغم علمها بأن أبانا وقائدنا إبراهيم عليه السلام قد تبرّأ من ذلك وحذّر منه.

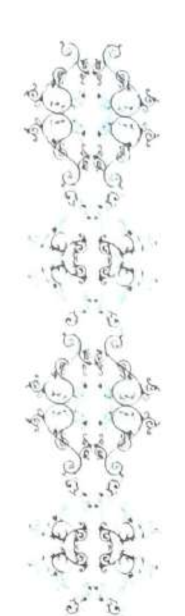
دعوة لمن تنكب ملة أبيه إبراهيم

ونحن عندما نذكر توحيد إبراهيم، ندعو من تنكب طريقه ورَغِبَ عن مِلَّته أن يُراجع نفسه، ندعو أولئك الذين يعبدون الأموات فيَدْعونهم ويَدَّعون أنهم يتوسلون إلى الله بهم؛ بعبادتهم من نحو دعائهم، والذبح لهم، والنذر، والطواف، كما كان المشركون يزعمون: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]؛ وهل كانت عبادتهم لهم إلاّ ليقربوهم؟ ليشفعون لهم، ثم هل كانوا يعبدونهم إلاّ بدعائهم وذبحهم لهم وطوافهم ونحو ذلك؟ وكما قال أولئك، قال هؤلاء المعاصرون اليوم مثل ذلك: إنما نتوسل بهم ولا نعبدهم! وأخشى أن يقولوا غدا ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام]! فقال الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]، فاحذر يا عبد الله، واعلم أن ثمة فرق بين التوسل، الذي هو الطلب بالمتوسل به، والتوسل الذي هو عبادة المتوسل به، فالأول من نحو سؤال الله بجاه فلان ومكانة فلان، فالله هو المسؤول وحده، والجاه

ونحوه وسيلة، أما التوسل الذي هو عبادة المتوسل به، فصرف شيء من أنواع العبادة له، كدعائه أو الذبح له، فالأول منه بدعة كالمثال المذكور ومنه أنواع مشروعة كالتوسل بأسماء الله وصفاته، أما الثاني فشرك أكبر وذنب لا يغفر، فيا أخا الإسلام اقتدى بالرسل عليهم السلام! والهج بدعاء الرجل الأمَّة الإمام: اجنبني وبني أن نعبد الأصنام، والأموات، والأولياء، والصاحين، والملائكة والنبيين!

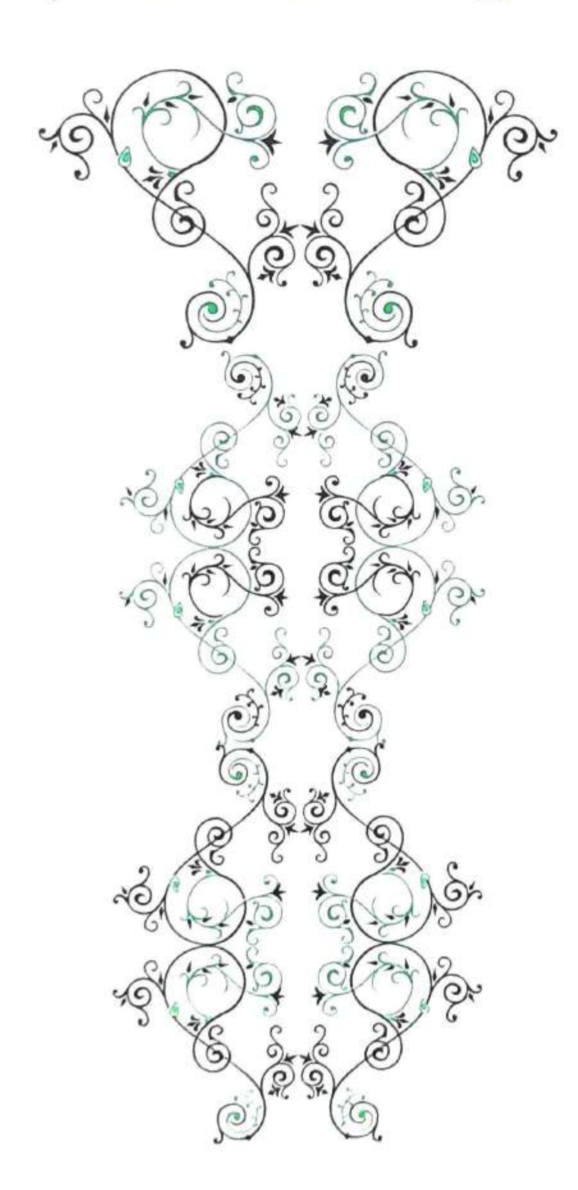
واسأل الله كما كان يسأله الخليلُ أن يرزقك مقتضى تحقيق التوحيد، ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ والسليم من معانيها المنقولة عن السلف الخالي من الشرك[1]، وربِّ على التوحيد أبناءك، وتعاهدهم بالوصية كما فعل إبراهيم عليه السلام إذ وصى بنيه عند موته بكلمة التوحيد: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة].

(١) انظر تفسير عبدالرزاق ٢/ ٤٦١، نقله عن قتادة، وتفسير مقاتل ٣/ ١٠٢ ونقله ابن أبي حاتم في تفسيره عن جماعة ٨/ ٢٧٨٣، وكذا ابن جرير ١٧/ ٥٩٦.





إبراهيم عليه السلام
وعقيدة الولاء والبراء



إبراهيم عليه السلام وعقيدة الولاء والبراء

أنواع انحراف الناس في الولاء والبراء

الولاءُ والبراءُ ركنٌ عظيمٌ من أركان الإيمان، وقد تساهل كثيرٌ من المسلمين في هذا الركن بِشِقَّيْهِ؛ ولاءً للمؤمنين، وبراء من الكافرين، وأنبِّهُ إلى أن هناك بعضَ العنايةِ عند بعض المسلمين بموضوع البراءة من الكافرين، وهذا محمود، فالبراءة من المشركين ومن أعداء الله جل وعلا فريضةٌ مطلوبة، ولكَّنك تَلْحظُ من بعضهم تقصيراً ظاهراً في ولاء المؤمنين! بل ربما نالوا من بعضهم، ولم تسلم مِنهم إلاَّ فئتُهم! بل من المنتسبين للسُّنَّة من سلم منه اليهود والنصارى، ولم يسلم منه إخوانه المسلمون! فتراه متكبراً على أخيه المسلم، متتبعاً لزلاته، خافضاً جناحه للكافر! مغضٍ عن موبقاته.

والولاءُ والبراءُ كجَناحَيْ طائر، لا استقامة بدونهما، ولاءٌ للمؤمنين وبراءةٌ من المشركين؛ كما قال الله تعالى في وصف من يحبهم ويحبونه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومتى

غُلِّب جانب على جانب اختل الأمر، واختلاله بحسب التقصير فيه، فإن بلغ التقصير في ولاءِ المؤمنين حدَّ الغلو في التكفير، واستحلال الدماء، خرج بصاحبه إلى بدعة الخوارج، وإن بلغ التقصير في البراءة من الكافرين حدَّ الإحجام عن تكفير من كفره الله في كتابه وكفره رسوله كاليهود والنصارى، ومن استحل حراماً معلوماً من دين الإسلام بالضرورة، خرج بصاحبه إلى إرجاء الجهمية.

أما إبراهيمُ عليه السلام، فقد كانت موالاة المؤمنين، وعنايته بشأنهم، ظاهرة في سيرته، كما كانت براءته من المشركين ظاهرة مُعلنة.

من موالاته عليه السلام للمؤمنين

فمن موالاته للمؤمنين وعنايته بشأنهم:

شأنه مع لوط وأهله

* وذلك في ظاهرٌ في خبره مع الملائكة لما أعلموه بغرضهم، فمع شِدَّة عَداوته عليه السلام للكفار ولأعداء الله كان حاضر الولاء تجاه المؤمنين! وتأمَّل مجادلتَه الملائكة في خسف قُرى سدوم حرصاً منه على لوط عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ

إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت]. وقد ذكر أهل التفسير في ذلك أخباراً منها أن إبراهيم قال لهم: "قال لهم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة. قال فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم. وقيل إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطاً! قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين"[1]، وذلك لأن لوطاً عليه السلام آمن به كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]. تلك طريقة إبراهيم عليه السلام، أما بعض الناس اليوم فلا يُبالي أن يبيد مسلماً لينالَ من كافر، وهذا جُرْمٌ شنيع، لا تسوِّغُه مصلحة متحققة كمجرد حفظ النفس، فضلا عن مصلحة متوهمة، بل لا يسوغه في صورته الإجماعية غير خوف استئصال شأفة المسلمين

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٢/ ٥٢٠، والقرطبي ٩/ ٧٢، والدر المنثور ٨/ ٩٦.

في مسألة الترُّس المشهورة، كيف لا والوعيد عظيم، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء].

دعاؤه للمؤمنين

* **ومن جملة ولاء إبراهيم** عليه السلام **للمؤمنين دُعاؤه** لهم. أتعلم أيها الكريم! أن إبراهيم عليه السلام كان يدعو لك قبل آلاف السنين؟! واقرأ القرآن، ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة]، ومن أظهر دعائه للمؤمنين قوله الذي ذكره الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[إبراهيم]، ومنه قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة:١٢٦]، ومنذ تلك السنين وإلى يوم الناس هذا، وقد تعاقبت على مكة قرونٌ إثر قرونٍ، والناس يجدون فيها أثر تلك الدعوة، ولله كم تَفيَّأْنا ظلالها،

ونعمنا ببركتها! فأين الشكر والعرفان، وأين الاقتداء بخليل الرحمن؟ هل تدعو لإخوانك المسلمين كما دعا إبراهيم عليه السلام لك ولغيرك؟ هل تُصَلِّي أو تُسَلِّم عليه إذا ذكرته وقد اعتنى بك منذ آلاف السنين! انظر إلى ولائه لك، فهل جزاء الإحسانِ إلاَّ الإحسان؟ اقتد بنبيك ﷺ في الإشادة والتقدير يوم قال: «أنا دعوةُ أَبي إبراهيم»[1]، يريد قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]، واقتد به في رحمتك بالمؤمنين وولائك لهم كما كان الخليلان عليهما أفضل الصلاة وأتم السلام.

دعاؤه أن يلحقه الله بالصالحين

* ومما يشير إلى ولائه للمؤمنين سؤاله ربَّه اللحاق بالصالحين كما في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء]، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن [البقرة: ١٣٠، والنحل: ١٢٢، والعنكبوت: ٢٧]،

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٦١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

مع أنه في أعلى درجات الصالحين، فلعل من دلالة اللفظ مطابقة دعائه إشارةً إلى استجابة دعوته، والمرء مع من أحب، فاقتد بإبراهيم، وسل ربك أن يُلحقك بالصالحين، وذلك من جملة الولاء للمؤمنين.

سلامة قلبه

* ومن الولاء للمؤمنين عند إبراهيم عليه السلام: سَلامة قلبه، ولا شك أنَّ سلامة القلب تجاه المؤمنين من معالم الولاء لهم؛ فهل سلمت قلوبنا كما سلم قلب إبراهيم؟ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]، والقلبُ السليمُ لا يمكن أن يَحْمل حِقْداً ولا غِشّاً ولا عداوةً للمؤمنين، القلبُ السليم هو القلبُ الطاهر من الأَدْناس، فسل ربك أن يجعل قلبك كذلك، فإنه من جملة ولاء المؤمنين. تفحص شأنك وراجع نفسك وتعاهد قلبك هل فيه بغْضٌ لأخيك المؤمن؟ هل فيه غِشٌّ؟ هل فيه حِقْدٌ؟ هل فيه حَسَدٌ؟ أم ترجو أن يجمعك الله بالصالحين إخواناً على سُرُرٍ متقابلين؟ إن كنت كذلك فلا سبيل إلاَّ سؤال الله سلامة القلب، وتعاهُدُ ذلك كما قال الخليل يناجي ربه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

جعله أمد العداوة ينتهي بالإيمان

* ومن معالم ارتباط الولاء والبراء عند الخليل عليه السلام بالإيمان نصه على أن العداوة والبراءة تنتهي بتحول أهل الشرك إلى الإيمان، فقد ذكر الله تعالى قوله والذين معه لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، فجعل نهايةَ البراءة وحَدَّ العداوة إيمانهم بالله وحده، وفيه موالاته لأهل الإيمان.

ولما كان إبراهيم بهذه المثابة وكانت عقيدة الولاء للمؤمنين متمكنة من قلبه قال الله تعالى لنا: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

ما تقتضيه منَّا أخبارُه عليه السلام في هذا الباب

هذه إشارات مقتضبة تتعلق بشأن إبراهيم عليه السلام في باب الولاء، وهي تقتضي مِنَّا ما يأتي:

أولاً: أن نقتدي بهذا الإمام الأمة في شأن الولاء كالبراء، لا إيمان ببعضٍ وكفرٍ ببعض، بل إيمانٌ بهما معاً.

ثانياً: أنْ يُوَالِيَ بعضُنا بعضاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة:٧١]، كما قال الله جل وعلا قبل ذلك في سورة براءة ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

من حقوق الولاء بين المؤمنين

ومن حقوق الولاية:

منع المعاداة

* ترك معاداة من وجبت عليك موالاته، يقول الله جل وعلا في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[1]، وولي الله قد يكون أشعث أغبر كلما سمع هيعة طار لها ناصراً دين الله، وقد يكون عابداً قانتاً قلبه معلق بالمساجد، وقد يكون عالماً أو متعلماً نذر نفسه للعلم الشرعي، وقد يكون وقد يكون، لكنه لا يكون كذلك إذا دفعه الغُلُّو إلى حصر الدِّين فيما هو فيه، ومن ثَّمَة معاداة أولياء الله المشتغلين بغير ما هو فيه! وإن قُدِّر أنَّهم أخطؤوا باجتهادٍ، بل من شأن ولي الله أن يستغفر لولي الله إن أخطأ، لا أن يحمل عليه الحقد ويعاديه، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر]، ليست المشكلة أن نختلف في اجتهاداتٍ أو فروع إذا سَلِمَ القصدُ، ولكن المشكلة أن نجعل مواضع الخلاف الاجتهادي أو المتأول صاحبه معاقدَ للولاء والبراء.

أداء حقوق المسلم

* ومن حقوق الولاية أن نقوم بحقوق المسلم «حق المسلم على المسلم خمس»[1] وفي رواية: «ست»[2]، تأمّل في الحديث لم يقل: حق المؤمن، وإنما قال: حق المسلم، فما دام الرجل مسلماً فإن له حقوقاً، لا تُنتقص إلاّ بقدر مخالفته الإسلام، ومن حقوقه إجابة دعوته، ومنها ردّ السلام، ومنها عيادته، ومنها الوقوف معه ونصحه.

الدفاعُ عن إخواننا وكفُّ الشرِّ عنهم

* ومن حقوق الولاء: الدِّفاع عمّن تُوالي؛ فهل ندافع عن قضايا المسلمين؟ عن قضايا إخواننا المجاهدين؟ بعض المسلمين - هداهم الله- غاية المنى أن يسلم إخوانهم منهم! وأَنْ تَكُفَّ شرَّك عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٢) (٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

الناس صدقة منك على نفسك، هكذا قال النبي ﷺ لأبي ذر[١].

بعض الناس يَلْمِزون المطَّوِّعين من المؤمنين؛ فأين الولاء؟! هؤلاء أَخَلُّوا بحقوق الولاء، والواجب أن يكون «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضاً»[٢]، كما قال ﷺ، وأن يكون دافعه لذلك حُبُّه، وحبُّ المؤمنين مما يتقرب إلى الله به، فمن السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظل إلا ظلُّه: رجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه[٣]، وقد ذهب رجلٌ يزور أخاً له في الله في قرية من القُرَى؛ فأرسلَ اللهُ على مَدْرَجته -أي على طريقه- مَلَكاً، قال: إلى أين أنت ذاهب؟ قال: ذاهب أزور أخي، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها -أي: تَرُدُّها-؟ قال: لا وإنما أحببته في الله، قال: فإن الله قد أحبَّك كما أحببته فيه[٤].

وإذا أحبَّك اللهُ أدخلك جنته وسَعِدت في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حكم هجر المسلم

مسألة: قد يسألُ سائلٌ: هل الهجرُ على البدعة والمعاصي يناقض الولاء؟ والجواب: إن الأصلَ هو عدم هجر المسلم، لحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»(١)، فلا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث «يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(٢)، فكما علم بالنص تحريم الهجر، فقد علمت بالنصوص الأخرى كذلك أحكام أخرى، مردها للبراءة من الباطل وأهله.

وهذه إشاراتٌ سريعة في هذا المقام نختم بها هذا الموضوع:

أولاً: إنَّ الإسلام يتعامل مع نفوس بِشرية؛ فلو أنه وقع في نفسك على أخيك شيء لخطأ ارتكبه بحقك؛ فيَحِلُّ لك الهجر إلى ثلاثة أيام، أما أكثر من ثلاثة أيام فلا يجوز؛ ولأنَّ الإسلام لا يتعامل مع جمادات، فقد أعطى النفس فُسْحة ثلاثة أيام ليزول ما بها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٠٦) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

ثانياً: دلت النصوص على جواز أنواع من الهجر منها هَجْرُ الزوجةِ تأديباً لقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء:٣٤]؛ وهذا النوع من الهجر لا يمنع السلام، فالنبي ﷺ هجر زوجاته شهراً وكان يُسلّم عليهن(١).

ومن الهجر الجائز ما دلَّت عليه قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، فقد أمر النبي ﷺ بهجرهم(٢)، فهذا هجر على ذنب بقصد التأديب، والردع ممن يؤثر هجره تأديباً وردعاً.

والأصل أنَّ الهجر حالةٌ استثنائية. فلا يجوز أنْ يَهْجر المسلمُ أخاه إلا بضوابطَ ولأسباب مُعْتبَرة، وإلا فقد يقع الهاجر في المحذور.

إياك أن تخدعك نفسك!

كثيراً ما تخدع النفوس الجائرة العادية أصحابها في هجر إخوانهم أو الغلظة عليهم فتقول: هي لله! فإياك إياك أن تخدعك نفسك! أتعادي هذا وقد يكون ولياً لله قد خالفك في مسألة اجتهادية أو

---

(١) انظر: البخاري (٣٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

فرعية، وتضحك وتطرب لصاحب معصية ظاهرة، ثم تقول هي لله! وما يتخلص من حظوظ النفس ويسلم من أهوائها إلاّ من علو على أهوائهم وأولئك أصحاب النفوس الكبار!

ذُكِر أنه وقع بين الحسن بن علي وأخيه محمد بن الحنفية -رضي الله عنهما- ما يقع بين الإخوة عادةً، وبعد ثلاثٍ أرسل محمدٌ كتاباً إلى الحسن فيه: يا أخي يا ابن رسول الله، إن رسول الله ﷺ يقول: «لا يهجر أحدُكم أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[1] وقد فرغت الثلاث، فإما أن تأتيني فتبدأني بالسلام فإنك خير مني، وإن كُنَّا ابني رجلٍ واحد، فأنت سِبط رسول الله ﷺ، وإن خير الرجلين المتهاجرين من يبدأ بالسلام، ولئن لم تفعل جئت إليك. فلما قرأ الحسن الكتاب ركب دابته وقصد منزل أخيه محمد فبدأه بالسلام.

انظر إلى تلك النفوس العالية! وهكذا يجب أن يكون صفاء النفوس والود والمحبة والاستجابة لأمر الله بين المؤمنين.

إن صاحب الدنيا قد يصبر على صاحبه الذي صحبه لمصلحة

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

عاجلة فيتحمل منه ويتغاضى عنه! مع أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزُّخرُف]، أفلا يجدر بطالب الآخرة في صحبته أن يتغاضى لصاحبه عن بعض حظوظه؟

البراء عند إبراهيم عليه السلام

كما حقق إبراهيم عليه السلام الولاء للمؤمنين، فقد حقق البراءة من الكفر وأهله، بل كان إبراهيم عليه السلام في ذلك إماماً أُمرنا أن نقتدي به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤]، ثم استثنى الله من الائتساء ما كان من شأنه عليه السلام مع أبيه آزر، فقال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾؛ أي ليست لكم فيه أسوة، وقد أقلع عنه عليه السلام، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة]، فالبراءةُ ظاهرةٌ في مَنْهجه عليه السلام، ولذلك أمرنا الله جل وعلا بالاقتداء به: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة:٦].

لابد في البراءة من ثلاثة أمور

وعقيدة البراء التي أمرنا أن نأتسي بإبراهيم عليه السلم فيها

تشمل ثلاثة أمور:

﴿.. قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ قال في أضواء البيان: "فالتأسي هنا في ثلاثة أمور:

أولاً: التبرؤ منهم ومما يعبدون من دون الله.

ثانياً: الكفر بهم.

ثالثاً: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم، وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء **أبداً**، والسبب في ذلك هو الكفر، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل ذلك بينهم"(١). "فهي البراءة من القوم، ومعبوداتهم، وعباداتهم.."(٢)، قال ابن تيمية: "أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرءوا من المشركين ومما يعبدونه

---

(١) أضواء البيان، ٨/ ٨٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٢.

من دون الله"(١).

وقد أكد البراءة من الكافرين بقوله كفرنا بكم -مع أن الكفر يكون بما يعبدون- ليُفيد براءتهم منهم، ومفارقتهم لهم في أفعالهم وأحوالهم، وعدم اعتدادهم بها.

وقد أظهر الخليل بغضه للقوم ولمعبوداتهم، دلَّت على ذلك أحواله وأقواله في مواطن مثل قوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلم يكتف بالتأفف من معبوداتهم، كما أظهر عدواته وبغضه للأصنام بتحطيمها، وصرح ببراءته مما يشركون في مواطن كثيرة.

ضابط إظهار العداوة

وهناك فرق بين وجود العداوة وبين إظهارها، فوجودها في أصل القلب لابد منه ومن لم يقم بقلبه أصل عداء المشركين فليراجع إسلامَه، أما إظهار العداوة الدينية فبحسب الحال قوة وضعفاً وما يقتضيه المقام، والمهم أن يُعلم منك عدم الرضا عن الكافر لما عليه من الكفر، ما لم يترتب على ذلك مفسدة. وشواهد السنة وحال النبي ﷺ

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٤٦٥.

بل حال إبراهيم عليه السلام على هذا كثيرة يدركها من تدبر القرآن والمنقول، ويُعلم منها أن بُدُوَّ العداوة لا يلزم منه العبوس الدائم، ولا ترك القسط بل ولا عدم البر، وكل ذلك معقول، واعتبره في تعاملاتك التجارية أو المالية مع بعض من لا ترضى من المسلمين، أو الكافرين، فأنت تجد على فلان في نفسك، وربما كان بينكما خلاف ظاهر معلن، لكن إن كنتَ من أهل التقى فلن يحملك هذا على ظلمه، أو ترك التسامح في بعض حقك ابتغاء ثواب الله، مع أنه يعلم أن بينك وبينه موجدة تمنعك من التبسط معه، فافقه ذلك واعتبر به، وضع نصب عينك هدي نبيك ﷺ في التعامل مع الكافرين فهو خير من ائتسى بإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام.

من عقيدة البراء اعتزال المشركين المعرضين

ومن عقيدة البراء عند الخليل عليه السلام اعتزاله المشركين الذين أيس من هدايتهم.

وقد كان اعتزاله بالهجرة ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى

سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾. فعبر بالاعتزال والذهاب والهجرة، أما الاعتزال فيكون بالهجرة وغيرها، ولما كان إبراهيم عليه السلام نبياً مرسلاً كان لابد له من خلطة الناس ودعوتهم، فتعين ترك انزوائه على نفسه ونبذ شأن الناس، وفي قوله إني ذاهب إلى ربي إشارة إلى أن هجرته بأمر الله فالمعنى إلى حيث أمرني ربي، وفي قوله مهاجر بيان لسبب الاعتزال بالسفر ألا وهو الهجرة إلى حيث يمكنه إقامة ما أمر به من العبادة والدعوة.

فانظر في واقع هذا الإمام، هَجَرَ مَن؟ هَجَر قومه، بل هجر أباه لما تبيَّن له أنه عَدوٌّ لله، لا مُهادنة ولا مُساومة، لا قضيةَ أبٍ، ولا رابطة عشيرة وقوم ووطنٍ، تضاهي مقررات الشريعة وعروتها الوثقى، وهذا بابٌ عظيم يجب أن نقف عنده، خاصة أن أمتنا تعيش في ظروفٍ صعبة، تعيشُ مِحناً عظيمة بسبب الولاء لأعداء الله، وتأمل قضية واحدةً، هي قضية المجاهدين في سبيل الله، في أمتنا رجال ينتسبون لديننا ويُعينون أعداء الله، على مَن؟! على من يقاتلونهم في سبيل الله!

ضد المجاهدين في فلسطين، وفي العراق، وفي الشيشان، وفي كشمير، وفي عِدَّة أرجاء من المعمورة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

آفة التبعية والتشبه بأمم الكفر

اقرؤوا قصة هذا الإمام الأمّة إبراهيم عليه السلام، وانظروا في براءته من أعداء الله وولائه لأولياء الله، وربوا أجيالكم على مِلَّة سلفهم أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين. ودأبوا كما دأب في إصلاح المجتمعات، وعتقها من رِبْقَة التَّبعيةِ لأعدائها والتشبُّهِ بأعداء الله، والمشاركةِ لهم، وفي واقع الأمة حقائق مذهلة يندى لها الجبين!

ولن ترتفع أمَّة بتبعيتها لغيرها من الأمم، فالذَّنَبُ ذَنبٌ، والذيل يبقى في الوراء، وسبيلُ الظهور واضحٌ، وأهلُ وُدِّنا الذين بهم يكون اعتضادنا معروفون: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة] وبعضُ المسلمين اليوم! أعِزَّةٌ على المسلمين، أذلّةٌ ضعفاء أمام الكافرين، حالهم كما قال الأول:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نَعامةٌ ... خرقاء تنفر من صفير الصافرِ

وهؤلاء ضل سعيهم، وسيتبين لهم خَسار أمرهم، ولو بعد حين، فالعزَّة لله ولرسولِه وللمؤمنين، قال عزّ مِنْ قائلٍ عليماً: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون] وليس جهل المنافقين بالحقائق الشرعية مقتصراً على ذلك الجيل، بل المنافقون اليوم أجهل! وانظر إلى شأنهم في عصرنا، وإلى مُمالأتهم أعداء الشريعة، ومسارعتهم في سفاراتهم وبلدانهم، يبتغون عندهم العزةَ، يخططون، ويشاورون، ويكيدون، وكل ذلك سوف يكون عليهم حَسْرَةً وسوف يغلبون! شريطة أن يحقق المؤمنون هذا الأصلَ العظيم. ومن أجل ذلك كان هذا الحديثُ عن إبراهيمَ عليه السلام، فهذه الصفحات في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ما سودت لمتعة القراءة ومجرد الفلسفة والتنظير! إنما كانت دعوةً للاقتداء به، من أجل اللَّحاق به في الدنيا

والآخرة، وهذا هو منهج محمد ﷺ. فلا بدّ من عَوْدةٍ صادقة من أجل أنْ نُنْقِذ الأمّة من التخبّط الذي تعيش فيه، كما أنقذ محمد ﷺ المشركين من هذا البلاء وأعادهم إلى مِلَّة إبراهيم عليه السلام، وأقام هذا الركن العظيم، فعرفت الأمَّةُ عدَّوها، والتَأَم شملُها، فسَادت الأممَ، وأنقذ الله بمحمد ﷺ البشرِيَّة، وأخرج من شاء منهم من الظلمات إلى النور.

لا سبيل للسؤدد والكافر قدوة

أما اليوم فلا سبيل لسؤددنا وقد أصبح المُمثلُ الكافر قُدْوةً لأبنائنا، والممثلةُ الفاسقة الكافرة الماجنة قدوة لبناتنا؛ يَتشبّهن بها في قَصَّاتها ولباسها؟ إنه لا سبيل لسؤددنا وكثيرٌ من الأمّة يُقلّد أعداء الله في أعياد الميلاد وفي غيرها مما ابتدعوه وأحدثوه أو اختصوا به. لا سبيل للسؤدد والحال كذلك لأننا قومٌ أعزّنا الله بالإسلام، فمتى ابتغينا العزّة في غيره أذلّنا الله! وقد جرت العادة بأن المغلوب أبداً مولع بالتشبه بالغالب، وأول طريق العلو والانعتاق من التبعية استعلاء المؤمن بما معه من الحق.

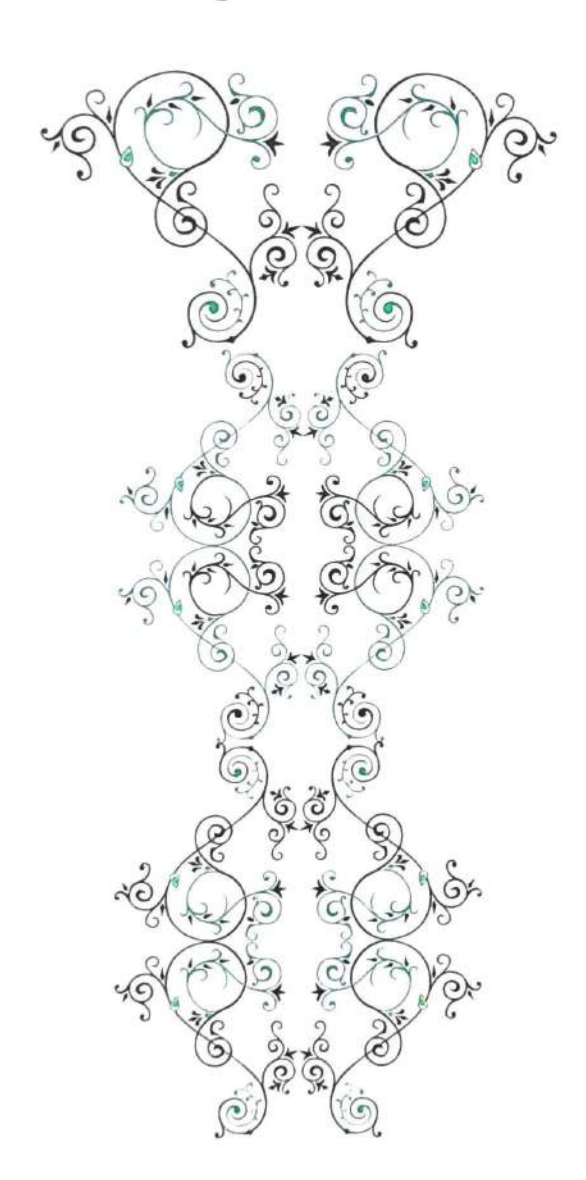
وحري بالعلماء والدعاة والخطباء أن يرفعوا من شأن الأمة بالدعوة إلى اعتزازها بدينها واقتدائها بِنَبِيِّها ﷺ، وبالخليلِ عليه السلام، لتكون الأمة حقاً خيرَ أمّةٍ أُخْرِجت للناس.





من صفات الرجل الأمة

القنـــوت



من صفات الرجل الأمة القنوت

يقول الله جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ في هذه الآية والتي تليها جملة من صفات الرجل الذي أخبر الله عنه بأنه كان أمة، وقد مضى ذكر الأمة، وقُدم ما يقتضيه وصف الحنيفية من أمر التوحيد لشرفه[1]، ولنقف الآن مع وصف الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام بأنّه قانتٌ، ثم ذكر جملة أوصاف يأتي الحديث عنها.

معنى القانت

القانت هو القائم بما أمره الله تعالى به قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره معناه: مطيعاً لله[2].

قال الماوردي: "فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: مطيعاً لله، قاله ابن مسعود.

---

(١) انظر المعنيين ص٤٩، و ص٧١ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري ١٤/ ٣٩٤.

الثاني: إن القانت هو الذي يدوم على العبادة لله.

الثالث: كثير الدعاء لله ﷻ"[١]، ولا تعارض بينها جميعاً بل هو تفسير ببعض الأوجه أو الأفراد والأصل القانت المطيع. قال ابن القيم رحمه في مفتاح دار السعادة: "قوله: (قانتاً لله)، قال ابن مسعود: القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلّها ترجع إلى دوام الطاعة"[٢].

مما اشتهر في معنى القنوت قول ضعيف

وفي معنى القنوت أقاويل أخرى ضعيفة، من أشهرها أن القانت القائم مطلقاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال ابن قتيبة لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة لأن جميع الخلال من الصلاة والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها.

وقال أبو الفرج قال الزجاج القنوت هو في اللغة بمعنيين؛ أحدهما: القيام.

والثاني: الطاعة.

---

(١) انظر النكت والعيون له ٣/ ٢١٩.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة ١/ ١٧٤.

والمشهور في اللغة والاستعمال أن القنوت الدعاء في القيام فالقانت القائم بأمر الله ويجوز أن يقع في جميع الطاعات لأنه وإن لم يكن قياما على الرجلين فهو قيام بالنية.

قلت [والقائل شيخ الإسلام] : هذا ضعيف لا يعرف في اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتاً، والرجل يقوم ماشياً وقائما في أمور ولا يسمى قانتاً، وهو في الصلاة يسمى قانتا لكونه مطيعاً عابدا ولو قنت قاعداً ونائما سمي قانتا، وقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ يدل على أنه ليس هو القيام وإنّما هو صفة في القيام يكون بها القائم قانتاً، وهذه الصفة تكون في السجود أيضاً كما قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فقول القائل: إن المشهور في اللغة أنه الدعاء في القيام، إنما أخذه من كون هذا المعنى شاع في اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا في القنوت والصلاة وهذا عرف خاص ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً"[1].

(١) انظر رسالة في قنوت الأشياء له ص٦.

من صور قنوته عليه السلام

أما صور القنوت في أخبار إبراهيم عليه السلام فكثيرة: عندما دعا قومه إلى التوحيد كان قانتاً قائماً بأمر الله، وعندما صبر على أذاهم كان قانتاً صابراً نفسه لله، وعندما هاجر إلى الشام كان ذلك استجابة لأمر الله، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات]، أي إلى حيث أمرني ربي، وهذا هو الأصل في هجرة الرسل والأنبياء، لا تكون إلاّ بأمر الله وإذنه، لأن واجب الدعوة والبلاغ لمن بعث فيهم منوطٌ به، ولهذا عاتب الله تعالى ذا النون عليه السلام عندما فارق قومه بغير أمرٍ، بينما أثنى على إبراهيم، وأثابه فقال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

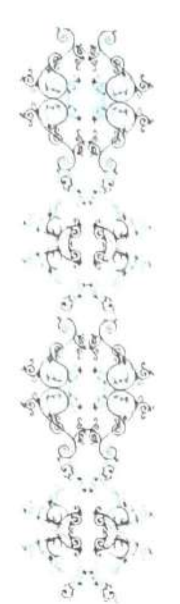
ومن صور قنوته تركه زوجه وولده الذي كان وحيده بواد غير ذي زرع طاعة لأمر الله، ففي الصحيح أن إبراهيم لما ترك هاجر وإسماعيل: "فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً،

وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: رب (إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم)- حتى بلغ - (يشكرون)"[1].

ومن صور قنوته بناؤه البيت بأمر الله، ومنها أذانه في الناس بالحج وحجه، ومنها دعاؤه الطويل العريض المذكور في مواضع من القرآن، في شؤون وأحوال، كقوله: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧) ﴾، ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾ ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ (٤٠) ﴾ إلى غير ذلك، ومن صور قنوته عليه السلام لربه عز وجل استجابته أمر الله في امتحان الذبح العظيم ولعله يأت الوقوف مع ذلك مفصلاً،

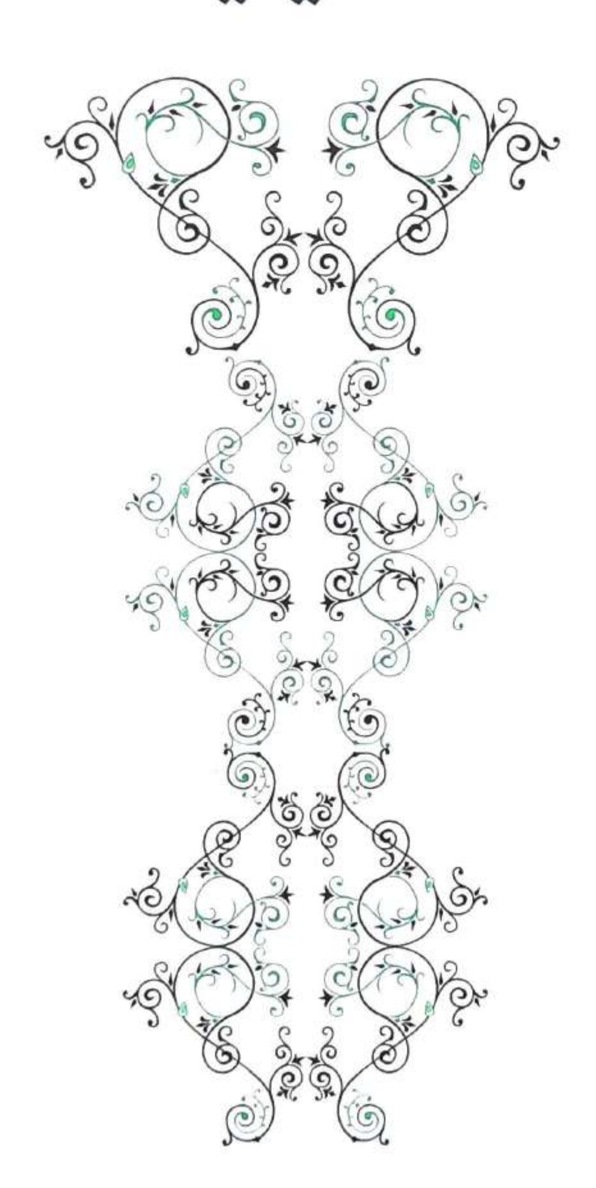
(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤).

والمقصود هنا هو أن الناظر في أخبار الرجل الأمة إبراهيم عليه السلام يرى قنوته سمة بارزة، حري بالمسلم أن يقتدي به فيها، فتكون حياته كلها قنوتاً لله تعالى؛ أي طاعة، وعبادة، واستجابة لأمر الله، وتلك مرتبة عالية، ما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم.





من صفات الرجل الأمة
الحنيفية



من صفات الرجل الأمة الحنيفية

قال الله ﷻ في وصف خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ الصفة الثانية من أبرز صفات الرجل الأمة: كونه حنيفاً؛ والحنيف المائل إلى ملة الإسلام ميلاً لا يزول عنه، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام مائلاً إلى الحق؛ والإنسانُ لا خيار له، إمّا أن يكون مائلاً إلى الحق، أو أن يكون مائلاً إلى الباطل وإلى الشر.

وقد يقول قائل: ألا يجب على الإنسان أن يكون وسطاً في الطريق؟ فيقال له: بلى، والتزامُ الوَسَطيَّة مَيْلٌ إلى الحق، وانصرافٌ عن الباطل الذي بجنبتيه عن يمينه وشماله، غلو وجفاء، فأنت عندما تبتعد عن الباطل وتكون في جهة الحق الذي هو دين الوسط، يكون ذلك ميلاً منك إلى الحق، ولذلك سُمّيت ملّة إبراهيم الملّة الحنيفيّة باعتبار ميلها عن الباطل، وهي وسطية بمعنى كونها خيرية، بين من يتجاوزها أو يقصر عنها.

الحنيفية وعلاقتها بالوسطية المحمودة

ولابد للوسطية حتى تكون محمودة من ميل إلى الحق، أما إن كان الوسطية تذبذباً بين الحق والباطل، فلا تحمد، إذ ليس كل من توسط بين شيئين قد استحق الخيرية، بل قد يتوسط امرئ بين أمرين ويكون أسوأ منهما حالاً ومآلاً، كما قال الله -تعالى- في المنافقين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء]، مع أنهم أقسموا أنهم ما أرادوا بتلك المسالك البينية المتذبذبة ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء]! وقد عدَّ السلفُ -رحمهم الله- الواقفة في القرآن شرّاً من الجهمية، مع أنهم توسطوا بين الجهمية القائلين بخلق القرآن، وأهل السنة القائلين بأنه غير مخلوق.

وهكذا كل من توسط بين حق مُقَرَّرٍ بالأدلة وباطلٍ، فوسطيته تلك وسطية مذمومة؛ قصاراها أن يكون بها خيراً من أهل الباطل المحض. ومن هنا يظهر لك أن دعاة الحياد في كثير من القضايا المتنازَع

عليها بين مظلوم وظالم، أو حق وباطل، هم أصحاب وسطية لكنها وسطية أشبه بوسطية المذبذبين الأوائل[1]!

فلابد مع التوسط من ميل إلى الحق، وذلك اتباع الحنيفية السمحة، ملة أبيكم إبراهيم! وقد كثر وصفه في القرآن بها، ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل]، ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران]، وغيرها من الآيات.

---

(١) انظر في هذا المعنى مقالة منشورة في البيان عدد (٢٩٧) ربيع الثاني من عام ثلاث وثلاثين وأربعمائة وألف، وعلى موقع المجلة نسخة منه:

http://albayan.co.uk/MGZarticle.aspx?ID=7711

لم يعرف عليه السلام بميل للمعصية قط

وقد مرّ في صِفته الماضية عليه السلام، أنه كان قانتاً، أي: ملازماً للطاعة، كثير العبادة، وهذا يستلزم أن يكون حنيفاً، أي: مائلاً عن المعصية، مائلاً إلى الطاعة وهي صفةٌ تميَّز بها عليه السلام، فلم يُعْرف عنه الميل إلى الباطل قط، ومما يدلك على هذا أنه لم يَذْكر في حديث الشفاعة ذنباً يعتذر به، ولكنه اعتذر بكذباتٍ ثلاث، قال نبينا ﷺ: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلاّ ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله.. وواحدة في شأن سارة»[1]، وقد بوب على هذا بعض الأئمة: ذكر الخبر الدَّال على إباحةِ قولِ المرءِ الكذبَ في المعاريض يريد به صيانةَ دينه ودنياه[2]، بل جاء عند البزّار عن النَّبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله»[3].

إذن فمن صفات إبراهيم الملازمة له ميله إلى الحق، ومن تدبر

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١)، واللفظ له.

(٢) انظر صحيح ابن حبان ١٣/ ٤٥، وانظر ص١٧٨، ص٤٠٥ من هذا الكتاب.

(٣) مسند البزار ١٧/ ٣٠٥ (١٠٠٥٤)، والأكثرون وقفوه على أبي هريرة.

سيرته وجد ذلك؛ في إنكاره عبادة الأصنام منذ فتوته ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء]، ومن أظهر وأوجب ما تتحقق به الحنفية الميل عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]، وكذلك الآية التي بعدها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[النحل]، قال بعض أهل العلم: "كان من الموحدين في الصغر والكبر، والذي يقرر كونه كذلك أن أكثر همته عليه السلام كانت في تقرير علم الأصول، فذكر دليل إثبات الصانع مع ملك زمانه"[1]، وهو قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام].

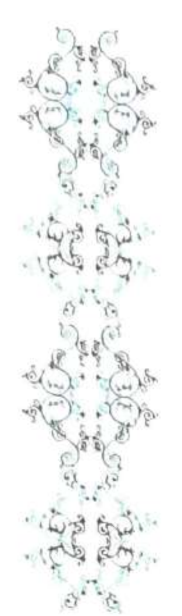
ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن ألقوه في النار، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة،

(١) قد أشير فيما مضى إلى أن موضوع المناظرة ليس بنص على ذلك، لكن سلب بعض صفات الربوبية من مدعيها، انظر ص٨١ من هذا الكتاب.

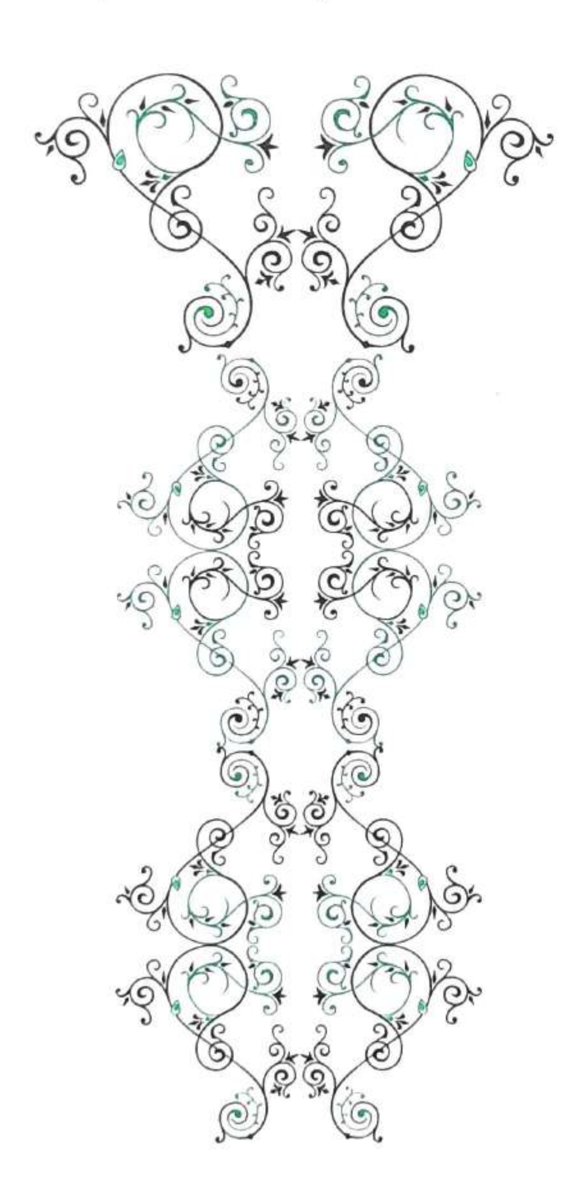
ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم ﷺ كان غارقاً في بحر التوحيد"[1].

والمطلوب منك أخا الإسلام أن تقتدي بإبراهيم، أن تكون حنيفاً، مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن البدعة إلى السُنَّة، وعن المعصية إلى الطاعة، وانظر إلى نفسك، هل تجد من قلبك ميلاً إلى الباطل؟ واعلم أنه بمقدار ميلك إلى الباطل تكون مخالفتك ملّة إبراهيم ﷺ الذي أمَرنا الله بالاقتداء به، وبحسب ذلك الميل يكون الخلَلُ في منهاجك وطريقتك، وفي المقابل بمقدار التزامك وميلك إلى الحق وإلى الطاعة وإلى العبادة وإلى ما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ، تكون على خُطى إبراهيم الذي أُمِرْتَ باتّباعه، تَبَعاً لأمر النبي ﷺ حيث أمره ربّه بذلك، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل].

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٠/ ٢٨٤، وعبارة (غارقاً) تعبير عن قوة توحيده وتجرده.



من صفات الرجل الأمة
شكر النعم





من صفات الرجل الأمة شكر النعم

نكتة في التعبير بجمع القلة: أنعمة

الصفة الثالثة التي عُقب بها وصف إبراهيم عليه السلام بالإمامة: قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كثيرة، دينية ودنيوية، بل نعم الله على كل الناس كثيرة! كما قال الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]. وإبراهيم عليه السلام له مزيد مزية فقد أتم الله له النعمة ونصَّ ربُّ العزةِ على ذلك كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف]، قال بعض المفسرين: "فإن قيل: لفظ الأنعم جمع قلة، ونعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام كانت كثيرة. فلم قال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾. قلنا: المراد أنه كان شاكراً لجميع نعم الله إن كانت قليلة فكيف الكثيرة"[1].

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٢٠/ ٢٨٤.

فالمغزى أنه عليه السلام كان ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ تعالى، لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير، ولذلك ذكرها بلفظ جمع القلة. قال الألوسي: " ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ صفة ثالثة لأمة-والجار والمجرور متعلق-بـ(شاكراً) كما هو الظاهر، وأوثر صيغة جمع القلة قيل: للإيذان بأنه عليه السلام لا يُخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة، وللتصريح بأنه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى حسبما أشير إليه بضرب المثل، وقيل: إن جمع القلة هنا مستعار لجمع الكثرة ولا حاجة إليه"[1].

وإلى قريب من هذا المعنى أشار عدد من المفسرين، أعني النكتة في التعبير بجمع القلة، وكذا ما تضمنته التزكية له من التعريض بالمشركين الزاعمين أنهم على طريقته، قال صاحب الظلال: "فلا يتعلق به ولا يتمسح فيه المشركون! ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ بالقول والعمل. لا كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولاً، ويكفرونها عملاً، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء،

(١) روح المعاني ٧/ ٤٨٣-٤٨٤.

ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعاً للأوهام والأهواء"[1].

أركان الشكر وقواعده

"وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان، لا يكون شكوراً إلاّ بمجموعها؛ أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه، والثاني: الثناء عليه بها، والثالث: الاستعانة بها على مرضاته"[2].

قال في المدارج: "وأصل الشكر في وضع اللسان ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيِّناً. يقال: شَكِرَتْ الدَّابَّةُ تَشْكَرُ شكَرَاً على وزن سَمِنَتْ تَسْمَنُ سِمَنَاً[3] إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور إذا ظهر عليها من السِمَن فوق ما تَأكل وتُعْطَى مِن العَلَف.

وفي صحيح مسلم[4]: (حتى إنَّ الدَّوَابَّ لتَشْكَر من لحومهم) أي

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٠١.

(٢) عدة الصابرين لابن القيم ص١٤٨.

(٣) كذا قال! وقال غيره كفَرِحَ، فتكون فَرَحاً، وشَكَراً وعلى قوله: شِكَراً وليس بظاهر.

(٤) جاء هذا اللفظ في حديث أبي هريرة عند الترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجة (٤٠٨٠)، وغيرهما، وخرجه جماعة من حديث أبي سعيد كذلك، وأصله بدون هذا اللفظ في مسلم من حديث النواس بن سمعان (٢٩٣٧).

لتسمن من كثرة ما تأكل منها، وكذلك حقيقته في العبودية وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

والشكر مبني على خمس قواعد:

١- خضوع الشاكر للمشكور.

٢- وحبه له.

٣- واعترافه بنعمته.

٤- وثناؤه عليه بها.

٥- وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة، وكل من تكلم في الشكر وحَدَّه فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور"[١].

والناس فيه درجات، كان إبراهيم عليه السلام في أعلاها، حقق الخضوع لُمْولِي النِّعمة، والحبَّ له، والاعترافَ بفضله، والثناء عليه بما هو أهله،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/ ٢٤٤.

وتسخيرَ نِعمه في مرضاته، واستمع إلى قوله عليه السلام خاضعاً مقراً بنِعم ربِّه مُثنياً عليه بها: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء]، فهذا اعترافه وثناؤه، وأما عمله فحسبك قوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم]، قال المفسرون: قام بجميع ما فرض عليه فلم يخرم منه شيئاً[1]، بل حسبك في لزومه للطاعة وشكرِه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل].

اعرف نعم الله عليك ولا تزدريها

وحري بنا أن نقتدي به عليه السلام، وألاّ نكون كمن عرَّض الله بهم من المشركين الكافرين لأنعم الله، فنعم الله علينا كثيرة كما قال: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ

(١) انظر تفسير ابن جرير ٢٢/ ٧٧، والقرطبي ١٧/ ١١٣.

﴿الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]، ونِعمه سبحانه وتعالى علينا تُعدُّ ولا تُحصى! ويخطئ من يقول لا تعد ولا تحصى، فقد أثبت العدّ ونفى الإحصاء، بل عدِّد ما شئت وأكثر العَدَدَ فذلك ممكن، لكنك لن تحصيَها! وتأمّل في حياتك لترى حقيقة ذلك، ثم اعلم بأن الواجب عليك شكر مولي النعم، فبشكره تدوم وتزيد، وتتحقق السعادة في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، وبكفرها تزول النعم وتُمحق بركتها، فإياك وإياك أن تزدري نعمة الله عليك!

يُذكر أنّ رجلاً عمره بين الثلاثين والأربعين، كان يَمْلِكُ بيتاً وسيارة ولديه زوجة وأولاد، ولكن ليس عنده ثراء؛ فجاء لرجلٍ من كبار الأثرياء، وقال له: إنني أغبطك على هذه النِّعمة، حيث لديك الملايين والقصور والسيّارات، وكان هذا الغنيُّ عاقلاً؛ فقال له: النِّعمُ التي أنت فيها أعظمُ من النِّعم التي أنا فيها، قال: كيف؟ قال: سأسأُلك! أنت الآن عمرك بين الثلاثين والأربعين؟ قال: نعم! قال: هي سِنُّ الفُتُوَّةِ والقوة، قارَبتَ أن تبلغ أشُدَّك، أمّا أنا فأملك الملايين، وأملك الدور، وأملك القصور، لكن كما ترى قد بدأت الأمراض

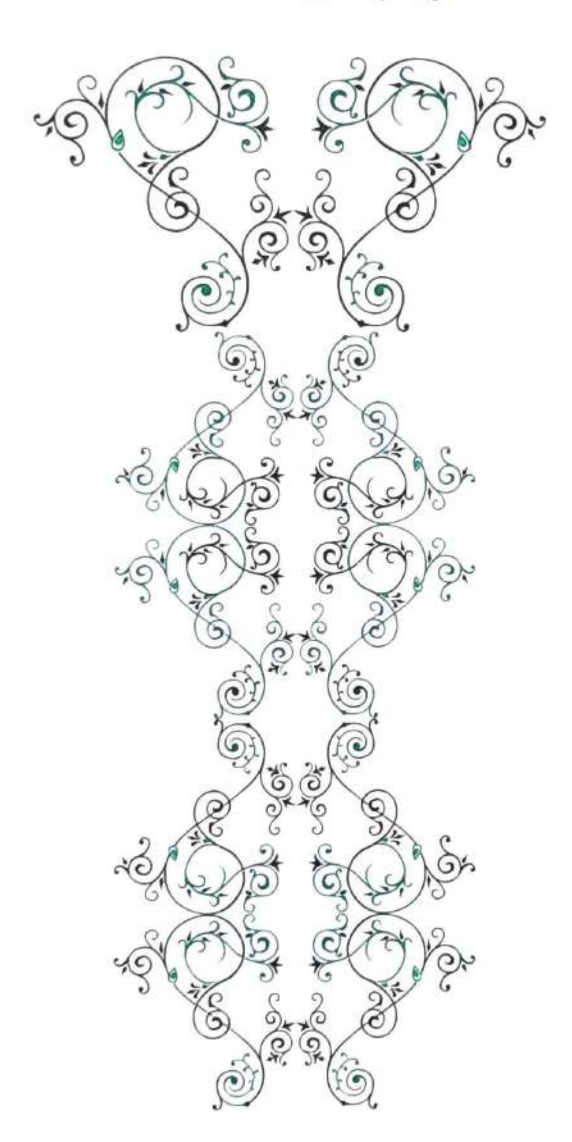
تنهش جسمي، وقوتي قد ذهبت كما تعلم، ثم قال له: أنا لو خُيّرتُ لتنازلتُ عن جميع مالي من أجل أن أشتري صحّتك وعافيتك؛ فأنت تأكل كما تشاء، وتنام كما تشاء، وتذهب حيث تشاء، وأنا لا أستطيع ذلك. ففكّر هذا الرجل فيما قاله الثَّرِي، ثم قال: صدَقتَ، أنا أعظم نعمةً منك!

فتأمّل أخا الإسلام! حالك، ولا تزدري ما أنعم الله به عليك، وستجد أن الله تعالى قد أولاك من النِّعم العظيمة ما لا يمكنك أن تحصيها، فهلا قمت بحق شُكرها، أَعِد النظر في قواعد الشكر وأركانه، فإن وجدت خيراً فاحمد الله، وإلا فصحح المسار، وسِر خلف من أُمِرت بالاقتداء بهم لعلك تلحق بهم في أعالي الجنان.





جملة صفــات الرجل الأمــة



جملة صفات الرجل الأمة

بعد أن وصف الله خليله عليه السلام بأنه كان أمة، ثنّى بذكر جملة صفات مرّ ذكر بعضها[1]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل]. وفي الآيتين الأخيرتين ذكر جملة أوصاف، نعرض إليها باختصار وهي:

أولاً: اجتباء الله له، قال الله تعالى: (اجتباه)، وفي هذا شيء من التفسير لما سبق من الخِلال العظيمة، فهي إنما كانت باجتباء الله لخليله، والله أعلم حيث يجعل فضله، قال ابن عاشور: "جملة (اجتباه) مستأنفة استئنافاً بيانياً، لأن الثّناء المتقدّم يثير سؤالَ سائلٍ عن سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد، فيُجاب بأن الله اجتباه، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

---

(١) ويأتي سردها ص١٤٥ من هذا الكتاب.

والاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبي إذا جمع"[1]، لكنه جمع لمعنى يصطفى الشيء لأجله، قال الراغب: "الاجتباء: الجمع على طريق الاصطفاء... واجتباء اللهّ العبد: تخصيصه إياه بفيض إلهيّ، يتحصل له منه أنواع من النِعَم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء"[2].

ثانياً: هدايته إلى طريق مستقيم، ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، قال الطبري: "أرشده إلى الطريق المستقيم وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية"[3]، وقال غيره: "أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق والتنفير عن الدين الباطل، نظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾"[4]، والأول أشمل، وإبراهيم عليه السلام كان مهديا مسدداً في دعوته، وعبادته، وجهاده، وفي سائر شأنه. وقد ذكر

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣/ ٢٥٥.

(٢) انظر مفردات القرآن ص١٨٦.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١٤/ ٣٩٣.

(٤) انظر مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٠٨.

بعض أهل العلم أن الهداية إلى الصراط المستقيم متى قُرنت بالاجتباء في القرآن أشارت للنبوة، وجاء ذلك في ثلاثة مواضع غير هذا، هي قوله سبحانه وتعالى عن آدم: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه]، وقوله سبحانه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء بدأهم بإبراهيم عليه السلام ومحاجته لقومه ثم عقب: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام]، والموضع الثالث قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾ [مريم].

ثالثاً: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ قال قتادة: يقال ليس من أهل دِينٍ إلاَّ وهم يتوَلَّونه[1]، فله في هذه الدنيا ذكرٌ حسنٌ وثناءٌ جميلٌ باقياً على الأيام[2]، بل قال بعضهم: إن الله حبَّبَه إلى كلِّ الخلق، فكل

---

(١) انظر تفسير عبدالرزاق ٣/ ٥، وابن أبي حاتم (١٣٥٤٣)، والطبري ١٤/ ٣٩٨.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ١٤/ ٣٩٧.

أهل الأديان يقرون به، أما المسلمون واليهود والنصارى فظاهر، وأما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلاّ به، وتحقيق الكلام أن الله أجاب دعاءه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء][1]، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم]. والمعنى الجامع لقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: "أي: خصلة حسنة أو حالة حسنة. وقيل: هي الولد الصالح. وقيل: الثناء الحسن. وقيل: النبوّة. وقيل: الصلاة منّا عليه في التشهد. وقيل: هي أنه يتولاه جميع أهل الأديان. ولا مانع أن يكون ما آتاه الله شاملاً لذلك كله ولما عداه من خصال الخير"[2].

رابعاً: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾. أي من الصالحين في أحوالهم ومراتبهم، أو بمعنى أنه في الآخرة ممن يُحكم له بحكم الصالحين في الدنيا، فإن قيل: لم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ

(١) انظر مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٨٤.

(٢) انظر مفاتيح الغيب ٢٠/ ١٠٨.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ ولم يقل: وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين؟

أُجيب: بأنه تعالى أخبر عنه عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء] فقال ههنا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة] تنبيهاً على أنه تعالى أجاب دعاءه، ثم إن كونه من الصالحين لا ينفي أن يكون في أعلى مقامات الصالحين، فإن الله تعالى أشار إلى ذلك في آية أخرى وهي قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فهو ممن رفع الله درجاتهم، وأعلى مقامهم، حتى قبل دخول الجنة، فقد جاء كما مرّ أنه أول من يكسى يوم القيامة، بل رفع الله مقامه في هذه الدنيا فجعل له لسان صدق علياً.

الصفات التسع لخير البرية عليه السلام

وملخص ما سبق أن الله تعالى وصف في آيات النحل السالفة إبراهيمَ عليه السلام بتسع صفات؛ الصفة الأولى أنه كان أمة ثم عطف عليها ثلاث صفات، عطف بيان، وهي قانتاً، حنيفاً، شاكراً، وذكر بين ذلك صفة سلبية -يصير بها المجموع أربع- أكد بها حنيفاً لأنها من أظهر

أسباب الآيات المناسبة لسياقها ومقامها وهي قوله: "ولم يك من المشركين"، ثم عقب الأربعة الأول بذكر أربعة امتن الله بها عليه فذكر أنه اجتباه، وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين. وهذه الأربعة تفَسِّر الأُوْلَيَانِ منهما هدايته للصفات التي قبلها، والأُخْرَيَانِ تُبيِّن عاقبة الالتزام بها.

"واعلم أنه تعالى لما وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات العالية الشريفة قال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾"[1]، قال بعض أهل العلم: أَمَرَ الفاضل باتباع المفضول لمّا كان سابقاً إلى قول الصواب والعمل به[2]، وإذا كان محمدٌ ﷺ المخاطبُ بالوحي ابتداءً، وهو أكملُ البشريَّةِ وأفضلُهم مأموراً باتباع ملَّةِ إبراهيمَ، فأحرى وأولى أن يتوجه لنا الأمر نحن بالاقتداء به، فنحن أحوج إلى التسديد والتكميل.

تلك هي أبرز صفات الرجل الأمة عليه السلام، ولا سبيل إلى الاستقامة

(١) انظر مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٨٥.

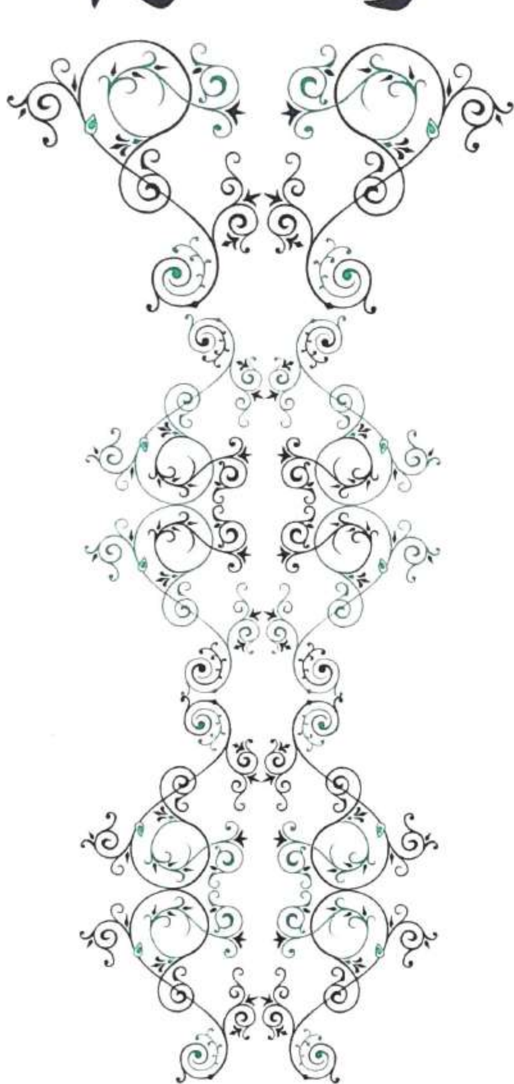
(٢) انظر البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٦١٠ حكاه عن ابن فُورك.

على ما كان عليه إلاّ بالصبر واليقين، قال علماؤنا رحمهم الله: "بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين"[1]، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة].

ولئن كانت الصفات الماضية جامعة لخصال الخير، وفيها الإشارة لوصف من حققها في الآخرة، فإن القرآن الكريم قد عرض لأوصاف أخرى جليلة للخيل عليه السلام، لا يتسع المقام لحصرها، ولكن نعرض لبعضها فيما يأتي إن شاء الله.

(١) هذا مشهور عن ابن تيمية رحمه الله، انظر الشهادة الزكية ص٣٥، ومدارج السالكين ٢/ ١٥٤، واقتبسه منه عدد.

الخليل عليه السلام والكرم





الخليل عليه السلام والكرم

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ لقد جبل عليه السلام على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ومنها الكرم، ولقد تميَّز في تاريخ البشرية بهذه الخَلَّةِ الحميدة أناس، فكانوا محمودين بذلك عند الناس جميعاً، ولا أدلّ على ذلك من سيرة حاتم الطائي، فحاتم الطائي هذا الذي لا يزال صِيتهُ يُدَوِّي في الآفاق بعد مئات السنين، اشتُهِر بصفةٍ واحدة! مع أنّه كان كافراً، ولا يزال يُضرب به المثل، «الكرم الحاتمي»، وتُسمّى بأسمائه الشوارع، والمدارس، ويُذكر للأبناء، مع أنّه لم يكن مؤمناً، ولكن هذه خصلةٌ عظيمةٌ من خصال الإسلام، ولو كان حاتم مؤمناً لاستحقّ أن يُترحّم عليه كما ورد في الحديث[1]، ولكنه مات كافراً، من أهل الفترة، وأراد أمراً فأدركه كما في حديث ابنه عَدي رضي الله عنه[2].

---

(١) انظر دلائل النبوة ٥/ ٣٤١ للبيهقي، حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في القدوم بسبايا طيِّئ، وهو ضعيف انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٥٣٩٧).

(٢) انظر مسند أحمد (١٨٢٦٢).

فإذا كانت خَصلة واحدة وهي خَصْلة الكرم التي اشتهر بها حاتم بلغ بها المجد والسؤدد، ولا يزال التاريخ يذكرها، مع أنّه لم يكن مؤمناً، فكيف بمن ورث عنه حاتم بل كرماء العرب منه تلك الصفة؟!

كرم إبراهيم عليه السلام سابقٌ كرم أجوَاد العرب

والله ما حاتم، ولا غيره إلاّ عيال في الكرم إذا ذكر صاحبُ السُّنَّة الأولى إبراهيم عليه السلام. فهو أول من قرى الضيف، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه كما عند البيهقي[1] وغيره عن رسول الله ﷺ، قال: «كان أول من ضَيَّفَ الضَيْفَ إبراهيمُ عليه السلام» وقد ذكر ابن عبدالبر أن هذا ثابت، وقال في الاستذكار[2]: "أجمع العلماء على مدح مُكْرِم الضيفِ، والثناءِ عليه بذلك وحمدِه، وأن الضِّيَافة من سُنن المرسلين، وأن إبراهيم أولُ من ضَيَّف الضَيْفَ"، فهذا إجماع على أنه من سنّ تلك السنة، وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال كان إبراهيم عليه السلام يكنى

(١) انظر: شعب الإيمان (٩١٧٠)، ورواه مالك في الموطأ من مرسل سعيد (١٦٤٢)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٧٢٥).

(٢) ٨/ ٣٦٨.

أبا الضِّيفَان[1].

وقد ورِثَ العرب عنه تلك الخَلَّة منذ أيام الجاهلية قبل الإسلام، فتمَدَّحوا بها، وأشادوا بأهلها، وهذا كثير معروف في أشعارهم، ومن ذلك، ما جاء في كلمة حسّان رضي الله عنه قبل الإسلام:

ألم تسأل الربع الجديد التَّكَلُّما   بمدفع أشداخ فبرقة أظلما

وفيها:

لنا حاضر فَعْمٌ وبادٍ كأنه   شماريخ رضوى عزة وتكرماً
وإنا لنَقْري الضيف إن كان طارقاً   من الشحم ما أمسى صحيحاً مسلّما
لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقال أيضاً رضي الله عنه يمدح الحارث بن ثعلبة بن جفنة وهو كعب أبو عامر بن حارثة بن امرئ القيس، وأمه مارية، والد المنذر المعروف بجبلة بن الأيهم، وكان ذلك في زمن الجاهلية:

(١) انظر البداية والنهاية ١/ ١٦١، وتاريخ ابن عساكر ١٢/ ١٤١.

يسقون من ورد البريص عليهم   بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم   لا يسألون عن السواد المقبل

وممن تميز في ذلك حاتم الطائي فعلاً وقولاً، ومن ذائع شعره:

أماوي إن المال غاد ورائح   ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إني لا أقول لسائل   إذا جاء يوماً حل في مالنا نزر
أماوي مايغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر

وجنس هذا كثير جداً في أشعار العرب وأخبارهم، ولا غرو فجدهم إبراهيم عليه السلام.

من أنواع الكرم والجود عن الخليل عليه السلام

إن صفة الكرم ما كانت إلّا واحدة من صفاته الكريمة وخلاله النبيلة، ثم إن كرم إبراهيم عليه السلام، كرمٌ عظيم، بالمال، والنفس، وأنواع الجود والبذل، فقد جاد بنفسه، فبذلها رخيصة لله، وتلك أعلى مراتب الجود، وقد قيل:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد براحته ورفاهية وإجمام نفسه في مصلحة الدعوة، وجاد بالعلم فبذله، وجاد بجاهه وشفاعته ومن ذلك محاورته الملائكة في قوم لوط، وجاد بالصبر والاحتمال والإغضاء، وجاد بالخلق والبشر والبسطة. ولو تأملت أنواع الجود كلها وتأملت حال الخليل وجدته قد ضرب فيه بسهام.

وكذلك الكرم حتى قيل إنه لم يطعم وحده، وكرمه ثابت فقد وصفه الله بمقتضاها في مواضع عدّة، وقد عقد البخاري في كتاب الأدب من صحيحه باباً سماه إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه[1]، أورد فيه قول الله تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾[الذاريات]، والخبر معروف عندما جاءه الملائكة الذين أُرسلوا إلى قوم لوط وبشّروه بإسحاق وبحفيد منه هو يعقوب عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام جاء بعجلٍ سمين، كما قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾[الذاريات]، أي ذهب خفية سريعاً، وفي سورة هود قال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود]،

(١) صحيح البخاري ٨/ ٣٢.

والحنيذ المشوي، فروغانه وذهابه السريع وإتيانه بذاك الخير، ينم عن رجل أخذ الأهبة لإكرام النازل وتَمَرَّسَ على ذلك، وكان الكرم له سجيّةً؛ لأنّ الأضياف جاؤوا على غير موعد، وهناك فرقٌ بين أنْ تَدعُوَ ضيفاً من أجل أن تكرمه وبين أن يطرقك على حين غفلة، فيجد الأمرين سيين لكون دارك مألفاً لمن أراد القِرى.

من مظاهر كرمه عليه السلام في قصة الملائكة

ومن مظاهر الكرم عند إبراهيم عليه السلام التي تتبدى للمتأمل في خبر ضيفه مع الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط عليه السلام ما يأتي:

أولاً: كرم الأخلاق، ومن ذلك رده التحية بأحسن منها، مع أنه لم يعرف القوم بل أنكرهم: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]، قال ابن عطية: "وكان سلام الملائكة دعاء مرجواً فلذلك نُصِب، وحيى الخليل بأحسن مما حُيي وهو الثابت المتقرر ولذلك جاء مرفوعاً"(١)، قال الألوسي: "عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى يكون تحيته أحسن من تحيتهم أخذاً بمزيد الأدب

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣.

والإكرام"[1]، قال ابن كثير: "قال علماء البيان: هذا أحسن مما حَيّوه لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام"[2]، فرفع المصدر أبلغ من نصبه، لأن الرفع فيه تنامي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره: سلام دائم، أو ثابث أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوماً والفعلية تقتضي التجدد والحدوث فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن[3].

ثانياً: رُوي أن الملائكة كانوا أربعة، ومع ذلك بادرهم بذبيحة، واختار الذبيحة من أجود ما عند أهل تلك البلاد شمال جزيرة العربية وهي الأبقار، ثم اختار من الأبقار أفضلها عجلاً طري اللحم، ثم اختار منها أفضلها وهو السَّمين، ثم هيأه لهم طعاماً بأسرع أنواع التحضير وأفضلها فجعله حنيذاً مشويّاً.

---

(١) روح المعاني ١٤/ ١٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٢.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٢٩٤، وانظر الرسالة التبوكية لابن القيم ص٦٦.

ثالثاً: "عجل القِرى، وذلك من أدب الضيافة لما فيه من الاعتناء بشأن الضيف"[1].

رابعاً: "في مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل، واختلف في هذا العجل هل كان مهيئاً قبل مجيئهم أو أنه هُيئ بعد أن جاؤوا؟ قولان اختار أبو حيان أولهما لدلالة السرعة بالإتيان به على ذلك، ويختار الفقير ثانيهما لأنه أزيد في العناية وأبلغ في الإكرام، وليست السرعة نصاً في الأول كما لا يخفى"[2].

خامساً: قوله في آية الذاريات ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، وقد ذكروا أن من أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يبادر بالقِرى من غير أن يشعر به الضيف حذراً من أن يكفه الضيف، أو يصير منتظراً[3]. وهكذا الكريم يقدم أفضل ما

---

(١) روح المعاني ٦/ ٢٩١.

(٢) السابق.

(٣) انظر تفسير البيضاوي ٥/ ٢٣٨، وروح المعاني ١٤/ ١٣، والمعنى سابق في الكشاف، ومثنى كثيراً.

لديه، دون سؤال: هل تريد عشاء؟ ماذا تحب أن نأكل! وعندها قد يقول الضيف: شكراً لا أريد شيئاً! أو يقول: أريد كأسَ ماءٍ! ثم يستحي فيُصر ويبيتُ طاوياً بسبب بُعْدِ مضيفه عن أدب الضيافة! أما إبراهيم فراغ سريعاً ليقدم أفضل ما عنده، وأفضل ما عندهم هو المذكور، وأعراف الناس في هذا تتفاوت.

سادساً: قوله تعالى: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾: اشتمل على ذكر أدب آخر من آداب الضيافة سنه إبراهيم عليه السلام وهو تقريب الطعام إلى الضيف، وهو إن أمكن خير من دعوة الضيف إلى القيام إليه، قال الألوسي: "وفيه دليل على أن مِن إكرام الضيف...أن لا يوضع الطعام بموضع ويدعى الضيف إليه"[1]، ومع ذلك فالأعراف محكمة في ذلك.

سابعاً: من المشهور اليوم أن الذبح لإكرام الضيف بعد وروده أبلغ في إكرامه من الإتيان بما هيأته قبلَ وروده من الطعام، وهذا له طرفان ووسط، فالطرف الأول المذموم الذبح عند مقدمه فهذا أشبه بالذبح له، وفيه إشعار بأن إراقة الدم عند حضوره مطلوبة، فهذا من

---

(١) روح المعاني ١٤/ ١٣.

جنس ما يذبحه المشركون لمعظميهم وأوثانهم، وطرف آخر لا يهيئ طعاماً ما لم يكن الضيف قد جاء بموعِد سابق، فضلاً عن أن يفكر في ذبيحة! ووسط يكرم بما يمكنه، فإن أمكنه تقديم أعلى القِرى قدّمه، وإلا أكرمَ ضَيفَه بما عنده، وإذا جاءك ضيف بعد أن أخبرك فوجدك هيئت له قِرى عظيماً كان في ذلك دليل كرم كما لو هيئته له على غير ميعاد.

وأنبه هنا: إلى أن كثيراً من الناس يُكرمون أُناساً بدعوتهم إلى بيوتهم، لكن أحياناً لا يكون ذلك كرماً بل استجابة لعادات، وأداء لحق كما يقال، لكن عندما يطرقك ضيفٌ على حين غفلة؛ فتُقرِّب له أفضل ما لديك له، مع إمكان تعلُلِك بعدم الاستعداد، فهذا كرم ظاهر.

ثامناً: قال ما حكاه الله عنه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ داعياً لهم بهذا الأسلوب الجميل الذي لايشتمل على أمرٍ يَلحظ منه الضيف أقلَّ معنى المنِّة، بل حضهم باستفهام كأنه يريد منهم صنعَ إحسانٍ به، ومن المعروف أن تأنيس الضيف عند تقديم الطعام له من جملة الآداب عند

ذوي الألباب، ولهذا أَثَرٌ على نفس الضيف ظاهر، بل يَذكر بعض الناس أمراً مشتهراً بينهم وهو شيءٌ عجيبٌ! يقولون: وجدنا أن هناك ارتباطاً ظاهراً بين نفسيّة المُضيِّف وبين أثر الطعام الذي يأكله الضيف، حتى لو لم يعلم الضيف عن نفسيَّته شيئاً، فإذا كان منشرح النفس، فَرِحاً بضيفه يكون الطعام هنيئاً مريئاً، وإذا كان المضيّف يَشْعُر بثقل الضيف، وكأنه مفروض عليه، ولا مَنَاص من إكرامه، فقد تكون عاقبة هذا الأكل ثقيلة وشديدة، قلت: ولذلك أصل في صورة النساء ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾. ولذلك فإن الكرم لا يقتصر على ما تُقدمه من طعام وشراب إلى أضيافك، بل يتعداه إلى بشاشتك عند استقبالهم، وإلى انشراح نفسك عند تقديم ضيافتك لهم، فبعض الناس عندما تدخل عليه قد يقدّم لك أفضلَ الطَّعام، لكنك تشعر بامتعاض نفسِه من قُدومك، فهذا ليس كرماً! وبعض الناس يقدّم لك شيئاً يسيراً ولكنك تَلْقَى عنده البشاشة والترحيب والود الصادق، وقد لا يقدّم لك إلّا من الموجود؛ إذ الجود من الموجود؛ لكنك تشعر بالأُنْسِ والراحة والطمأنينة وكأنك في

منزلك، وتشعر بأن قول القائل:

يا ضيفَنا لو زُرتَنا لوجدتَنا نحن الضيوفَ وأنت ربُّ

ينطبق على هذا المضيف، فحري بنا أن نُكرم أضيافنا بسماحة النفس وإظهار الفرح والبشر بقدومهم، كما قال الأول:

أضاحكُ ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمحل جديب

ثم بعد ذلك بما تيَسَّر.

رسالة لمن نزل ضيفاً

هذا، ولديَّ رسالة أوجهها لمن نزل ضيفاً على غيره، فأقول:

إذا أردتَ أن تَطْرُقَ بيت صديقٍ لك فاختر الوقت المناسب، ولا تأتِ في وقتٍ يُزْعِجه، إلّا إذا اضطُررتَ إلى ذلك.

وإن كان هناك موعدٌ للمناسبة، فلا تأتِ قبل الموعد بوقتٍ طويل فتُثْقِل على الـمُضِيف.

ثم ارض بما يُقدَّم إليك، لأنك لا تعلم ظروف مضيِّفِك ولا أحوالَه، وليس إكرامك بمقدار ما يُوضَع لك، فهناك من يذبح عشرات من الذبائح أو الإبل، لكنه يَشْعر أنّ الضيفَ ثقيلٌ، وبعض

الناس يُرِيد ممن يضيِّفه أن يقدّم نوعاً من الطعام أو نوعاً من الذبائح ولا يرضى بغير ذلك، فإيّاك أن تكون ثقيلاً.

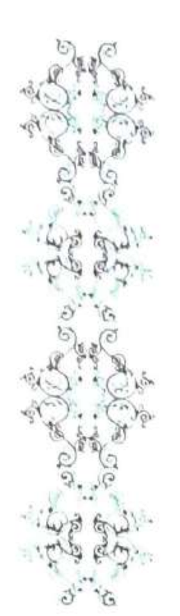
وإذا انتهت الضيافة فلا تبقى فتُثقِل عليه، وهذا هو توجيه الله تعالى في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأحزاب:٥٣]، وللضيافة والضيف والمضيف آداب وأمور تُعرف بحسب اختلاف الأحوال والأعراف وغيرها.

وأخيراً، فإن صفة الكرم خصلة كريمة ظاهرة عند نبي الله إبراهيم عليه السلام.

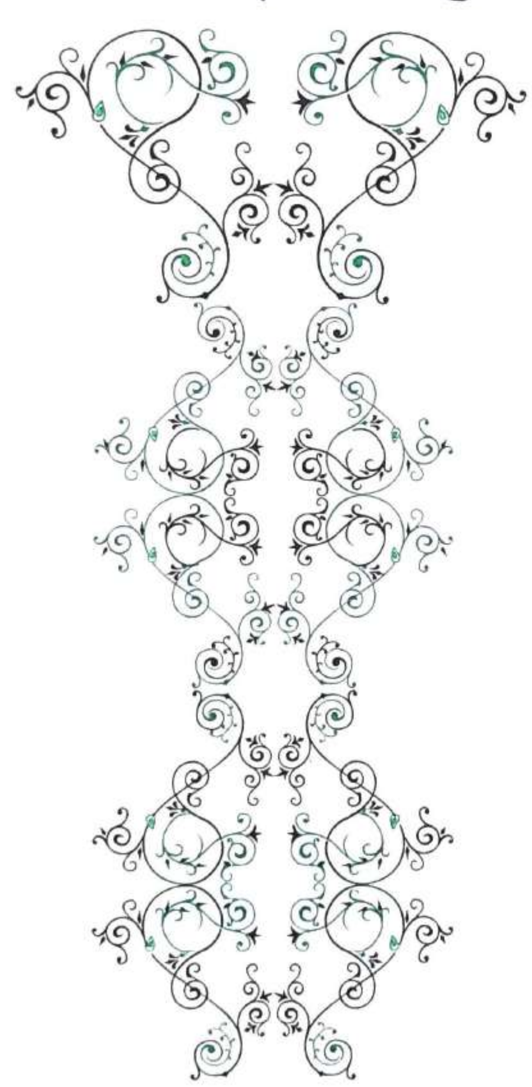
وهكذا كان نبيّنا ﷺ، فكان أجودَ بالخيرِ من الريح المرسلة[1]، وكان أجودَ ما يكون في رمضان عندما يلقاه جبريل، فاقتدِ بمحمد

(١) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ﷺ، وبإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجُدْ بمالك ونفسك، فإنَّ الجود بالنفس غاية الجود.



إبراهيم عليه السلام والشجاعة





إبراهيم عليه السلام والشجاعة

مخالفته لقومه في شركهم

من مكارم أخلاق إبراهيم عليه السلام شجاعته الظاهرة في الحق، وذلك منذ صباه، فما كان هيّاباً للباطل ولا جباناً أمامه، وانظر كيف خالف قومه، وصدع بالحق بينهم، ولله ما أصعبَ مخالفةِ المعهود!

ما أصعب أن يخالف الإنسان عاداتِ قومِه، وأصعب من ذلك مهمة من يريد أن ينقلهم من عقيدة إلى عقيدة، إنها مهمة عسرة شاقة محفوفة بالمخاطر لا يطيقها كل أحد! ولذلك كانت هذه المهمة مهمة الأنبياء والرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ومعلوم أنه إذا كانت للناس عادةٌ أو طريقةٌ في مأكلهم أو مشربهم أو ملبسهم، فإنه يشق على النفس مخالفتها، بل قد يضطَّر أحدُنا إلى مجاراة الناس في كثير من عاداتهم ولو لم يكن راضياً عنها أو مقتنعاً بها؛ لأنه لا يملِك الشجاعة في مخالفتهم، وقد يكون من الحكمة إذا كان ذلك مباحاً ألا يخالفهم. ولعل أكثرنا لمس ذلك في كثيرٍ من موقف حياته، أما إبراهيم عليه السلام فقد وجد قومه على ضلال متعصبين له،

وجدهم يعبدون الأصنام، وبدأ معهم في قضية نقلهم من هذا الباطل إلى الحق، فوقف مواقف ربما جَبُنَ عنها الشجعان! لأن الشجاع لا لغرض يطلب حظاً لنفسه مِدْحَةً أو دنياً، بخلاف من لا غرض له فهذا متهور، والتهور ضرب من الحمق لا يمدح به، أما شجاعة الداعية الحقيقية فهي أن يثبت حتى ينقل قومه مما هم عليه من الباطل إلى الحق أو يهلك دون الحق الذي يدين الله به، وقد لا ينال من الدنيا شيئاً بل قد تذهب حظوظه كلُّها منها، لكنه يعمل لثمنٍ أغلى! فلا بأس ولا ضير أن تذهب الدنيا، فسلعة الله التي يرجوها غالية، ومن يخطب الحسناءَ لم يُغْلِها المهر.

من مواقفه الشجاعة عليه السلام

وعوداً إلى إبراهيم عليه السلام، فقد كانت لهذا الأمة الإمام مواقفُ شجاعة أقدمَ عليها وهو فتى عاقل يدرك عاقبتها، وما سيترتب عليها، فخاض غمارها ولم يتلكأ أو يتقهقر! فاستحق أن يخلد ذكرها، ومن تلك المواقف الشجاعة التي خلدها الوحي:

مناظرته لقومه وللنمروذ

فقد قام بالحق وجادل لقومه من عبدة الكواكب، وحيداً لاناصر له إلاّ

ربه ضدَّ أمَّة بأسرها، وقد ذكر الله المناظرة معهم في سورة الأنعام ثم حكى قوله ﷺ الذي لايزال يُطَمْئِن كلَّ مؤمن: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام].

ومن هذا القبيل محاجته للنمروذ بن كنعان والتي قصها الله فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

وأمثال هذه المناظرات تدل على رباطة جأش عجيبةٍ لإبراهيم ﷺ، كما تدل على علمه الراسخ، فقوم إبراهيم وهم الكلدانيون ليس كما يظن بعضُ الجهلةِ أنهم أناسٌ بدائيون متخلفون لا يعلمون شيئاً! بل كانوا أصحابَ علوم، وأهلَ فلسفةٍ وحضارة، بل عليهم تخرج أكابر الفلاسفة، قال ابن تيمية: "كانت الصابئة من النَّبَطِ الذين بالعراق والجزيرة كالبطائح وحران وغيرهما من الصابئة المشركين من أئمة الفلاسفة، وإبراهيم الخليل بعث

إليهم، وفي مولده قولان قيل بالعراق وقيل بحران وهذا قول أهل الكتاب، وكذلك هو في التوراة التي عندهم، يقال إن قبر أبيه بسور حران وبها آثار الصابئة كالهياكل التي للعِلَّة الأولى والعقلِ والنفس والكواكب، وما زال بها أكابرهم كثابت بنِ قُرَّةَ وأمثالِه وقد ذكر عبد اللطيف بن يوسف: أن الفارابي كان قد تعلق بالفلسفة في بلاده، فلما دخل حران وجد بها من الصابئة من أحكمها عليه، وابن سينا إنما حَذِق فيها بما وجده من كتب الفارابي"[1]، وقد استمر وجودهم إلى عهود الإسلام، وقد كانت لبعض ملوكهم بعد الخليل دولٌ وصولات معروفة أشار إليها القرآن وأثبتتها التوراة وسطرها التاريخ كسنحاريب ونبوخذ نصر الذي يقال إنه ملك الأرض، وبنى حدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا.

فكانت تلك الأرض منبعاً للحضارة ومهاجراً لطلاب الفلسفة والحكمة، منذ قديم الأزمان وكان القول بقدم العالم وأزلية الكواكب - التي عبدها قوم إبراهيم- بدعوى توسطها للعلة الأولى وفقاً لنظرية الفَيْض، كانت له براهين فلسفية انتصر لها من أخذها عنهم من فلاسفة اليونان وغيرهم. إذا عرفت هذا ظهر لك فضل علم إبراهيم، وبدت لك

---

(١) الرد على البكري ٢/ ٥٨٠، وانظر الرد على المنطقيين ص٢٨٧-٢٨٨، ففيه بيان لخبر بقاء متفلسفتهم في عهود الإسلام.

شجاعته ﷺ، فقد وقف ذلك الموقف في مقارعة حجج الفلاسفة وإبطال أدلتهم وهو فتى دون أن يتمَلَّكه خوفٌ أو يتطرَّق إلى قلبه شكٌ.

وكذلك خبر مناظرته للنمروذ الذي قيل بأن ملكه بلغ المشرق والمغرب، يدل على شجاعة عجيبة، وتعلق قلبه بالله تعلقاً تاماً فلا يلتفت إلى ملك سواه، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! يُزَيِّن له الجَور منتسبون للعلوم متَّبِعون!

ولئن ذُكِرَت بعض مواقفه ومناظراته ﷺ في القرآن فما طُوي منها كثير، إذ ذلك شأن العالِم الدَّاعية إلى الخير في بلاد ظهر فيها مَنطق الصابئة المغترِّين بعلومهم، وحضارتهم التي بهرت الألباب! وما أشبه الليلة بالبارحة! يوم يقف أتباعُ الرُّسُلِ من هذه الأمَّةِ يُقارعون بالحُجَّةِ أقواماً بهرتهم الحضارة الماديةُ، فبَّدلوا دينَهم، أو حرَّفوه لينسجم مع مقررات حضارةٍ خَطف أبصارَهم بريقُها، ومن كان من أتباع الرسل حقاً عالماً بالوحي الهادي، متوكلاً على الله الناصر، ثَبَتَ وقام المقامات العظيمة في مقارعة الباطل المادي المنتفش!

تحطيمه الأصنام

ومن مواقف إبراهيم ﷺ الدَّالةِ على شجاعته، تحطيمُه الأصنامَ في سبيل هداية قومه، وهو يعلم أن روحَه قد تكون ثمناً لذلك الصنيع.

ولم يكن فعله عليه السلام فعلاً غضبياً عبثياً انتقامياً، فهو يعلم أن تلك الأصنام أحجارٌ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ولا تُضَرُّ بالتكسير ولا تأبه! لكنَّه فعل لغرضٍ، وأراد مصلحةً ظاهرة عنده مستقِرَّةً، وَفق خطَّةٍ هادئة محكمة، وكادت أن تنجح! يوم قال بعد تدبير محكم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء]، وهذا التدبير وتلك المصلحة، وذلك الغرض النبيل، الذي يراد، من الفروق المهمَّةِ بين الشجاعة المحمودةِ والتهوُّرِ المذموم.

الفرق بين الشجاعة والتهور

فمن الفرق بين الشجاعة والتهور أن الشجاعة من القلب، وهي ثباته واستقراره عند المخاوف، وهو خُلُق يتولد من الصبر وحُسْنِ الظَنِّ، فإنه متى ظَنَّ الظَفَرَ وساعده الصبر ثبت. كما أن الجُبْنَ يتولَّد من سوء الظن وعدمِ الصبر فلا يَظُنُّ الظَفَرَ ولا يُساعده الصبرُ... فالشجاعة حرارة القلبِ وغضبُه وقيامُه وانتصابُه وثباتُه، فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته فإنها خُدَّمٌ له وجنود، كما أنه إذا ولَّى ولَّت سائرُ جنودِه... وأما التهور فهو إقدامٌ سببُه

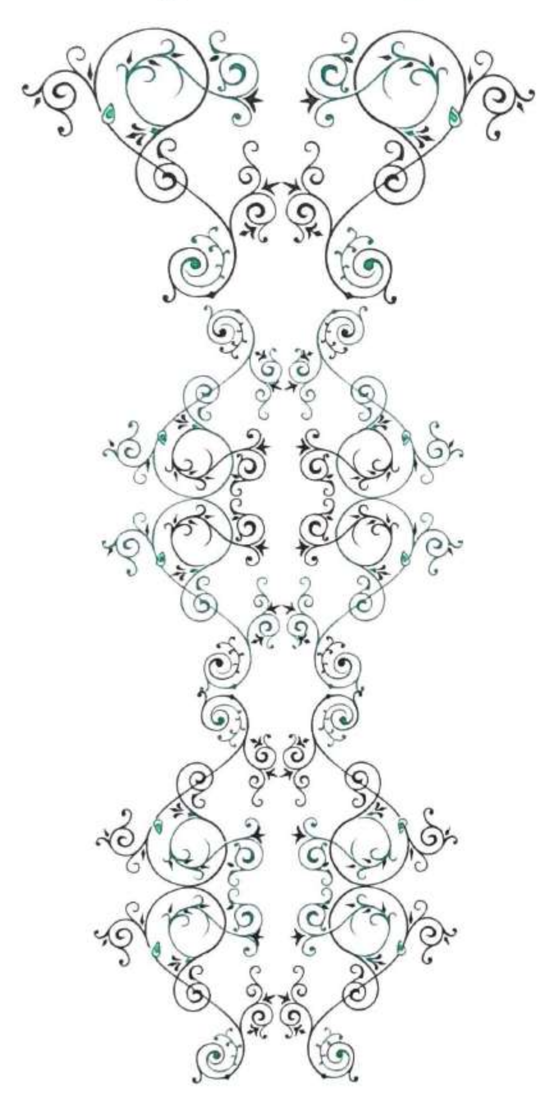
قلَّةُ المبالاةِ، وعدمُ النَّظَرِ في العاقبة، بل تُقْدِمُ النَّفَسُ في غير موضعِ الإقدام، مُعْرِضَةً عن ملاحظةِ العارضِ فإمَّا عليها وإمَّا لها[1].

وقد بُلِيَت أمّتنا اليوم بأناسٍ لم يُفرِّقوا بين الأمرَيْن، فوقع منهم التهور والاستعجال، وهم يحسبونه من باب الشجاعة، وليس بذاك، فالشجاعةُ تَسْتَلْزِمُ الصبرَ، ويُقْدِمُ صاحبُها لتحقيق مصلحةٍ شرعيةٍ ظاهرة، يحتسب نفسَه لها، أما التَّهور فعدمُ مبالاةٍ بالمفسدة في سبيل حظِّ النَّفسِ، أو في سبيل تحقيق مصلحةٍ دُنيا، فانتبه رعاك الله لهذا.

(١) الروح لابن القيم ص٢٣٦-٢٣٧.



إبراهيم عليه السلام والصبر





إبراهيم عليه السلام والصبر

ومن مكارم أخلاق إبراهيم عليه السلام صبره على طاعة ربِّه، وصبره عن معصيته، وصبرُه على المكاره والابتلاءات التي نزلت به عليه السلام.

أما صبره على طاعة ربِّه فظاهر في دعوته لقومه، وفي بنائه بيت الله الحرام، وفي حَجِّه، وفي جميع أحوالِه المذكورة في القرآن.

صبره عن معصية الله

وأمَّا صبرُه عن معصيته فإبراهيم عليه السلام عاش حياة مديدة، في أقل الأقوال: مائةٌ وخمسةٌ وسبعون سنَةً، وأوصلها بعضهم إلى مائتين أو يزيد ومع ذلك لاذنب له يذكره يوم القيامة سوى اجتهادِه الذي لايَعْرِف مغبَّته في الكذبات الثلاثة التي بين نبينا ﷺ أن اثنتين منها كانت في ذات الله، وبين أهل العلم أنها لم تكن كذباً على الحقيقة، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ... »، ثم ذكر الثالثة وهي قوله عن سارة أنها أخته عندما قدم على جبار من الجبابرة[1].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رواه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١)،

وقد بيَّن أهل العلم أن هذه الثلاثة كلها في ذات الله وإنما ذَكر الحديثُ الأوليين لتجردهما من كل حظ نفسٍ بخلاف الأخيرة، وكلُّها ليست كذباً محضاً، بل هي معاريض "فالمُعَرِّضُ يقصد معنى والمستمع يفهم غيرَه، فالمعرض إذا عنى حقاً، والمستمع فهم باطلاً، كان الكلام حقاً باعتبار الغاية والقصد، وكذباً باعتبار الإفهام، ولهذا لم يرخص في المعاريض فيما يجب بيانه لمثل البيع والشهادة والإفتاء ونحو ذلك باتفاقٍ، ويجوز للمظلوم التعريض في الأيمان وغيرها، وأما من ليس بظالم ولا مظلوم ففيه ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره قيل يجوز له التعريض، وقيل لا يجوز مع اليمين ويجوز بدونها، فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قيل: أراد سقيم القلب من كفركم، وقوله: (أختي)، أراد أختي في الدين، كما جاء ذلك مصرحاً به في الحديث الصحيح، حيث قال: (فإنه ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك)، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، قيل إنَّه قصدَ تعليقه بالشرط وهو قوله: ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، ومن هذا قول نائبِ يُوسف: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؛ فإن يوسف أمره بالنداء، لكن مراد يوسف

وانظر ص١٢٦ من هذا الكتاب.

سارقون ليوسف من أبيه، وهو صادق فيما عناه"[1]، وقد يكون نائب يوسف صادقاً فيما ظهر له؛ لأنه لم يعلم بحيلة يوسف، فتوهم أنهم سارقون فعلاً. ولذلك فيوسف لم يقل: (معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق)، بل قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لأنه يعلم أنهم لم يسرقوا، فورَّى. وقد ذكر أهل العلم أوجه أخر تبين ما عَرَّض به الخليل وهذه أظهرها، ووجه آخر في تخريج الكلام ذكره ابن عاشور وهو قوله: "فالمراد من الحديث أنها كَذِبَات في بادئ الأمر، وأنها عند التأمل يظهر المقصود منها. وذلك أن النهي عن الكذب إنما علته خَدع المخاطبِ، وما يتسبب على الخبر المكذوب من جريان الأعمال على اعتبار الواقع بخلافه. فإذا كان الخبر يُعْقَبُ بالصِّدق لم يكن ذلك من الكذب، بل كان تعريضاً أو مزحاً أو نحوهما"[2]، فهو كأن تقول في مجلس لم أحضر بيت فلان ثم تُعقِّب في نفس المجلس بعد برهة لحكمة قائلاً إلاّ بعد أن حضر فلانٌ، فإخبارك بعدُ ينفي الخداع، ويسوغ فصلك قصدك إن كان معتبراً.

---

(١) الرد على البكري ٢/ ٧٢٤-٢٧٢٦ باختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٧٥، ويأتي عن بعضها مزيد كلام انظر ص٣٠٥، و ص٤٠٤ وما بعدها.

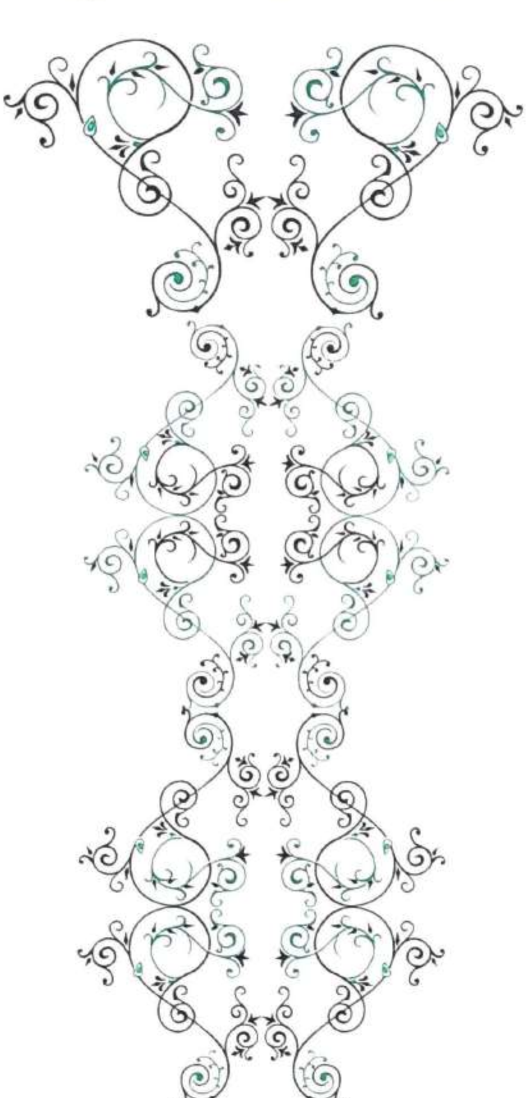
صبره على أقدار الله

وأما صبره عليه السلام على أقدار الله وابتلاءاته فما أعظمه! ومن أظهره صبره على الإلقاء في النار، ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) ﴾ [الصافات]، ومن ذلك صبره على عداوتهم البادية، ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]، ومن ذلك صبره على هجرةِ الأهل والوطن، ومفارقةِ الزوجة والابن الأول بتركهما في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، إلى غير ذلك، ولعله ليأتي للحديث عن الابتلاء في حياة إبراهيم موضع مفرد[1].

---

(١) انظر ص ٢١١ من هذا الكتاب.

إبراهيم عليه السلام والتواضع





إبراهيم عليه السلام والتواضع

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]، وليس الاستغناء بالمال فقط، بل طغيان الاستغناء بالمال نوعٌ من الطُّغْيَان، وطغيان الجمالِ نوع، وكذلك الطغيان بسبب المواهِب والخصالِ، بعض الناس إذا رأى من نفسه فَهماً وعِلماً ليس لدى الآخرين طغى، وترفع عليهم، كما أن بعض الناس إذا وَهَبه الله مالاً وشعر أنه ليس بحاجة للآخرين، طغى وتكَبَّر. وبعض الناس إذا أصبح مسؤولاً أو ذا رئاسة في قومِه أو بلده طغى كذلك! بل إذا شعر بعض الرجال بشيءٍ من القوة ظلموا الزوجاتِ، بل حتى بعض النساء إذا شَعَرْنَ بأنَّ الزوجَ حليمٌ حبيب ظلمنه، وبَغَيْن عليه، وأردن تسيَره كما يشأن، بل أكثر الناس كذلك والاستثناء هو القليل. أمَّا إبراهيم عليه السلام، فقد آتاه الله المالَ، وآتاه من الخِلال الشريفةِ كالشجاعة والصبر وغيرهما ما يدعو بعض الناس للترفع والتعاظمِ وازدراء الآخرين! لكنَّ إبراهيمَ عليه السلام صاحبُ مَعْدِنٍ نفيسٍ، ونفْسٍ عالية! ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾،

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة]، جمع خلال الخير، وجمع معها التواضع العظيم.

من مظاهر تواضعه عليه السلام

كان عليه السلام بعيداً عن الغُرور والعُجْب، أو الإدلاء بالعمل، يُعَظِّمُ -مع فضله- غيرَه، ويُقَدِّمُ من هو دونَه، ويؤتي ما آتى من الأعمال العظيمةِ وهو مشفقٌ، ولذلك شواهد كثيرة في التنزيل منها:

أولاً: مع أنه إمام الموحدين كما مر، وأبو الأنبياء والرُّسلِ الذين جاءوا من بعده، مع ذلك يدعو بهذا الدعاء العجيب! ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]، إمام الموحدين، وقدوة المحققين، إبراهيم عليه السلام يضرع إلى ربه قائلاً: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾! ثم يؤكده بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، وبعض النَّاس اليوم إن كلمته في التوحيد أو ذَكَّرْتَه به تأفف! وقال: هل ترانا مشركين! فأين هو من الخليل؟ بل أين هو من سائر أنبياء الله؟ يسأل أحدهم ربه فيقول: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ وهذا يرى

نفسَه عن التَّذكِير بالتوحيد مستغنٍ! فلا عجبَ أن يكون شأن توحيده ودينِه في نقصٍ وسُفُول، يأتي الموبقاتِ وما يشعرُ وما يبالي! ضَلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو لترفعه وتكبره وإعراضه يحسب أنه يحسن صنعاً! أمَّا من سلك طريق الأنبياء، فهو في زيادة إيمان وهدى وتَرَقٍّ في معارج التوحيد من كمال إلى كمال أكمل ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد].

ثانياً: من جملة مظاهر تواضعه ونبذه عليه السلام الغرورَ والعُجْبَ والاعتمادَ على العقل والنفسِ قوله: ﴿ .. إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء]. فانظر كيف أقر بنسبة النِّعَمِ إلى مُوليها، مع تعظيمه له وتأدُّبِه معه، حتى إذا جاء الضُّرُ قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ فنسب: "المرض الذي هو نقمةٌ إلى نفسِه، والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جلَّ شأنُه، لمراعاة حسن الأدب كما قال الخَضِرُ عليه السلام: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢]، ولا يَرِدُ إسنادُه الإماتَةَ

وهي أشدُّ من المرض إليه ﷻ في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾، لإمكان الفرق بأن الموت قد عُلم واشتَهر أنه قضاءٌ محتوم من الله ﷻ على سائر البشر، وحكمٌ عام لا يَخَصُّ، ولا كذلك المرض؛ فكم من معافى منه إلى أن يبغتَه الموتُ، فالتأسي بعموم الموت يُسقط أثر كونه نِقمة، فيسوِّغ الأدب نسبته إليه تعالى. وأما المرض فلما كان يُخَصُّ به بعض البشر دون بعض كان نقمة محققة، فاقتضى العلو في الأدب أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار السبب الذي لا يخلو منه..."[1]. فهذا وجه، "وقال الزمخشري: إنما قال: مرضت دون أمرضني لأن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريطٍ من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك"[2]، ووجهٌ ثالث: "قال بعض الأجلة بعد التعليل بحسن الأدب في وجه إسناد الإماتة إليه تعالى: إنها حيث كانت من مُعَظَّمِ خصائصِه ﷻ كالإحياء بَدءاً وإعادة، وقد نِيْطَتْ أمورُ الآخرة جميعاً بها، وبما بعدها من البعث، نظمها في سِمْطٍ[3] واحدٍ في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾، على أن الموت لكونه ذريعةً إلى نيله

---

(١) روح المعاني ١٠/ ٩٥.

(٢) السابق.

(٣) السِمط الخيط فيه الخرز، والتعبير كناية عن الاجتماع هنا.

عليه السلام للحياة الأبدية، بمَعْزِلٍ من أن يكون غير مَطْبُوع[1] عنده عليه السلام انتهى"[2]، ووجه رابع: "قيل: إن الموت لأهل الكمال، وصلة إلى نيل المحاب الأبدية، التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية. وفيه تخليص العاصي من اكتساب المعاصي"[3].

ثالثاً: ومن تمام تواضعه بين يدي ربه وعدم اغتراره بعمله دعاؤه العظيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

رابعاً: ومن تواضعه اعتذاره عن الشفاعة لأنه أتى اجتهاداً، يخشى مغَبَّته فطفق يلوم نفسه عليه، وذلك لمّا ورَّى في مواقفه الثلاثة[4]، وإحالته أمرَها إلى أحد ذُرِّيَتِه ممن هو دونَه منزلةً، مع عظم منزلة موسى ولا شك، قال عليه السلام كما في حديث الشفاعة عند مسلم: «فيقول إبراهيم لست

---

(١) من الطَّبَع وهو الشين، فليس بمشين عنده.

(٢) روح المعاني ١٠/ ٩٥.

(٣) روح المعاني ١٠/ ٩٥.

(٤) انظر صحيح البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١)، وقد تقدم انظر ص١٧٩،١٢٨ وما بعدها.

بصاحب ذلك، إنَّما كنت خليلاً من وراء وراء! اعمدوا إلى موسى ﷺ الذى كلمه الله تكليما»[1]، انظر كيف يحيل إلى موسى وهو خير منه، ثم يقول: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء»، قال بعض الشرَّاح أشار إلى أن موسى عليه السلام كلمه الله تعالى بغير واسطة، وأنه عليه السلام من وراء واسطة[2].

خامساً: ومن مظاهر تواضعه ردُّه التحيَّةَ على الملائكة وهو لايعرفهم كما سبق بأحسن منها، وتقريبُه الأكل لهم، وإكرامُهم، مع أن ظاهرهم غرباء، أصحاب سبيل، وكم من مسلم لا يرد السلام إلا على من يعرف، فضلاً عن أن يبدأ هو بالسلام على من لا يعرف.

سادساً: ومن تواضعه قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم]، أي أرجو أن لا أكون كذلك، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع وغَمط النفس، واتهامها، وقريب من هذا قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) صحيح مسلم (١٩٥).

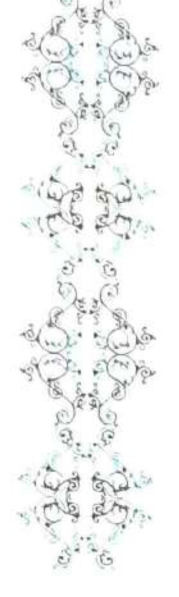
(٢) شرح النووي على مسلم ٣/ ٧١.

وبعض الناس إذا دعا وتضرع وخشع أمَّل خيراً، وحق له! فالله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع عبده إليه يدَيه أن يردهما صفراً، كما جاء في الحديث[1]، لكن ثمّت درجة أعلى هي درجة من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]، قالت عائشة زوجُ النَّبي ﷺ: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: «لا يا بِنتَ الصِّدِّيقِ! ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[2]، جعلني الله وإياك منهم.

---

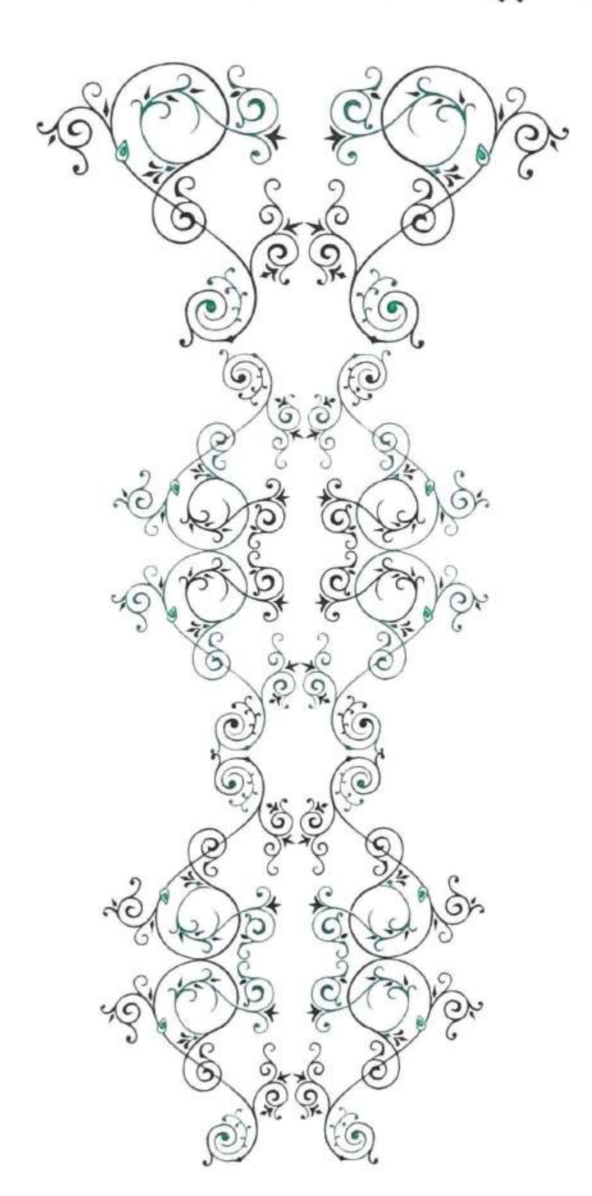
(١) حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، رواه أبوداود في سننه (١٤٩٠)، والترمذي (٣٥٥٩)، وابن ماجة (٣٨٦٥)، وانظر صحيح أبي داود للألباني (١٣٣٧).

(٢) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٧)، قال الحاكم (٣٤٨٦): صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني .





شفقته على الناس ولين جانبه عليه السلام



شفقته على الناس ولين جانبه عليه السلام

من مكارم الأخلاق التي اتصف بها إبراهيم عليه السلام، وهي من الأوصاف التي لا غنى للدعاةِ والمربِّينَ عنها، لينُ الجانب والرِّفق بالناس؛ فإنَّ النُفُوسَ جَمُوحَةٌ، إذا لم يحسن المُرَبِّي سياستَها نَفَرَتْ عنه وانطلَقت، أما إن أحسن تدبيرها وساسها بالرفق فحَرِيٌّ أن تنصاع له، ومظاهر الرفق بالناس ولينِ الجانب في حياة إبراهيم عليه السلام كثيرة، فمن ذلك:

أولاً: مراعاته بعض العصاة في دعواته لتشملهم، كقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [ابراهيم]، وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا "تأدبٌ في مقام الدعاء، ونَفْعٌ للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه. فالمعنى ومن عصاني أُفوِّض أمرَه إلى رحمتِك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى، وهذا من غلبة الحلم على إبراهيمَ عليه السلام وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متعهم الله قليلاً في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.. وإذ كان

قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تفويضاً لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به"، وهذا حق ومعنى حسن، لكن فيه كذلك إمهالهم عسى ولعل الله -الذي سبقت رحمتُه غضَبَه- أن يُحدث في قلوبهم أمراً! وعلى غرار هذا كلمة الرحمة المهداة: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحدَه، لا يُشركُ به شيئاً»، لما قال له جبريل: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك مَلَك الجبالِ لتأمره بما شئت فيهم»، قال ﷺ: «فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد! ذلك فيما شئت؛ إن شئت أن أطبق عليهم الأَخْشَبَين؟»[(١)]، إن على الداعية إلى الله أن يكون رفيقاً، فهو لا يدعو لحظ نفسه، مشفقاً على المدعو فهو يعلم العاقبة الشنيعةَ لمن خالف أمر ربِّه، ولَأَنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَم، كما صح بذلك الخبر[(٢)].

ثانياً: مما يدل على شفقته على الناس، وطمعه في هدايتهم خبره مع قوم

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) متفق عليه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما، رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

لوط عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود]، أتدري من هم قوم لوطٍ؟ أولئك القوم الذين أتوا فاحشة ما سبقهم بها من أحدٍ من العالمين، القومُ الذين وصفهم الله بالإجرام والإسراف، والفسق، والجهل، والعدوان، والظلم، والعمه، والإفساد، قومٌ لما نصحَهم نبيُّهم وذكَّرهم ببعض ذنوبهم جبهوه بالتكذيب والوعيد! ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾[القمر]، ومع ذلك يجادل الأوَّاهُ الحليمُ في قوم لوط! ولعل ذلك راجع إلى من معهم من المؤمنين أعني آل لوط، وكذلك ما كان يرجوا من أوبتهم، وما دَرى أنَّ كلمةَ الله قد حَقَّتْ عليهم، ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود]، أيها الأب الرحيم أعرض!

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ
ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس]، ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾
أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء.]

ثالثاً: ومن شفقتِه ولينِ جانبه ما قصَّه الله تعالى في القرآن من خَبَره مع والده، فلم يزل يتلطَّف معه ويناديه قائلاً: (يا أبت.. يا أبت.. يا أبت.. يا أبت) قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى
عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ
أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم]،
فانظر إلى هذا الخطاب المهذَّبِ اللَّطِيفِ، ناداه بيا أبت! والياء للنداء مع أن الظاهر حضوره عنده، "والنداء في الآية مع كون المنادى حاضراً مقصود به

الاهتمام بالخبر الذي سيُلقى إلى المخاطب فينزل المخاطب منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام"[1]، ثم ناداه بما يشعره بلُصُوقِه به وارتباطه وإياه فقال: "يا أبت" ولم يسمه باسمه أو يبهمه، فكأنه يقول له أنا بعضك فاسمع مني! ثم قال أبت ولم يقل أبي عوض الياء تاءً وقد قال بعض أهل اللغة في سبب العُدول بالياء إلى التاء أن الياء أُبدلت تاءاً لأنها تدل على المبالغة والتعظيم في نحو عَلَّامة ونسَّابة، والأب والأم مَظِنَّةُ التَّعظيمِ[2]، وبكل حال "لم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعلم الفائقِ وإن كان كذلك، بل أبرز نفسَه في صورة رفيقٍ له، يكون أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أسنى المطالب، مُنَجِّياً عن الضَّلالِ المؤدي إلى مهاوي الرَّدَى والمَعَاطِب"[3]، ثم ثَبَّطَه من طريق الشرك بتصويره في أقبح صورةٍ: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ ثم صرح بخوفه عليه

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٣.

(٢) انظر روح المعاني ٦/ ٣٧٠.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٣١٣.

﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ وكل ذلك يدل على لين جانبه معه وشفقتِه عليه ورحمته به، لقد بذل جهداً عجيباً عليه السلام ﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [النحل: ٩٣]، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]!

ولما أعرض الوالد وهدَّده بالقتل رجماً، وثنّى بالطَّرد والإبعادِ: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم]، فلم يَزِدْ عليه السلام على أن: ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم]. فمن حِلمه عليه السلام ولين جانبه لأبيه أن كانت متاركتُه لأبيه مشوبةً بالإحسان والشَّفَقَة، مع أنه في مثل هذه المواقف إذا كان الشَّابُ مستغنٍ يرى أنه مظلوم، والحميَّة دينية، فقد تعلو الأنفاس! وتغلي الدماء، وتضطرب القلوب!

فيا شباب الإسلام لتكن لكم في أولاء العظماء أسوة، لنعامل أهلينا بالرحمَةِ واللين والشفقة، لنصبر عليهم، لندعو لهم، فإن في ذلك الخير العظيم لنا أولاً ثم لهم كذلك إن علم الله من قلوبهم خيراً.

تنبيه: ليس من اللين أو الرفق المندوب تغيير الشَّرْع، أو كتمُ الدِّين، أو تسهيلُ الخِلاف في الأصول إرضاءً لأحد، أو طمعاً في إسلامه، بل الحقائق الشرعية تعرض كما أنزلها الله، لكن بالأسلوب المناسب، وهذا معنى ظاهر في نداءاته السابقة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، ﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بل قال له كما في الآية الأخرى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام]، فافطن لهذا وفرِّق بين تغيير المادة المعروضة، وأسلوب عرضها، أما الأول فليس من الرفق أو اللين المندوب إليه، بل هو من تحريف الكلم عن مواضعه، ومن الركون إلى الظالمين، ومن أنواع موالاتهم، المتوَعَّدِ عليها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، أما أسلوب عرضها فالحكمة أن يكون لكل حال ما يناسبها، فخطيب المِنْبَرِ، غير المُخَاطِبِ الناصح، والرفق مطلوب منهما لكن لهذا نوعٌ وهذا نوع، والحكمة وضع الشيء في موضعه، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

طبائع النفوس شتى ولها أبواب خير تناسبها

وفي هذا المقام أنبه إلى أن صفات الناس تتفاوت في اللِّينِ والشدة، ولكل صفةٍ حالٌ تناسبها، وأناسٌ تستحقها، والرِّفق واللين هو الأصل في الدعوة؛ بَيْدَ أن الغِلظة والشدَّة مطلوبةٌ ولا سيما في جهاد الكافرين والمنافقين، وفرق بين مقام الدعوة والترغيب، ومقام الجهاد والانتصار للدين، فراع هذا، فالشأن كما قال الأول:

ووضع النَّدى في موضعِ السَّيفِ بالعلا

مضرٌ وضع السيف في موضِع النَّدى!

ومن سياسة النفس الحكيمة أنك إن وجدت منها طبعاً فيه حِدَّةٌ وميلٌ للغضب صَرَّفتَه في مراغمة أعداء الله، وإن وجدت فيها طبعاً ميّالاً للِّين والشفقة، فاصرفه في دعوة المسلمين إلى الخير وتحذيرِهم من الشَّرِ. والناس فيهم مُيولٌ مختلفةٌ وطباعُ شتى، والموفَّق من صَرَفَ طبعَه إلى عمل يلائمُه وَفق الشريعة، ولنا في رسل الله وأنبيائه أسوة، وفي الحديث -وإن كان فيه ضعف يسير- عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى»؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم، واستَأْنِ بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضْرِب أعناقَهم، قال: وقال عبد الله بن

رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً، قال: فقال العباس: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لَيُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ فيه، حتى تكون ألينَ من اللَّبنِ، وإن الله ليشُد قلوبَ رجالٍ فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارةِ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ﷺ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]، أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحدٌ إلا بفداء، أو ضرْبَة عنق»[1].

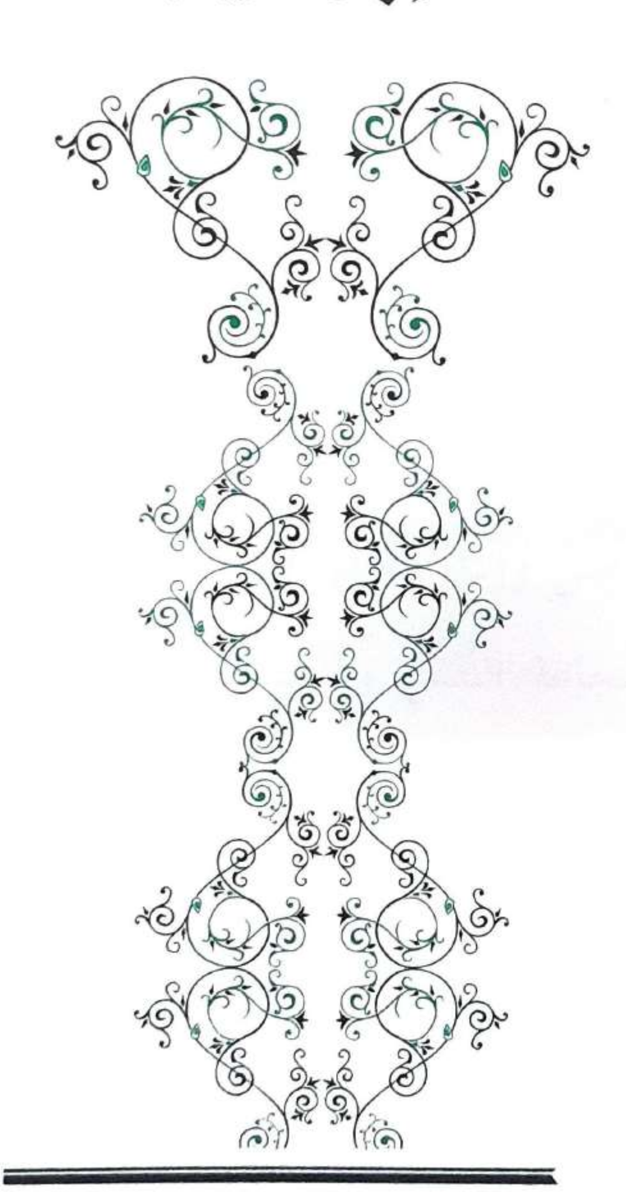
---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٦٣٢)، والبيهقي في السنن (١٣٢٢٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٨٤٥)، وغيرهم ورجاله ثقات إلاّ أن في سنده انقطاعاً يضعفه.





جماع الأخلاق الحسنة كانت لإبراهيم عليه السلام



جماع الأخلاق الحسنة كانت لإبراهيم عليه السلام

ملك إبراهيم عليه السلام جماع حسن الخلق، وقد ذكر بعض أهل العلم أن للخلق الحسن أركاناً أربعةً ولابن القيم كلام جامع في المدارج يقول فيه: "حُسن الخلق يقوم على أربعة أركانٍ لا يُتَصَوَّرُ قيام ساقه إلاَّ عليها:

7- الصبر، ٢- والعفة، ٣- والشجاعة، ٤- والعدل.

فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكفِّ الأذى، والحلمِ والأناة والرفق وعدمِ الطَّيْشِ والعجلة.

والعِفَّة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كلِّ خيرٍ، وتمنَعُه من الفحشاءِ والبخل والكَذِب والغِيبَةِ والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النَّفسِ وإيثار معالي الأخلاقِ والشِّيَم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النَّفسِ وقوتُها، وعلى إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

وهو حقيقة الشجاعة، وهي مَلَكَةٌ يقتدر بها العبد على قهر خصمِه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسُّطِه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقِحَةِ، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب،..."[1]. وقد كان إبراهيم عليه السلام منزهاً عن هذه، متحلياً بالأخلاق العالية، وقد مر معنا الحديث على تلك الخصال، وحسبك قول الله تعالى في الثناء عليه: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالاقتداء بالأنبياء فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وبإبراهيم عليه السلام خاصة، فَلْنَقْتَدِ بسيرته ولنتأمَّلها، ولنعرض أخلاقنا على أخلاقه، ولنستدرك الخلل؛ لننال العِزَّةَ والرِّفعَة في الدارين، والذِّكرَ الحسن، ولنخرج بالأمة إلى ما ينبغي أن تكون عليه!

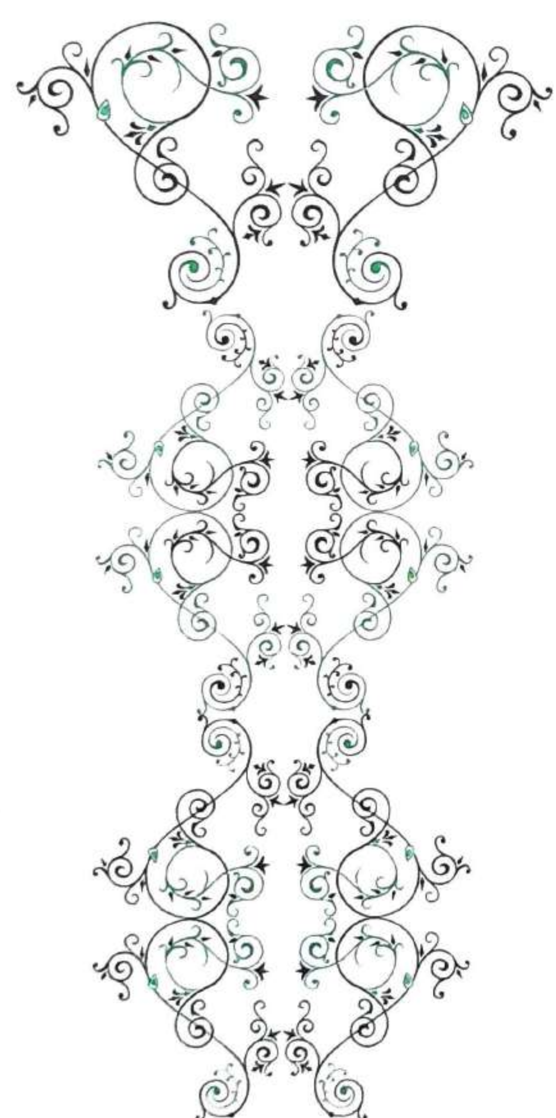
إن أمّتنا تحتاج إلى شجاعة إبراهيم لتنتَفِض ضِدَّ هذا الظلم الذي

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٠٨.

تعيشه، ولاسيما ظُلم القُوى الكبرى ومنها الدول المحتلةُ الجاثمةُ على بعض أراضي الأمَّة، كما تحتاجُ أمتنا إلى حكمةٍ وصبرٍ وعلم، لإصلاح أوضاعها، لا إلى تهوّرٍ أو تعجّل، ولا إلى ذلّ أوجُبْن وخَوَر، ولا إلى تبعيّة أوعَمَالة، وإن مما يؤسف له وجود هذه الأصناف فيها، ولله كم أخَّرت مسيرَةَ التصحيح والإصلاحِ!

تحتاج أمَّتُنا أن يتحلى بنوها بالعدل، العدل مع كل شيء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠]، وهذا عام، كما أمر بالعدل في القول فقال عز من قائل: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وأمر بالعدل ولو على حساب النفس أو أقرب قريب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء]، ما أحوجنا إلى العدل في وقتٍ كَثُر فيه الظُّلم، والبغي، والطغيان، والعدوان، أما مجابهة الظلم بظلمٍ والبغيِ ببغي فلا تصحح

إبراهيم عليه السلام والبلاء




إبراهيم عليه السلام والبلاء

كشأن رسل الله وأوليائه كان لإبراهيم عليه السلام حظٌّ وافرٌ من الابتلاء العظيم، الذي يرفع به الله درجاتِ عبادِه الصالحين، ويُكَفِّرُ به سيئات المذنبين.

والابتلاءُ سُنّة ماضية في العِباد، فمنهم من يثبُت فتكون له الدرجات، ومنهم يفتنَه الابتلاءُ بالخير أو بالشرِّ.

ولله فيه حكم فمنها تميُّزُ الصادقِ من المنافق، ومنها رفعةُ درجات أوليائه، ومنها لجَأُ العبادِ إلى ربهم ومولاهم، وقد تظاهرت النصوص مبيِّنة أن الابتلاء ملازمٌ لأهل الحقِّ وأنَّ النَّاس يُبتَلَون بحسب إيمانهم فمن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت]، وفي سورة البقرة: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ

﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ وفي آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وفي التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وروى الترمذي وغيُره عن سعد ﷺ مرفوعاً: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأَمْثَلُ فالأمثَلُ»[1]، وفي صحيح البخاري عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ قال: فجلس محمراً وجهُهُ، ثم قال: «والله إن من كان قبلَكم ليؤخذ الرجل فيُمْشَطُ بأمشَاطِ الحديد ما بين لحم وعصب ما يصرفُه ذلك عن دينه، ويؤخذ فتحفر له الحفرة فيوضع المِنشار على

(١) رواه أحمد في المسند (١٤٨١)، والترمذي في سننه (٢٣٩٨)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة (٤٠٢٣)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٠٠)، والحاكم في مستدركه (١٢٠) وصححه، وانظره في السلسلة الصحيحة للألباني (١٤٣).

رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه عن دينه، وليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلاَّ الله ﷻ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1]، وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب أن يكون إبراهيم عليه السلام من أعظم الناس ابتلاءً فهو خير الناس بعد محمد ﷺ، وقد ثبتت الأخبار بابتلاءات عظيمة وقعت له، لو ابتُلي أحدنا بواحدةٍ مما ابتُلي به إبراهيم فصبر وثبت لكان له شأن، فكيف بمن ابتُلي بتلك الابتلاءات العظيمة، وقد صبر فيها عليه السلام أجمل الصبر، وتجاوزها بخير ما يُمكن أن تُتجاوز به، وهنا أنبه إلى أنه ليس الشأن في الابتلاء! فالابتلاء يعرض لكل الناس، لكن الشأن فيمن يثبت ويجتاز الاختبار، ثم الناس في اجتيازهم درجات، ليسوا على مرتبة واحدة، وقد أحرز إبراهيم عليه السلام أعلى تلك الدرجات.

مما ابتلي به إبراهيم عليه السلام

ومما ابتلي به عليه السلام ما يأتي:

أولاً: ابتلاؤه بالتكليف وهي الكلمات المذكورة في سورة البقرة

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٦١٢).

فقام بها حق القيام، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة]، اختبر الله إبراهيم بما شرع له من تكاليف، فأداها وقام بها خيرَ قيام، حتى استحق المدح بذلك: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم]، وفَّى ما أمره الله جلّ وعلا به، وهنا قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، والمعنى: كَمّل وأتم، ولم يَنقُص مما كُلِّف به شيئاً، وقد كُلِّف عليه السلام بأمور عظام، كذبح ولده، وترك زوجه ورضيعها، بالإضافة إلى الرسالة وأعبائها، وحسبك مناظراتها، وتبعاتها.

ثانياً: ابتلاؤه بالتكذيب والسُّخرية والوعيدِ، ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، وفي التنزيل: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات]، اتهموه بالتعدي والتجاوز: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء]، هدَّدَه حتى أقرب الناس إليه نسباً: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم]، وقد كانت لإبراهيمَ مواقفُ مع قومِه عظيمةٌ ومجاهداتٌ ومناظراتٌ، أُعْرِض في القرآن عن

ذِكر حال قومه فيها وما أجابوه وما قالوه، ولو تأملتها عرفت أنَّه قد ناله عليه السلام من الأذى شيءٌ كثير، وماذا تتوقع من قوم لايرجون لله وقاراً، متعصبين، أُفحِموا في مناظرات متعاقبة، وماذا يُتَوقع من مَلِكٍ ظالمٍ جبَّارٍ أُلقِمَ الحُجَج أحجاراً، ماذا يقول وماذا يصنع! لقد أعرض الله تعالى في القرآن الكريم عن ذكر هذا لأنه لايستحق أن يذكر، فليس وراء الكفر والشرك ذنب، كما أن سوء الأدب الذي قُوبل به الأنبياء عليهم السلام قد أُجمل في نحو قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الطور]، وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران]، وإبراهيم عليه السلام من جملة أولئك، بل بلغ بقومه حَدُّ الرغبة في أذاه أن بنو له بُنيَاناً لم يُبْنَ مثله قط لرجل واحدٍ، وأوقدوه ناراً ثم قذفوه فيه! ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات]، وهذا من الابتلاءات العظيمة أيضاً، تآمُرُ قومِه على رميه في النار! ويا لله! انظر إلى ثباته وقوة جنانه، ما غيّر موقفه بل بقى ثابتاً صلباً شجاعاً عليه السلام، حتى أثناء التنفيذ،

وتأمل ما روي من قوله لجبريل: (أما إليك فلا)[1]!

ثالثاً: ومن الابتلاء ظُلم ذوي القربى، وعداوة أهلِ محبته الجبلية:

وظُلْم ذوي القُربى أَشَدُّ مَضَاضَةً   على المرءِ من وقعِ الحُسَامِ المهَنَّدِ

فقد كان والده آزر فيما ذكره المفسرون بل قصه الله تعالى في القرآن على الكفر، بل ذكر أنه كان مقرباً من النمروذ، وأنه صانع أصنامهم[2]، والمقصود أن آزر جابه إبراهيمَ عليه السلام بالتكذيب، وتوعده بالرجم، وأمره بالهَجْر، مع إشفاقه عليه السلام عليه، ومحاولته هدايتَه، ولهذا وقع في النُّفوسِ عظيم، أن تأتيك الإساءة ممن تميل إليه وترجو الخير له! وزاد على ذلك كونه على الحَقِّ وحيداً فقد وُلد في مجتمعٍ جاهلي كافرٍ يعبد الأصنام، فعاش غريباً بين أهله! قابضاً على الجمر من دونهم! ولا يشعر بهذه المعاناة إلّا من رأى وجرّب! إن ابتلاءات المال والنفس لتهون عند مقارنتها بمثل هذا الابتلاء، فعندما يلتفتُ الإنسان ويجد

---

(١) تقدم وانظر ص٧٧ من هذا الكتاب.

(٢) جاء بعض ذلك في آثار مروية أوردها ابن جرير وغيره انظر تفسيره ٩/ ٣٥٩، وانظر تفسير القرطبي ٧/ ٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم (١٥٦٨٩)، (١٥٦٩٥).

والده كافراً، ويحاول أن يهديه، ويدعوه، وأبوه يهدّده ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم]، يدرك عظمة البلاء الذي عاناه، وعظمة الصبر الذي صبره عليه السلام.

رابعاً: من الابتلاءات التي تعرَّض لها إبراهيم عليه السلام أنّه لم يرزق الذرية إلاّ على كبر، فتأخر الولد حتى بلغ من الكِبَر عتياً، كما قال الله جلّ وعلا مخبراً عنه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]، قال المفسرون رزق إسماعيل بعد أن سبع عشرة ومائة سنة(١)، وهذا أمرٌ ليس باليسير، وإن كان الحديث فيه سهلاً، ولكن مع قليل من الفطنة والتأمّل يظهر لك أثر تأخر الولد على النَّفس، وأما المعايشة لهذه الحقيقة فشيءٌ صعبٌ جدّاً.

خامساً: وممّا ابتُلي إبراهيم عليه السلام به أمره بترك زوجته وابنه الصغير

(١) ورد ذلك عن بعض السلف كسعيد بن جبير انظر تفسير ابن جرير ١٣/ ٧٠٢، وقيل غير ذلك انظر تفسير البغوي ٤/ ٣٥٧.

الرَّضيع بوادٍ غير ذي زرع وليس عندهم أحدٌ.

وإني سائلك: هل تستطيع أن تضع زوجتك في بلادٍ غريبة ولا أقول: بوادٍ غير ذي زرع؟ لا شك أن هذا عسير عليك، ولو ألزمت به لكان من جملة الابتلاء! وإذا كانت هِجرة الكبير عن وطنه، وسفره عن أهله وبلده ابتلاءً، فكيف بمفارقة الصغير إلى أرض لا أنيس بها ولا جليس؟ فكيف إذا كان هذا الصغير طفلاً رضيعاً ما جاء إلاّ بعد أن بلغ أبوه مائة عام أو نحوها؟! بلاء مبين تلقته تلك الأنفس المؤمنة بالرضا والتسليم، أما إبراهيم عليه السلام فامتثل وذهب بالطفل الكريم، وأمّه عليهما السلام إلى حيث أمره ربُّه، وأما الأمُّ المباركة فسَلَّمَت واستسلمت لأمرِ ربِّها، بل أحسنت الظن بالله كما في الحديث: لما «قَفَّى إبراهيم منطلقاً، تبعته أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيِّعنا، ثم رجعت»[1]، وفي هذا دليل على صبرها وثباتها ويقينها بالله عز وجل.

(١) حديث ابن عباس رفعه في صحيح البخاري (٣٣٦٤).

سادساً: ومن أعظم البلاء امتحانه بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، إنه ابتلاءٌ يهزّ الجبال، فيا سبحان الله! رجلٌ يُحرَم من الولد حتى يتجاوز المائة، ثم يُرزق بهذا الابن وما أن يفرح به، حين بلغ معه السعي حتى يؤمر بذبحه! إنّ الأمرَ عظيمٌ، يَصعُب أن يُصوَّر في كلمات؛ وحسبنا قول الله العظيم في وصف ذلك: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات]، وذلك لما ذكر خبره: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات].

بلاء مبين ومع ذلك فقد تجاوزه الرجل الإمام الأمة إبراهيم عليه السلام، إن هذا لهو النجاح والفلاح العظيم، وهكذا ما من امتحان تعرض له إلاّ وتجاوزه عليه السلام بامتياز، ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ ﴾ [البقرة:١٢٤]، ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم]، ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات].

عاقبة الثبات عند المحنة منحة

إنها ابتلاءات عظيمة، صبر لها عليه السلام، فلا غرو أنْ كان إماماً لمن بعدَه، وقدوةً للمؤمنين، وقد قال له رب العالمين: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وتلك عاقبة الصبر واليقين، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة]، أما إبراهيم فقد تميز في الإمامة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، فلنأتسي به عليه السلام في صبره وبلائه البلاء الحسن، ولنعلم أن عاقبة كل صبرٍ على بلاء حسنة، وتأمل ذلك في أخبار إبراهيم عليه السلام.

ابتلي بذبح ابنه وحيدِه في حينها فأعقبت البلاءَ مِنحةٌ، وبقي الذبح نِعمةً! نعم نعمةٌ على القانع والمعتر والبائس الفقير، بل سائر الناس، منها يَطعمون، ويُطعمون، والله ربهم يشكرون.

ابتُلي بتكذيب الناس له أوّل أمره، فجعل الله له لسان صدق في الآخِرين عند الأمم أصحابِ الشرائع السماوية جميعاً، كلِّهم ينتسب إليه ويثني عليه، فجميع المسلمين واليهود والنصارى يتولونه، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران]، بل حتى المشركين يزعمون أنهم على ملة أبيهم إبراهيم!

ابتُلي بِفُرقة الأهل والأوطان، فأبدله الله أرضاً خيراً من أرضه، الأرض التي بارك الله فيها للعاملين، ثم ابتلي بفُرقة زوجه، وابنه إسماعيل، بتركهما في أرض مجدبة قاحلة غير ذات زرع كما قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، فأصبح هذا الوادي أفضل بقعةٍ على وجه الأرض، تُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدن الله! لا إله إلا الله، تهوي إلى حيث الوادي أفئدة الطَّيِّبين، وتحنُّ إليه قلوبهم، يأتيه الناس رجالاً وركباناً من كلِّ فجٍّ عميق، فما أعظم المنحة التي أعقبت المحنة، ما أعظمها وقد تعدت بركتها إبراهيم وهاجر وإسماعيل عليهم السلام لأمم وخلائق لا يحصيهم إلاّ الله تعالى من بعدهم.

ابتلي بإلقائه في النار وسعى في إعدامه -كما يقال[1]- مجتمع بأسره، حتى ذكر المفسرون أن المرأة كانت إذا أرادت أمراً، نَذَرت أن تجعل حطباً في النار التي يُزمع بها إحراق إبراهيم عليه السلام[2]، وإذا أراد أحدٌ أن يتقرّب لآلهتهم وأصنامهم؛ جاء بحطب وفاءً للأصنام لإحراق إبراهيم، أرادوا أن يفنوه بقتله شر قِتْلَة، فماذا كانت العاقبة؟ كانت أن بقي ذلك الفتى وعاش عمراً مديداً ناهز المائتي عام في قول كثيرٍ من المفسرين[3]، بل رزقه الله من الذرِّية من قرَّت به عينه، وامتدت ذريته

---

(١) لأنه في حقيقته قتل لا إعدام فالأوراح تبقى والأجساد تبعث.

(٢) مروي عن السدي انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٧٢٣٥)، والبغوي ٥/ ٣٢٦.

(٣) ورووا في دخول ملك الموت عليه أخباراً، قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٠١: "..عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارا كثيرة الله أعلم بصحتها، .. قالوا ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين، وقيل وتسعين سنة"؛ أي مائة وخمس وتسعين، انظر الدر المنثور ٨/ ٣٣٨، وقيل غير ذلك وأثبت ما ورد عن أبي هريرة مرة مرفوعاً ومرة موقفاً يدل على وفاته بعد بلوغ المائتين انظر مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٤٦٦)، وصحيح ابن حبان (٦٢٠٤) وصحح رفعه، ومستدرك الحاكم (٤٠٧٦)، وشعب الإيمان للبيهقي (٨٢٧٠) والذي بعده، وهو في الموطأ، وانظر كلام القرطبي عليه في تفسيره ٢/ ٩٨، وابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٢٠١، وابن

من بعده، وجعل الله فيهم النبوة والكتاب، ورأى منهم في حياته إسماعيل وإسحاق وعد الإخباريون له من الأبناء غيرهم، بل رأى من وراء إسحاق يعقوب، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧]. أما النار التي أعدوها لقتله قِتلة بشعة، فغدت كرامة له، برداً وسلاماً عليه، ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات]، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]، قال بعض المفسّرين: لولا أنّ الله قال للنار ﴿وَسَلَٰمًا﴾، لجَمَدَ إبراهيم من شدّة البرد، لكنه قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾، ليس فيه ضرر[1]؛ فغدى وكأنّه في حديقةٍ غنّاء، في برد وسلام.

إذا ابتليت فاصبر فإن مع العسر يسرا

إننا في زمن قد كثرت فيه الفتن، وحال كثير من الناس كما قال الله

حجر في الفتح ١١/ ٨٩.

(١) منقول عن بعض السلف كعلي وابن عباس رضي الله عنهما انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٤٥٤٤)، وابن جرير ١٦/ ٣٠٧.

عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج]، فوصيتي بالصبر، إنما النصر مع الصبر! ألم تر العاقبة الحميدة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما صبر؟ فإن أردت أن تلحق به فإيَّاك والعجَلة، فقد حذَّر منها النبي ﷺ، وقال لمن جاءه يستنصر وقد كان المسلمون يُسامون العذاب، قال له: «ولكنكم تستعجلون»[1]، إذا ابتُليتَ فاصبر؛ فالفرج آت قريب، وإن لم تنكشف الغمة فستجد برد اليقين مع الصبر، ستجد نوراً وسُروراً وحُبوراً عظيماً، ثم الفرج آت آت! وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾ ﴾ [الشَّرح].

ومن تدبر القرآن الكريم وجد اتصالاً واضحاً بين العسر واليسر، بين الفرج والشدة، يظهر ذلك لمن تدبر سير الأنبياء، ولا سيما سيرة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسيرة محمد ﷺ، وسيرة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسيرة إبراهيم ﷺ التي نحن بصددها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خبَّاب بن الأَرَت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قد يُبتلى المؤمن بالمرض، قد يُبتلى بالسجن، قد يُبتلى بالفَقْر، قد يُبتلى بابتلاءات أخرى كثيرة، وعليه أن يعلم أن الله لا يريد به إلا خيراً، عليه أن يعلم أن الإيمان لا يتحقّق إلّا بالثبات في هذه الابتلاءات، وكفى بها نعمةً إن ثبت! إنها سُنَّة المؤمنين من قبله ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]، إنها الجَادَّةُ التي يتميز بها المخلص ممن يعبد الله على حَرْفٍ على شك على حال واحدة يرضاها هو، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج]، فاحذر ياعبد الله أن تكون من هؤلاء! واحذر كذلك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت]، أعاذني الله وإياك من ذلك. وَطِّنْ نفسَك على الصبر وبادر بالأعمال «فتناً تَدَعُ الحليمَ

حَيْرانًا»[1] «فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينَه بعَرَضٍ من الدنيا»[2].

واعلم أن هذا شأن الدنيا، ابتلاء واختبار، كما قال ربنا سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، فوَطِّن نفسك على البلاء، واللجأ إلى الله فيه، وبادر إن نَزَّل بساحتك إلى العبادة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة]، واعلم أنه طريق الصالحين من قبلك، وسلِّط على الأَسى الأُسا، اقرأ سير الأنبياء والمرسلين، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، اقرأ خاصة سيرة نبينا محمد ﷺ، واقرأ سيرة إبراهيم عليه السلام.

اقرأ سِيَرهم لتطمئن ولتعلم أنَّ ما أصابك ليس بشيء مقارنة بما أصاب هؤلاء، اقرأ لتعرف كيف ثبتوا في الطريق، وكيف صبروا على

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المشقّة والأذى؟ اقرأ في أخبار الممتَحَنِين والمبتلَيْن لتعلم أنَّك في عافية! اقرأ لتوطِّن نفسك على ما أنت فيه وتصبِّرها، اقرأ لتعلم أنه إذا سلم لك الدين فقد سلم كلُّ شيء! أما إذا ضاع الدين فقد ضاع كل شي! اقرأ لتعلم علم اليقين بأن مع العسر يسراً، وأن العاقبة للتقوى!

الفرج قريب والعاقبة حميدة

وتأمّل أخا لإسلام أحوال من جاء في هذه الأُمَّة من الأئمة، كيف امتُحِنوا وكيف ثبتوا، وكيف كانت عاقبة أمرهم خيراً، ألم يُبتلى الإمام أحمدُ رحمه الله في فتنة خَلْق القرآن بالسجن والتعذيب بالقَيْد والجلد، والتهديد بالقتل والتنكيل؟ فكان ماذا؟ ثبت ثباتاً عجيباً وكانت العاقبة أن عرف بإمام أهل السنّة، وإن لنرجو له يوم القيامة خيراً.

ومن سار على درب الأئمة وصل إلى حيث وصلوا!

فلا تجزع إذا أعسرتَ يوماً فقد أيسرت في الزمن الطويلِ
ولا تيأس لأن اليأس كفرٌ لعلّ الله يُغني عن قليلِ
ولا تَظْنُنْ بربّك ظنّ سوءٍ فإنّ الله أولى بالجميلِ
رأيتَ العُسر يتبعه يسارٌ وقول الله أصدقُ كلِّ قيلِ

إن نزلت بساحتك نازلة فقل قول الأول:

عسى فَـرَجٌ يأتي من الله إنــه ... لــه كـل يــومٍ في خليقته أمرُ

ولآخر:

إذا ابتُليتَ فثِق بالله وارضَ بهِ ... إنّ الذي يكشِف البلوى هو اللهُ

اليـأس يَقطعُ أحياناً بصاحبه ... لا تيـأسَنّ فإنّ الصانــعَ اللهُ

يا صاحب الهَمّ إن الهَمَّ مُنفرجٌ ... أبشر بخيرٍ كأنْ قد فـرَّج اللهُ

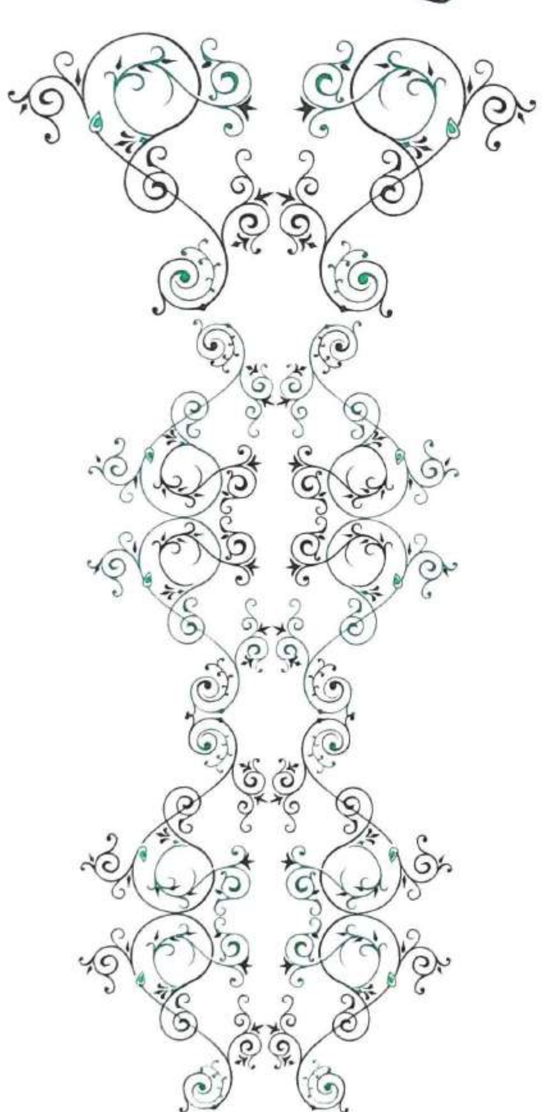
والله أصدقُ قِيلاً وأحسنُ حديثاً: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح]، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور]، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه]، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وليست هذه هي الجائزة الكبرى أن يرث المؤمنون الصابرون الأرض كلَّا! بل أن يجمع لهم معها الأخرى،

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص]، فإن فاتت أحدَهم في الطريق الأولى فليست بشيء إذا ما قيست بالجائزة الكبرى في الآخرة، والله لا يضيع أجراً.

فخذ بالأسباب؛ وأحسن الظنّ بربّك، وثق بوَعْده، وأمِّل خيراً، واملأ القلب ثقةً، وحذارِ حذارِ من سوء الظن بالله، ألم تسمع قول الله ﷻ! ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فُصِّلَت].

وأخيراً لا يفوتني التنبيه في هذا المقام إلى أن الابتلاء قد يكون كذلك بالنِّعم، فالفتن أنواعٌ وأشكالٌ وألوانٌ، ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، فلا تحسب السَّلامة عافيةً على كل حال، فتدبر شأنك، واشكر ربك، وأدِّ حقه، واعرف فضله، وإلاّ فالسؤال عسير إنْ قُدِّرَ أنَّ النعم بقيت ولم تسلب! وتدبر ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم].

إبراهيم عليه السلام والدعاء





إبراهيم عليه السلام والدعاء

«الدعاء هو العبادة»[1]، كما في الحديث الصحيح، وجاء في رواية «الدعاء مخ العبادة»[2] وهي ضعيفةٌ والصحيح: «الدعاء هو العبادة»، والله سبحانه وتعالى قد سمى دعاءه عبادةً، حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر]، وقد أمرنا أن ندعوَه في أكثر من موضع كما قال جلَّ شأنه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]، فلا غرو أن يكون الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أول من يمتثل ذلك، وأولى من يعتني به، ويكون لهم معه شأن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، وأبو داود (١٤٧٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٢٩٦٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس رضي الله عنه.

[الأنبياء]، وقد ذكر الله تعالى في كتابه جملة من نداءات أنبيائه فقال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال عن ذي النون: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم]، ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء]، إلى غير ذلك من دعوات الأنبياء المباركات المثبة في القرآن الكريم.

من دعاء إبراهيم

وقد كانت لإبراهيم عليه السلام دعواته المباركة ونداءاتُه الطيِّبَةُ لربه وقد كان لها شأن، ولهذا ذكر الله تعالى في القرآن جملة من دعائه عليه السلام، ولعله لم يذكر لغيره من الأنبياء من الدعاء مثل ما ذكر له، وذلك لشرفه وشموله فمن ذلك:

الدعاء بقبول العمل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]، لم يكتفِ عليه السلام بالعمل مع عِظَم هذا العمل وهو بناء البيت؛ بل دعا الله راجياً منه القبول! وبعض الناس إذا عمل عملاً يسيراً قد يُصاب بالعُجب، ويظن أنّه مقبولٌ ولا شك! وينسى قول الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]! اعمل واجتهد في العمل واسأل الله الكريم أن يتقبله منك، كما كان شأن الخليل إبراهيم عليه السلام، في هذا العمل العظيم الذي هو بناء البيت العتيق، بل كان هذا شأنه في غيره، ألم يقل: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى .. ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم]، ثم يختم ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾! يدعو بالتوفيق للعمل ثم يدعو بقبول الدعاء، هذه والله الإمامة، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل]، وعلى سننه كان الصالحون: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون].

ومن دعائه عليه السلام الدعاء بطلب المغفرة والتوبة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى

وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة]، تأمل هذا يدعو الله أن يَتُوب عليه، وهو الذي لا يُذْكَر يوم القيامة -يوم تجد كل نفس ما عملت محضراً، يوم يتذكر الإنسان ماسعى، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى- لا يذكر غير كذباتٍ ثلاث، اثنتان منها في ذات الله! وقد مرَّ معنا أن سائرها معاريض[1]! ومع ذلك تدبر دعاءه بطلب المغفرة، والتوبة ولا غرو! إن كنت لا تبالي فهو يبالي إنَّه خليل الرحمن!

ومن دعائه عليه السلام الدعاء بأن يرزقه الله الولد قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الصافات]، قال الله تعالى بعدها: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات]، قال إبراهيم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]، بعض الناس إذا تأخّر عليه الولد أَشْغَل قلبه وأهله ونفسه بطلب العلاج في

---

(١) انظر ص١٢٦، و ص١٧٨، من هذا الكتاب.

كل مكان، وهذا أمرٌ لا بأس به، فلا أُحَرِّم ما أحله الله، ولا أمنع من الأخذ بالأسباب، ولكن ليسأل نفسه قبل ذلك: أبالله متعلِّقٌ قلبُه أم بهذه الأسباب المادية؟ الجأ إلى الله لتُنْظَم في سلك من قال فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان].

ومن دعاء إبراهيم عليه السلام الدعاء للذرية والأهل والأبناء بخيري الدنيا والآخرة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم].

ومن دعائه عليه السلام الدعاء للوالدين: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ

﴿ ... ﴾ [الشعراء]، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، وهذا قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

ومن دعائه دعاؤه للمسلمين: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

ودعاؤه بالثبات على الإسلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة].

ودعاؤه بمرافقة الصالحين: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. "ولفظ الصالحين يعم جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين، فيكون قد سأل بلوغ درجات الرسل أولي العزم نوح وهود وصالح والشهداء

والصالحين فجعل الصالحين آخِراً لأنه يعم، فكان تذييلاً. ثم سأل بقاء ذكر له حسن في الأمم والأجيال الآتية من بعده. وهذا يتضمن سؤال الدوام والختام على الكمال وطلب نشر الثناء عليه، وهذا مما تتغذى به الروح من بعد موته؛ لأن الثناء عليه يستعدي دعاء الناس له، والصلاة عليه والتسليم جزاء على ما عرفوه من زكاء نفسه"[1].

ومن دعائه ﷺ الدعاء بالجنة: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

والدعاء بالتفقه في الدين: ﴿..وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾، ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾.

والدعاء بالنجاة من خزي الآخرة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

وإجمالاً فإننا نجد في دعاء إبراهيم ﷺ الشمول، دعا لنفسه، ودعا لأولاده، ودعا لوالديه، ودعا للمؤمنين، دعا لك أنت أيها القارئ قبل آلاف السنين! فهلا اقتدينا؟ هلا دعونا لإخواننا؟ هلا جعلنا للمجاهدين نصيباً من دعائنا؟ هلا جعلنا للعصاة نصيباً في دعائنا بأن يهديهم الله؟ إنك إن دعوتَ لأخيك بظهر الغيب دعا لك

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/ ١٥٦.

مَلَكٌ، يقول: «ولك بمِثل»[1]! وإذا دعوتَ لأخيك بظهر الغيب كان ذلك أحرى بالإجابة لخُلُوصِ العمل من حظِّ النفس، وخلوص القلب من هواه ومرادِه، فحري أن يستجاب للمَلك فيك وأن تُكافأ بمِثل ما دعوت به.

الدعاء جادة الأنبياء

دَعَواتُ الخليل عليه السلام كثيرةٌ، فقلّ أن تمر سيرة إبراهيم في القرآن إلّا وتجد أنّ الدعاء ملازمٌ له عليه السلام، وقد تضمنت دعواته عليه السلام أنواعَ الذِّكرِ الثلاثة؛ ذكر الثناء، وذكرِ المسألة، وذكر الرعايةِ؛ أما ذكر الثناء ففي نحو قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾، ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وهكذا خاتمة كثير من الأدعية تتضمن ثناء على الله تعالى، وأما ذكر المسألة ففي دعائه السابق كثير منه، وأما ذكر الرعاية فهو الذي يذكر لتقوية حضور القلب ومن ذلك قوله: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، فليكن إبراهيم قدوة لنا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

في هذه السُّنَّة العظيمة سُنَّة الدعاء، فالموفقون من أنبياء الله ورسله قد سلكوا سبيله في الدعاء، كما سلك هو سبيل من قبله منهم، والمتأمل في الدعوات السالفات يلحظ التشابه بين الأنبياء في كثير من دعائهم: قال إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾، وقال يوسف: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾، قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾، وقال يوسف: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾، قال إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾، وقال نوح: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾، وقد سأل زكريا ربه الولد، وكذلك إبراهيم عليه السلام، وقد دعا إبراهيم لمكة، ودعا نبينا ﷺ للمدينة، ولو تتبعنا أوجه الشبه بين دعاء إبراهيم ودعاء محمد صلى الله عليهما وسلم لوجدناه كثيراً.

من آداب الدعاء

لنعلم أن للدعاء آداباً، وللإجابة وشروطاً، فمن شروط استجابة الدعاء: الثقة بالله جلّ وعلا، كما قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم

موقنون بالإجابة»[1] فلا بدّ أن يُستجاب للعبد ما لم يستعجل، كما بَيَّن الرسول ﷺ حال من يقول: «دعوتُ فلم يُستَجَب لي»[2]، وخذ مثالاً على الاستعجال الذي يقع فيه بعضهم:

بعض الناس يُصاب بمرضٍ؛ فيأتيه بعض الناس ويقول له: لو أنّك تعالجت بكذا. فيقول المريض: والله ما تركت شيئاً، حتى الدعاء جرّبته! لا يا أخي! الدعاءُ لا يُجرَّب، العلاجات التي في بيوت العَطَارَةِ وبعض العلاجات في الصيدلية تُجرَّب؛ فيمكن أن تنفع وقد لا تنفع، قد توافق الداء وقد لا توافقه، أمّا الدعاء فما يُجرَّب، بل يخشى أن يكون هذا سُوءُ ظن بالله جلّ وعلا، وسبب في تأخر الإجابة، فالمؤمن الموقن يثق في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [البقرة: ٦٠]، ونحوها من الآيات والأحاديث، ومن علامة ذلك عدم يأسه، واستمراره في الدعاء، وهذا ملاحظ في دعاء إبراهيم عليه السلام فقد كان يكرر الدعوة ومن ذلك قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم:٤٠]، وفي الآية الأخرى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم:٣٧]، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [البقرة:١٢٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]، ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح:٢٨] وفي آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢] وفي ثالثة: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦].

ومن شروط إجابة الدعاء ألّا يدعو بإثمٍ أو قطيعة رحم، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف]، فعدم الاعتداء على الآخرين في الدعاء من آداب الدعاء، فلتكن دعواتنا طيِّباتٍ مباركاتٍ في أمر دنيا والدين كما كان دعاء إبراهيم عليه السلام.

ومن شروط إجابة الدعاء: إطابة المَطْعَم والملبس، «رُبَّ أشعثَ أغبَر يمدُّ يديه إلى السماء يا ربُّ يا ربُّ، ومَطْعَمه حرامٌ، وملبسَه

حرامٌ، وغُذِي بالحرام، فأنّى يُستجابُ له»[1] أي: بعيدٌ أن يُستجاب له.

ومن المنهي عنه من الدعاء: أن يدعُو الإنسان على نفسه، أو على أهله، أو على ولده، أو على ماله، كما قال النبي ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم، ولا على أولادكم؛ فتوافقوا ساعة إجابة»[2]. وهناك من دعا على أولاده، فاستُجيب له، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

وماذا يضير الأب أو الأم الدعاء لأولاده بالصلاح عِوضاً عن الهلاك! ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام كم دعا لأولاده، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم]، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]، بل العجيبُ أن إبراهيم عليه السلام كان رحيماً بالناس كلِّ الناس حتى قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٣٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي﴾ ما شأنه؟ هل قال: فالعنه أو أهلِكه؟ لا، بل قال: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، سبحان الله! يرجو أن يصلح الله برحمته أحوالهم وهم عصوه وهو يدعوهم لما فيه مصلحتهم، ويتحمل العنت لأجل ذلك.

من أسباب إجابة الدعاء

مما يلحظ في دعاء إبراهيم عليه السلام استجابةُ الله تعالى له، فقد رزقه الولدَ بعد دعائه، وحرَّم مكة وبارك فيها بدعائه، وجعل النبوة والحكمةَ في ذريَّته بدعائه.

هذا ولم تزل دعوةُ الخليل سببَ فخرٍ لمن دعا لهم حتى بعد طول الأمد، يقول جرير مفتخراً على بعضهم:

قَومٌ لَهُم قد خَصَّ إبراهيمُ دَعوَتَهُ
إذ يَرفَعُ البَيتَ سوراً فَوقَ تَأسيسِ
نَحنُ الَّذينَ ضَرَبنا الناسَ عَن عُرُضٍ
حَتّى اِستَقاموا وَهُم أَتباعُ إِبليسِ!

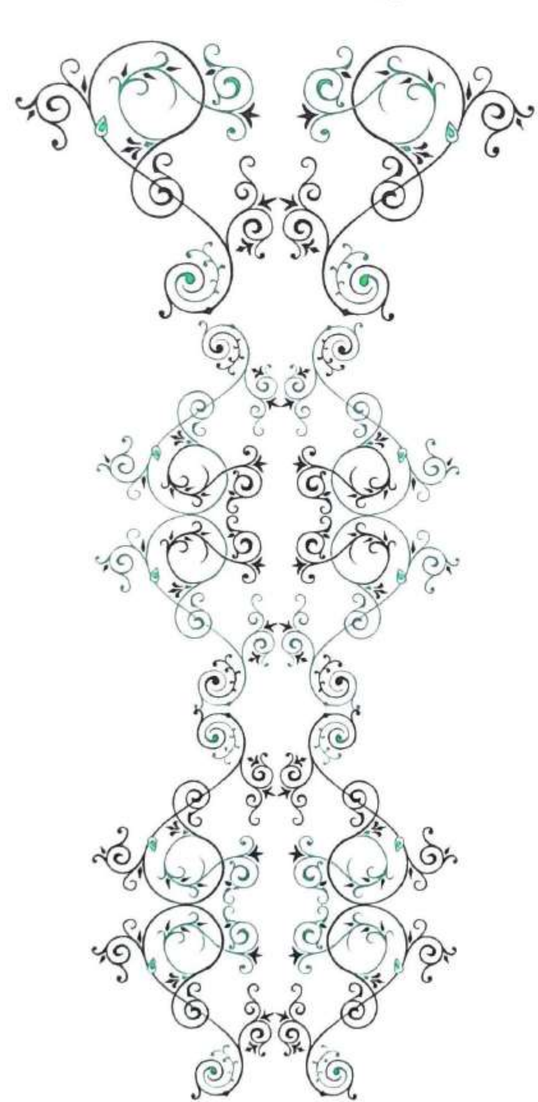
ولئن كان الدعاء مشروعاً في كل زمان وعلى سائر الأحوال، فإن

له أسباباً يكون بها أقربَ إلى الإجابة، وقد تتعلق تلك الأسباب بأحوال أو أزمنةٍ، فمن الأحوال التي يستحب فيها الدعاء بعض أحوال العبادة، كأن يكون الإنسان صائماً، أو حاجاً، أو ساجداً، وكذلك الأحوال التي تصحبها رقة في النفوس عادةً كحال المسافر، أو المظلومِ. ومن الأزمنة الفاضلة شهر رمضان، وثلث الليل الآخِر، وآخرُ ساعة من يوم الجمعة، وإذا صعد الإمام على المنبر. وأحياناً تجتمع للمرء الحالة والزمان الفاضل، كأن تكون في المسجد الحرام في يوم جمعة من رمضان وأنت صائم مسافر، وهذا لا يعني ألّا تدعو إلاّ في الأحوال والأزمان والأماكن الفاضلة، لكن عليك أن لا تفوت الفرصة إن سنحت، لعلّ الله أن يستجيب لك، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]، وفي الآية إشارة لأحد أهم أسباب الإجابة، وذلك في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ [البقرة:١٨٦]، فهذا سبيل الرشاد، وحري بالمؤمن المطيع أن يُوفق للإجابة، كما لا يليق أن يرفع المرء يديه مُتضرّعاً وهو يُعاند الله

بالمعاصي والآثام؟ مطعمه حرامٌ، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام فأنى يستجاب له!

إن باب الدعاء بابٌ عظيم، وهو العبادة؛ لأنه يجمع بين الخضوع والذلّ، ولذلك إذا دعوتَ الله جلّ وعلا؛ فادع بقلب حاضر، بقلب مُنكسر، راجٍ، صادقٍ، ولا تدعو وقلبك لاهٍ منصرفاً عن الله جلّ وعلا، فإن دعوت بقلب حاضر متأدباً متحرياً ما يجب للدعاء ولم يُستجَب لك؛ فلا تسيء الظَّنَّ بالله، بل تفقّد نفسك، فربما قام بك مانعٌ من الإجابة، وبكل حالٍ أنت غانمٌ، فإن الله قد يكفّ عنك بدعواتك شرّاً أعظم ممّا دَعَوت به، وقد يدّخرها لك إلى يوم القيامة؛ لتسعد بها وتفرح وتغتبط هنالك، فأبشر وأمل وابذل الأسباب واعلم أنك على خير.

إبراهيم عليه السلام
والأمن




إبراهيم عليه السلام والأمن

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠] ومن قضايا هذا الرجل الأُمَّة: قضية الأمن، أكتبُ هذا ونحن نعيش محناً في هذه الأيام، نعيش محناً وفتناً كقِطَع الليل المظلم، نعيش اختلال الأمن في كثيرٍ من بلاد المسلمين، بسبب أعداء الله؟ ويزيد المأساةَ إسهامُ بعض أبناء المسلمين باختلال الأمن في بلادهم، والأسوأ منه، تصور بعضهم أنّه مع إخلاله بالأمن في ديار الإسلام سيقيم دعوة وجهاداً، فسبحان الله!

بينما إبراهيم عليه السلام، لما ساق الله دعواته المباركات في أطول سياقتها وذلك في سورة إبراهيم ذكر ابتداءه الدعاء بتحقيق الأمن: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]، ثم تلت ذلك دعوات مباركة أخرى. قال بعض المفسرين: "والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النِعم والخيرات، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلاَّ به، وسُئل بعض العلماء الأمنُ أفضل أم الصحة؟ فقال:

الأمن أفضل، والدليل عليه لو أن شاةً انكسرت رجلُها فإنها تَصِحُّ بعد زمان، ثم إنَّها تقبل على الرَّعي والأكل، ولو أنها رُبِطَت في موضعٍ ورُبط بالقرب منها ذئبٌ فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت! وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد"(١).

إننا بحاجة إلى أن نقف مع هذا الموضوع وقفةً تناسب الحالة التي نعيشها من أجل أن نُبْقِي على نعمة الأمن في قلوبنا، ثم بلادنا وأوطانِنا.

فلنعدْ إلى سيرة إبراهيم عليه السلام لِنرى حرصَه على استقرار الأمن في المجتمع كلِّه، ومفهومُ الأمنِ عند إبراهيم مفهومٌ شامل، ليس قاصراً على بعض معانيه التي يظن أناسٌ انحصارَ معنى الأمن فيها! فبعض الناس إذا ذَكَر الأمن يتصوّر أنَّ الحديث يتعلّق بمنع السرقات، أو القبض على المجرمين، أو منتهكي الحقوق المادِّيَّةِ، ولا شك أنّ هذا من الأمن، ولكن الأمن معنى أعظم من ذلك، وأشمل وأوسع. الأمن

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٠٢-١٠٣.

عند إبراهيم ﷺ هو الأمن الذي يجب أن نعلّمه أبناءنا بل أن نعلّمه لرجال الأمن؛ فبعض رجال الأمن مفهوم الأمن عنده ناقصٌ، فقد تجد رجلَ أمنٍ يستخفُّ بالأنظمة، ولا يعمل باللوائح، مهمَّته حفظ الأمن، وهو أول مَن يخرق الأمن! ولو رأى الناسُ رجلَ أمن يسرق، لاستغربوا ذلك واستنكروه؛ رجل أمن يسرق؟! لو رأى الناس رجل أمن يلبس البدلة العسكرية ويعتدي على البيوت، فماذا سيقولون؟ أهذا رجل أمنٍ؟ ولذلك تجد أنّ أجهزة الأمن تُقيم على المُخِلِّين بوظائفهم من منتسبيها أشدّ العقوبات، كيف يكون رجلَ أمن ويسرق أو يعتدي على البيوت؟ وهذا معقول المعنى فقد جمع هذا بين الجريمة والخيانة وهي جريمة أخرى.

لكن قد تجد كذلك رجل أمنٍ عقيدتَه فاسدةً، وقد تجد رجل أمن لا يُصلّي، قد تجد رجل أمن عنده ولاء لأعداء الله، فأيُّ رجل أمن هذا؟! ومثل هذه الشاكلة لا تجد لها رادعاً كتلك، مع أنها أولى من الفئة الأولى فذلك خان الأمانة، وهذا خان العقيدة العسكرية الإسلامية.

مفهوم الأمن الشامل عند إبراهيم ﷺ

والمقصود هو أن مفهوم الأمن الآن مفهوم قاصرٌ عند كثير من

الناس، بينما مفهوم الأمن عند إبراهيم ﷺ يشمل أنواعاً من الأمن الضروريَّة لاستقرار المجتمع، نتناول شيئاً منها فيما يأتي:

أولاً: الأمن الفكري.

في سورة الأنعام ذكر الله تعالى كلمته بعد مناظرة قومه، فقال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]، وفي هذا ربط ظاهر لمفهوم الأمن بالأمن الفكري في الاصطلاح المعاصر، أو ربط للأمن بالإيمان وسلامة المعتقد، فالأمن التام إنما هو لأهل الإيمان الذي لا يلابسه ظلم أو شرك أكبر أو أصغر، ولعل من نكات تعقيبه لما دعا ربه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ بقوله بعدها: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾، الإشارة إلى هذا التلازم بين الأمن الفكري وأمن البلدان، وهذا معنى معقول إذ كيف يرجى أن يتحقق الأمن في مجتمعٍ تنخر فيه عقائد المشركين وشرورُهم؟ كيف يتحقق الأمن في مجتمعٍ لا تسوده شريعة الإسلام العادلة؟ بل شرائع وضعية جائرة.

وأذكر بهذه المناسبة قصةٌ عجيبة وقعت في إحدى الدول العربية، إذ قُبض على مجموعةٍ من الشباب الأخيار من قِبل بعض الأجهزة التي تسمى أجهزة الأمن! فبدأ التحقيق معهم، فقيل لهم: مَن هو رجل الأمن الأول في بلدكم؟ وكان رجال الأمن يتوقّعون أن يقولوا: هو المحافظ في البلد أو رئيس البلد، أو هو مدير الأمن العام. فأجاب هؤلاء الشباب، قائلين: رجل الأمن عندنا هو الشيخ فلان! داعيةٌ مشهور، له قَبول في بلده؛ فتعجّب رجال الأمن؛ قالوا: الشيخ فلان رجل أمن؟ قالوا: نعم. قالوا: كيف ذلك؟ قالوا: إنّ رجل الأمن العسكري مهمته إذا وقعت الجريمة أن يقبض على الفاعل، ومن النادر أن تُكتشف الجريمة قبل وقوعها، أليس كذلك؟ قال رجل الأمن الذي يحقق معهم: نعم. قالوا: فكم من جريمة حالَ الشيخ دون وقوعِها، بل كم أصلح من الناس قبل أن يقعوا في الجريمة؟

فإذا كان دور رجل الأمن أن يقبض على رجل المخدّرات؛ فهذا الشيخ اهتدى على يديه كثيرٌ ممن كانوا يستخدمون المخدّرات، وإذا كان رجل الأمن يقبض على السارق، أو يمنع وقوع السرقة؛ فهذا

الشيخ اهتدى على يديه عددٌ من السُّرّاق، وإذا كان رجل الأمن يقبض على من يعتدي على الحرمات؛ فهذا الداعية اهتدى على يديه أُناس، أصبحوا دعاة إصلاح في المجتمع، فأيُّهما أفضل؟ قال الضابط الذي يُحقّق معهم -وكان رجلاً عاقلاً-: صدقتم!

وهذا هو الأمن الحقيق لأنك إذا أمّنتَ العقول أُمِنَتْ الأجسام. وقد وجد العدوُّ في هذا العصر أن سبيله إلى زعزعة المجتمعات ومن ثم الاستحواذ عليها زعزعة الفكر، بعد أن كان الاحتلال الذي يسمونه الاستعمار في الماضي هو السبيل للتحكم في البلدان، فكم بلد من بلاد المسلمين بل من بلاد العالم احتُل وأصبح تابعاً لبريطانيا، أو لفرنسا، أو لأمريكا، أو لروسيا، أو ألمانيا، أو إيطاليا، أمّا اليوم فالملاحظ أن عدد المستعمرات أو المحتلات قليلٌ بهذا المفهوم، ولكن جاء احتلال العقول! وهو -الله- أخطر، ومن نظر رأى أن كثيراً من العقول في بلاد المسلمين احتُلَّت! ففتح أصحابها بلادهم لأعداء الله جلّ وعلا طوعاً! واغتر بذلك كثير من المسلمين، بينما في الماضي كان الاحتلال يُقاوم بالجهاد أو القتال ضد أولئك المعتدين، وبثورات وانتفاضات شعبية عامة، أما احتلال العقول فلا ينفر إلى حربه غير طوائف من الدعاة إلى الله، وطوائف من الخاصة.

والمقصود هو أن من أهم أنواع الأمن، الأمن الفكري، ورأسه الأمن العَقَدي، وله أثره في أنواع الأمن الأخرى كالغذائي الذي يأتي، وغيره، فإن البلاد إذا كانت مقيمةً لأمر ربِّها، منتهيةً عن ما نهاها عنه، بارك لها في أقواتها، وسائر شؤونها، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف].

ثانياً: الأمن الغذائي.

وهذا ضرب من الأمن تعرض له إبراهيم عليه السلام، يظهر ذلك لمن تدبر دعاءه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]، فقرن أمن البلد برَزْقِ أهله، وقال كما في الآية الأخرى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، وهذه مقومات حصول الأمن ،وذكر منها الرزق، وفي سورة النِعَم ذكر الله

تعالى أن قرية -قال المفسرون هي مكة[1]- كانت آمنة من الغارات والمَحَل، ثم ذَكَر من أمنها أن رزقها يأتيها رَغداً من كل مكان، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل]، كما ذكر سبأ وذكر ما كان فيها من الرَّغَدِ وتوفُّرِ الأرزاق، وقال: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سبأ]، فلما أعرضوا وظلموا سلبَهم الله ذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ].

---

(١) انظر مثلاً: تفسير عبدالرزاق (١٥١٠)، وابن أبي حاتم (١٣٥٣٠)، وابن جرير ١٤/ ٣٨٢، وابن كثير ٤/ ٦٠٧، والقرطبي ١٠/ ١٩٤.

وفي هذا بيان لارتباط الأمن الغذائي بالأمن الفكري أيضاً، فالظلم ومخالفة الرسل عليهم السلام، هو الذي سلبهم الأرزاق فسلبتهم الأمان.

ثالثاً: الأمن الاجتماعي.

ولإبراهيم عليه السلام إشارات إلى هذا النوع من الأمن كما في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فنُفوس الإنسِ مجبولةٌ على الأُنْسِ بالناس، لا يتم أمنها إلاّ بخلطة الأمناء منهم، ولا تقوم كثير من المصالح الدينية والدنيوية إلاَّ بالاجتماع، وكما يقال: الإنسان مدني بطبعه، يستوحش من العُزلة، فلا يأمن ولا تطمئن نفسُه إلاَّ في مجتمع آمن، ولهذا كان السَّجْنُ عقوبةً ومن أشده الانفرادي، حتى وإن كان يُغْدَى على السجين في سجنه بقوته ورزقِه، فلو قيل لفقير تخالط الناس وتسعى في رزقك، أو نسجنك في قفص من ذهب ونغدو عليك بالطعام في وقته لما اختار السجن الذهبي! فالمجتمعات المستقرة القائمة على التعاضد والتآلف والتحاب من أسباب الأمن، بخلاف المجتمعات المتنافرة التي يَتَحَيَّنُ أصحابُها

الفرصَ لانقضاض بعضهم على بعض! ولهذا قال: (أفئدة من الناس) ما قال جماعة من الناس، فالمطلوب اجتماع قلوبٍ مؤتلفة لا أخلاطٍ متنافرة، ثم قال: (من) ولم يقل أفئدة الناس! وذلك أن المجتمعات بحسب من فيها من المعادن، فهو قد طلب الكريمَ الجوادَ منها، وقد علم أن الكريم يجود بالنَّفيس، وقال: (تهوي إليهم)، ما قال تسكن أرضهم! والهَوِيُّ يكون في الحسيات من علو إلى سُفل بانصباب فيه سرعة، فاستعاره هنا للقدوم مع الرغبة والإقبال، فإن من شأنه أن يكون سريعاً، وهذا العبارة المختصرة، من تأمل صورتها البيانية ظهر له سؤال الخليل ربَّه تعالى قيامَ مجتمع صالح تسوده الألفة، وذلك هو الأمن الاجتماعي الذي يجب أن نسعى لقيامه في المجتمعات الإسلامية.

رابعاً: الأمن العام.

وهذا ظاهر في دعائه عليه السلام بالأمن مطلقاً، وذلك في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥]، وفي البقرة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، فحرمها عليه السلام بدعائه حتى الطَّير لا يُرَوَّع

فيها، وحتى الصيد لا يُنَفَّر، كما في الحديث، لم يقل لا يصاد! بل قال: لا يُنَفَّر! بل قال أحد رواته كما في الصحيح وهو عكرمة: "هل تدري ما ينفر صيدها؟ هو أن تنحِيَّه من الظِلِّ وتنزل مكانه"[1]!

ولايزال الناس -والحمد لله- ينعمون بالخير العميم بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام لمكّة بهذا الأمن، وهذا الرّغد، بل حتى الحيوان والطير، فيا سبحان الله!

تلك بعض مفاهيم الأمن التي تُستَشَفُّ من الآيات، والمقصود منها بيان أن مفهوم الأمن مفهومٌ واسع شامل، وأن شأنه عظيمٌ، وأنه ليس كما يفهمه كثيرٌ من الناس! وهنا يأتي واجب العالِم والداعية إلى الله وهو الحرص على تقرير ضرورة الأمن ومفهومه.

ولذلك أقول: إنّ المحافظةَ على الأمن فريضةٌ، ليست وظيفةً، وعبادةٌ ليست شأناً دنيوياً، وكما أننا نتعبد الله جلّ وعلا بالصلاة والصيام والذكر، فيجب أن نتعبّده بالمحافظةِ على الأمن في بلادنا وبلاد المسلمين. وثمار هذا على شؤون الدنيا والدين كثيرة.

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٩٠).

التلازم بين الأمن ورغد العيش

الأمن مقرونٌ برَغَد العيش، وفي القرآن الكريم اتصال شديد بين الأمن ورغد العيش من جهة، وبين الخوف - الذي هو ذهاب الأمن- والجوع من جهة ثانية. ومن ذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]، فدعا ربه أن يجعل هذا البلد بلداً آمناً وأن يرزق أهله من الثمرات، ولما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم]، قال بعد ذلك: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا الارتباط بين الأمن ورغد العيش، والجوع والخوف، مُطّرِد في القرآن.

اقرأ في سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل:١١٢]، ثم قال: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]. وكذلك في سورة قريش تجد هذا الارتباط الوثيق بين الأمن ورَغَدِ العيش: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة قريش]، إن ربَّ البيت العتيق هو الذي أطعَمَهم بعد شدَّةِ جوع، وآمنهم من فزع وخوف عظيم، حتى كان أهل مكة لا يتعرض لهم أحد في سفر أو حضر!

إن التلازمُ واضح معقول بين الأمن والرغد، وبين الخوف والجدب، بل كما قال بعضهم: ما قيمةُ الطعام وأنت خائف؟ فلو توافر لديك الطعام والمال، وأنت خائف على نفسك، وعلى أهلك، وعلى مالك، فلا قيمة له، ولا تتلذّذ به، بل لا تتلذّذ بنومٍ ولا طعامٍ ولا شرابٍ ولا سَكَن.

بل إنّ الأمن مطلوب حتى للدعوة، وذلك من أجل أن تسير سيراً حثيثاً، فليكن من جملة أهدافنا أنْ نُوَفِّر الجو الأمني بالمفهوم الشرعي، بكل أبعاده وأنواعه وأشكاله. لأنه إذا اختلّ الأمن

فستضطرب أمور الدعوة، بل والعبادة لا يستطيع الناس أن يؤدُّوا الصلاة، ولا أن يحجّوا، وقد مرّت سنوات لم يتمكّن الناس من الحج إلى بيت الله جلّ وعلا!

إن الأمن مكسبٌ عظيم، والله إنّي أخشى أن نُفرّط فيه بأيدينا، أو بأيدي بعض أبنائنا، أو بأيدي بعض من يدّعون المحافظة على الأمن، أو مَن وُكِل إليهم أمر المحافظة على الأمن، بسبب فهمهم القاصر لمفهوم الأمن، إنها مسؤولية مشتركة على الجميع، وأمانةٌ عظيمة سنُحاسَبُ عليها أمام الله جلّ وعلا.

فلنتّقِ الله، وإلّا فإنني أخشى أن يحلّ بنا ما حلّ بغيرنا، ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء].

من صور الإخلال بالأمن

ما مضى يستلزم منّا الحرص على حفظ الأمنِ في بلاد المسلمين، والحذر من مكائد أعدائنا من اليهود والنصارى، الذين يسعون للإخلال بالأمن في بلاد المسلمين، يدعمون ذلك بطرق شتى، تستجيب لها فئات مختلفة، فالذي يستخدم المخدّرات يُخلّ بالأمن،

والذي يسرق يخلّ بالأمن، والذي يرتكب المعاصي والآثام يخلّ بالأمن بمقدار ارتكابه المعصية، وأشدُّ خطراً من كل أولئك مَن يخلّ بالأمن بحجّة المحافظة على الأمن، ألم ترَ في بعض بلاد المسلمين مَن قام بأعمالٍ يحسبها من الجهاد، وهي إخلالٌ بالأمن الواجب حفظه؟

والدعوى في ذلك: جهاد الكافرين، ومحاربة من يحاد الدين! وما أنبلها من غاية لو سلمت، أما أن تكون تلك الكلمات لافتات وشعارات لقتل المعصومين في ديار الإسلام، وترويع المسلمين فذلك من الضلال المبين!

فرق بين جهاد الكافر المحتل وتهديد أمن المسلمين

أقول هذا مع إيماني بأن الجهاد هو ذروةُ سَنَام الإسلام، ولولا الجهاد لذلّت الأمّة واستبيحت، ولطمعَ فيها أعداؤها ولمزّقوها، فبالجهاد تُهاب الأمّة، وبالجهاد يُقام الإسلام، وبالجهاد تَأْمَنُ الأوطان، لكن ليس الجهاد دعوى! بل معنى منضبط؛ قتال أعداء الله، لتكون كلمة الله هي العليا، أما أعمال التفجيرات التي تقع في بلاد المسلمين الآمنة، ويذهب ضحيتها آمنون معصومون، وتهدر جراؤها أموال مصونة محترمة، فليست جهاداً بل فساداً والله لا يحب الفساد، لا

شريعة تُقَام، ولا رايةَ حقٍ تُعلى، ولا مصلحةً راجحةً تُحقق، بل مفاسد أعظم تقع! فإن حرمةَ أمن المسلم على دمه أعظمُ من مصلحة قتل كافرٍ وإن قدِّر أنه محاربٌ لا عهد له ولا أمان. فكل مسلم لم يأت ما يُستباح به دمه كالردة والقتل عمداً والزنا بعد إحصان ونحوها فهو حرام الدم معصومُه بالإجماع[1]. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]، ولعل هذا أعظم وعيد جاء في القرآن، قال الشوكاني: "وليس وراء هذا التشديد تشديد، ولا مثل هذا الوعيد وعيد"[2]، وقال رسول الله ﷺ: «لايزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»[3]، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أنه قال: «إن من ورْطَات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه

---

(١) انظر مراتب الإجماع لابن حزم ص١٣٨، وانظر كذلك الإنجاد في أبواب الجهاد لابن المناصف ص٣٧٨.

(٢) فتح القدير، تفسير الآية، ١/ ٤٩٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦٨٦٢).

فيها سفك الدم الحرام بغير حله»[1]. قال ابن حجر: "وقد ثبت عن ابن عمر أنه قال لمن قتل عامداً بغير حق: (تزود من الماء البارد، فإنك لا تدخل الجنة)... وقال ابن العربي: (ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك، فكيف بقتل الآدمي؟ فكيف بالمسلم؟ فكيف بالتقي الصالح؟)"[2]. وحتى لا تُتوهم مصلحة مبيحة لقتل المسلم حرام الدم قال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»[3]، وتأمل كيف أخر الله القتال عن أهل مكة عام الحديبية؟ وبماذا علل على عظم جرم المشركين؟ قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ

---

(١) السابق (٦٨٦٣).

(٢) فتح الباري ١٢/ ١٨٩.

(٣) رواه الترمذي في سننه (١٣٩٥) وغيره، وقد صححه موقوفاً البخاري في العلل الكبير (٢١٩)، وغير إمام، ومثله لا يقال بمجرد الرأي، وفي معناه جملة آثار. وقد صححه جمع من أهل العلم مرفوعاً.

فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ [الفتح]، وهذا نص في وجوب توقي قتل المسلم عند قصد الكافر، ولو استلزم ذلك الكف عن المشركين وجب الكفّ.

وقد تأمَّلتُ سِيَرَ الأنبياء والرسل، فما رأيتُ نبيّاً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل -عليهم وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام- قاتل قومه قط وهو بين ظهرانيهم مقيماً لم يتميز المسلم من الكافر، وإنما جاء النبي ﷺ لفتح مكّة، بعد أن أقام دولته ونَدَب للهجرة وتمايزت الصفوف، ومع ذلك أَمَّنَ أهلَ مكة، ولم يقاتل إلاَّ من خرج لقتاله، وبين الله سبب ذلك فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية [الفتح: ٢٥].

وكذلك فرقٌ بين أن تحدث فتنة من داخل البلد، وبين أن يُغزى البلد من الخارج، فإذا غُزي البلد يجب أن يُدافع العدو، والعدو المقصود محارب متميز لا عهد له، ولا شبهة معتبرة في خلطته والعمل معه فوجود مسلمين معه خلاف الأصل وخلاف الشرع، فإذا قام بعض المسلمين بقتال هذا العدو فهم مجاهدون لهم حكمهم، كما

يحدث في فلسطين مثلاً، وسائر البلدان المحتلة من الكافر الذي لا شبهة في حربه وكفره، أما الفتن داخل بلاد المسلمين فلا يتوجه فيها القتل غالباً إلاّ لمختلطين يصعب تمييزهم، كالمسلمين من الجند أو العاملين معهم، سواء كانوا عصاة أو متأولين أو محقين، أو كفاراً معاهَدين، وإن قُدر أن دولتهم محاربة فمن دخل دار الإسلام منهم بإذن أهله فله حكم المستأمِن، بل لو قدر توجه القتل لكافر محارب ليس له عهد أو أمان فقل أن يسلم هذا من الخلطة بمعصوم ممن سبق ذكرهم في حال الفتن واختلاط الأمور، ومصلحة استبقاء نفس مؤمن أعظم من مصلحة التشفي من كافر، فلا يجوز قتل المؤمن لذلك، وإنما أجاز الفقهاء قتل المتترس بهم من المسلمين في حال الخوف من استئصال المسلمين فهذا موضع إجماع، أو دفع ضرر كبير متحقق وهذا موضع خلاف، أما قتل الترس لتحقيق مصلحة صغيرة أو متوهمة فلم يقل به إمام يقتدى به، تبرأ الذمة بتقليده. ومن أعدل من حرر المسألة الإمام ابن القيم حيث قال: "لا يجوز رميهم إلاّ أن يخشى على جيش المسلمين، وتكون مصلحة حفظ الجيش أعظم من

مصلحة حفظ الأسارى، فهذا الباب مبني على دفع أعظم المفسدتين بأدناهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن فُرِض الشَّكُّ وتَسَاوَي الأمران لم يجز رمي الأسرى، لأنه على يقين من قتلهم، وعلى ظن وتخمين من قتل أصحابه وهلاكهم، ولو قدر أنهم تيقنوا ذلك، ولم يكن في قتلهم استباحة بيضه الإسلام، وغلبة العدو على الديار، لم يجز أن يقي نفوسهم بنفوس الأسرى، كما لا يجوز للمكره على قتل المعصوم أن يقتله ويقي نفسه بنفسه، بل الواجب عليه أن يستسلم للقتل ولا يجعل النفوس المعصومة وقاية لنفسه"(1)، وبهذا يظهر أنه ليست لمتمسك بمسألة التترس حجة صحيحة، في الاجتراء على الأنفس المعصومة.

والناس في هذه المسائل طرفان ووسط، فطرف يجترئ على الدماء

(1) مفتاح دار السعادة ٢/ ١٨-١٩، وانظر كذلك الإنجاد في أبواب الجهاد، لابن المناصف، ص١٩٥، ويتبين من هذا أن الإجماع الذي نقله شيخ الإسلام ليس المقصود بالضرر فيه مجرد الضرر العائد على الجيش، بل على عموم المسلمين كما هو ظاهر نصه، انظر الفتاوى ٢٠/ ٥٢، ٢٨/ ٥٣٧، فإن قدر أنه مجمل تعين حمله على ذلك ليستقيم مع الإجماع.

في بلدان المسلمين ومجامعهم لينال من كافر! وطرف عطل جهاد الكافر المحارب المحتل بذريعة حماية بعض عملائه!والواجب التوسّط والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، فالذي يُطلق على لجهاد الكافر المحارب اسم الفتنة، هو الذي وقع في الفتنة، والذي يُطلق على الفِتَن في داخل بلاد المسلمين التي تنال من معصومين جهاداً فقد ضلّ سواء السبيل، ولابد من الصدع بالحق والبيان لأجل المحافظة على الأمن حقاً.

عبرة من خبر نبينا وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام

المتأمل في أخبار إبراهيم عليه السلام، لا تخفى عليه شجاعته الظاهرة، وقد تقدم بيان شيء من ذلك، فمع تحطيمه الأصنام، وإقدامه على مناظرة القوم ومقدميهم، لم يقاتل أحداً، فالقضية ليست حماسة وتهوراً وبذلاً للنفس في سبيل لا شيء، بل يحمد بذل النفس في سبيل إقامة الدين، فإن تحقق أن في بذلها إتلافٌ ولا قيام لدين، ولا نصرة لشريعة، كانت مصلحة إبقائها النفس أولى.

ولهذا لم يشرع للمسلمين في العهد المكي جهاد بسيف، مع أن

القوم كانوا هم الرجال الشجعان، ومع ذلك صبروا للأذى والتنكيل، التزاماً بالشرع الآمر بكف الأيدي، ومراعاة للمصلحة، ثم لما تميزوا وتحصلت لهم القدرة وقويت شوكت المسلمين شرع الجهاد، على مراحل معروفة، ثم هل نسخت آيات القتال آيات الكف والصبر والصفح مطلقاً أو أن في ذلك تفصيلاً؟ الأخير هو الأقرب، وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام حيث قال: "فحيث ما كان للمنافق ظهور، وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيثما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]"[(١)]، ومراعاة الحال المكية وما فيها من الضعف ظاهرة في كثير من الشؤون: "فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها"[(٢)].

(١) الصارم المسلول ١/ ٣٦٢.

(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٤.

فالمسألة مبنية على اختلاف الأحوال؛ ولما كان أمر المسلمين في أول الأمر ليس بالقوي وليس عندهم قدرة كاملة أمروا بالكف، ولما كان عندهم من القدرة بعد الهجرة ما يستطيعون به الدفاع أمروا بقتال من قاتلهم وبالكف عمن كف عنهم، فلما قوي الإسلام وقوي أهله وانتشر المسلمون ودخل الناس في دين الله أفواجاً أمروا بقتال جميع الكفار ونبذ العهود وألا يكفوا إلاَّ عن أهل الجزية من اليهود والنصارى والمجوس إذا بذلوها عن يد وهم صاغرون. وهذا القول اختاره جمع من أهل العلم، منهم الحافظ ابن كثير رحمه الله عند قوله جل وعلا في كتابه العظيم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال]. قال الشيخ عبدالعزيز بن باز بعد أن ذكر طرفاً مما سبق: "وهذا القول أظهر وأبين في الدليل؛ لأن القاعدة الأصولية أنه لا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الأدلة، والجمع هنا غير متعذر، كما تقدم بيانه، والله ولي التوفيق"[1].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة ١٨/ ١٣٣.

وقال: "فإن ضعف المسلمون استعملوا الآيات المكية، لما في الآيات المكية من الدعوة والبيان والإرشاد والكف عن القتال عند الضعف، وإذا قوي المسلمون قاتلوا حسب القدرة فيقاتلون من بدأهم بالقتال وقصدهم في بلادهم، ويكفون عمن كف عنهم فينظرون في المصلحة التي تقتضيها قواعد الإسلام وتقتضيها الرحمة للمسلمين والنظر في العواقب، كما فعل النبي ﷺ في مكة وفي المدينة أول ما هاجر. وإذا صار عندهم من القوة والسلطان والقدرة والسلاح ما يستطيعون به قتال جميع الكفار أعلنوها حرباً شعواء للجميع"[1].

والواجب علينا أن نقتدي بالرعيل الأول في سلمهم وأيام حربهم؛ فحيث ما كان للمنافق ظهور، وخيف من حربه الفتنة واضطراب الأمور، كانت لنا في (دع أذاهم) مندوحة، وحيثما عجزنا عن جهاد الكفار، وأمِرَ أمْرُ أهل النفاق والفجار، كانت لنا في (كفوا) كفاية، وحيثما حصلنا القوة والمنعة والعزة والسلطة توجه جهاد الكفار.

وقد راعى النبي ﷺ الحال حتى في المدينة، فعندما تبلغ كلمة من

---

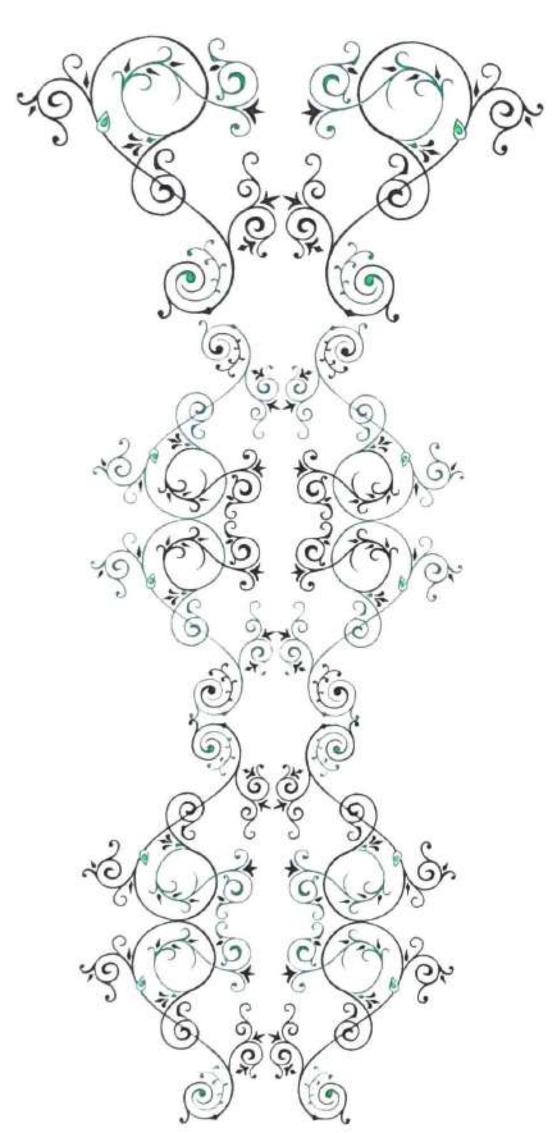
(١) السابق ١٨/ ١٣١-١٣٢.

الثقات عن بادرة من رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ الذي أثار الفتن مراراً، ويأتيه ﷺ من يقول له: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه. يقول: لا، لماذا؟ «لا أحبّ أن يَتَحدَّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه»[1]، لا يريد أن يُحدث فتنة داخلية.

بينما لمّا قامت الدولة واستقرت الأمور ونقض العهد بعض اليهود من بني قريظة قاتلهم ﷺ؛ لنكثهم العهد، فقتّلهم، وسبى نساءهم. فمن الفقه أن نفرق بين الجهاد والفتنة، ومن الفقه أن نفرق بين الحال التي يشرع فيها التغاضي عن قتال ما يظهره بعض المنافقين والمتسبين للإسلام، والحال التي يؤاخذون فيها، والله المستعان.

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

إبراهيم عليه السلام وسلامة القلب





إبراهيم عليه السلام وسلامة القلب

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ إماماً في أعمال القلوب وسلامتها، يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وللناس في القلب السليم كلام لخصه ابن القيم رحمه الله فقال: "اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك أنّه الذي قد سَلِم من كل شهوةٍ تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلِم من عبودية ما سواه، وسلم من تَحْكِيم غير رسولِه، فسَلِم في محبَّةِ الله مع تحكيمه لرسوله؛ في خوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذه هي حقيقة العبودية التي لا تَصْلُح إلاّ لله وحدَه، فالقلب السليم هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك

بوجه ما، بل قد خَلُصَت عبوديته لله تعالى؛ إرادةً ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاءً، وخَلُصَ عمله لله؛ فإن أحبَّ أحبَّ في الله، وإن أبغض أبغضَ في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله، فيعقد قلبه معه عقدا محكماً على الائتمام والاقتداء به وحدَه دون كلِّ أحد، في الأقوال والأعمال؛ من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليها في ذلك كله دِقِّه وجِلِّه هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم"(١).

من سلامة قلبه عليه السلام

وإبراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماماً كان نقيّ السريرة، سليم القلب، شهد الله له بذلك: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]، ولا شكّ أن إبراهيم عليه السلام الذي رأينا بعض صفاتِه وأفعالِه وبلائه، لا شكّ أنه يحمل قلباً سليماً خَيِّراً، وقد مضى ذكر شيء عن سلامة صدر

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ٧-٨.

الخليل عليه السلام من الشرك والشكوك، وأنه كان قانتاً حنيفاً ملازماً للطاعة. وأما سلامته تجاه الخلق فشأنها كتلك عظيم، تميز فيها عليه السلام، ومن مظاهر ذلك أمور أنه:

لم ينقل عنه دعاء على أحد من أعدائه، على الرغم مما أوذي به عليه السلام، بل المنقول دعاؤه لهم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، أما دعاؤه للمؤمنين فما أكثره وقد مضى ذكر شيء منه[1].

وكذلك تجده لا يألو جهداً في مدافعته حلولَ العذاب بقوم لوط رغبة في إمهالهم لعلهم يرجعون، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود]، حليم لا تحفِظُه مخالفَتُه، ولا تستفزه أفعالُ السفهاء، لكنه مع حلمه منيب، محب لله خاضع لأمره مقبل عليه معرض عمّا سواه، سريع الرجوع إليه، ولهذا لما ذُكِّر تَذَكَّرَ وذلك من سلامة قلبه كذلك، فما أسرع أن استجاب لمّا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ

---

(١) انظر ص ٩٤ من هذا الكتاب، و ص١٩٣، وكذلك ص٢٣٣ وما بعدها.

﴿أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود].

ومما يظهر سلامة قلبه عليه السلام دعاؤه لأبيه -مع ما لقي منه- حتى تبيّن له أنّه عدوٌّ لله، فلمّا تبيّن أنّه عدوٌّ لله تبرّأ منه، ما تبرأ منه ولا هجره لمّا آذاه ولما بعّده، لكن لمّا أمره الله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود].

ومن تأمل وجد سلامة قلبه عليه السلام في حواراته ومناقشاته وبُعْده عن حَظِّ النَّفس في أي موقعٍ كان، فقد كان يدرك عليه السلام ما لسلامة القلب من الأثر، بل كان ذلك همه ولهذا لمّا دعا قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وكلنا نحتاج في ذلك اليوم أن نَرِدَ الموقفَ بقلوبٍ سليمة، فيوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، فانتبهوا لهذا معاشر الدعاة والمربّين! رَبُّوا الأجيالَ على طُهْرِ القلوبِ وسلامتِها من أدوائها، من الغلِّ والحسد والبغي حتى على الخصوم! وأقول: بعض المنتسبين إلى الدعوة والعلم -هداهم الله- يربون أجيالاً على الحقد والبغض لا للكفار بل ولا لعامة الناس! بل يلوثون قلوب

الناشئة، ويملؤونها حَنَقاً على بعض علمائهم ودعاة الإسلام الذين بين أظهرهم، لمجرد مخالفة في اجتهاد، أو رأي، أو ذنب! بل قد يكون الحق مع من يُنَفِّرون منهم! يفسدون القلوب وهم يحسبون أنهم يحسنون!

ليتهم يسيرون مع إخوانهم من المسلمين بسيرة إبراهيم مع أعدائه! لم يُؤْثَر عنه عليه السلام دعاءً على أحدٍ من قومه، بل تجد منه الدُّعاء بالهداية، والرغبة في استقامتهم، تجد عِفّة اللسان، تجد الحكمة، بينما بُلِيَت هذه الأمّة بأُناسٍ ينتسبون إلى الدعوة، أصبحوا وبالاً على الأمة، همهم تفريق الكلمة، وإيغار الصدور على الأفاضل، ليسوا يهوداً أو نصارى، ليسوا علمانيين أو كفاراً، إنهم ويالالأسف! أُناسٌ ينسبون أنفسهم وفعالهم إلى الدين، فسبحان الله رب العالمين!

فتش قلبك

فانظر إلى قلبك أخا الإسلام! فأنت وحدك دون الناس من يُبْصِرُه! قد ينظر الناس إلى هيأتِك، إلى عملك، إلى تصرّفاتك، إلى سلوكك، لكنهم لا يرون ما انطوى عليه قلبُك، فانظر أنت إلى قلبك وفتشه، هل فيه غِش؟ هل فيه حِقد؟ هل فيه مرض؟ قبل أن يجيء العَرْضُ على ربك الذي لا تخفى عليه خافية.

واعلم أنَّ سلامة القلب غُنم لك في العاجل والآجل، ولقد رأيتُ عدداً من النَّاس ممن عرفوا بمسامحة الناس وسلامة الصدر، رأيتهم يعيشون في راحة بالٍ وسعادةٍ وهناء. رأيتُ رجلاً تجاوز عمره الستين عاماً، والذي يراه يقول: إن سنّه في الأربعين أو قريباً من الخمسين؛ فسألته فقال لي كلاماً عجيباً، قال لي: أنا أولاً: لا أسهر الليل، ثانياً: لا أعمل ما يعمله كثير من الناس من المعاصي والآثام، ثم قال لي: وما بِتُّ ليلةً ـ والحمد لله ـ وفي نفسي حِقد على مسلم. فقلتُ: هذا هو السِّر.

وكثير منا يعرف قصة الصحابي الذي شهد له النبي ﷺ ثلاث مرّات بأنّه من أهل الجنة؛ فعن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة»، فطلع رجل من الأنصار تَنْطِفُ لحيَتُه من وضوئه، قد تعلق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله مثل، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا، فإن رأيت أن

تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تَعَارَّ وتقلَّب على فراشه ذكر الله وكبر، حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلاّ خيراً، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبدالله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولاهجر، ولكني سمعت رسول الله يقول لك ثلاث مرار: يطلع الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث المرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك تعلم كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا، ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله إياه، قال عبدالله: هذه التي بلغت بك وهي التي لاتطاق[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٩٧)، وغيره من حديث أنس ﷺ، وسنده صحيح، لكن قد أعله عدد من الأئمة، وصوبوا رواية الزهري له عن رجل مبهم عن أنس، انظر علل الدارقطني ١٢/ ٢٠٤.

فحري بك أخا الإسلام أن تفَقَّد قلبك، وأن تحرص على طهارته، كلٌّ منّا يغسل وجهه في اليوم عدّة مرات، كُلٌّ منّا يغسل ثيابه، كُلٌّ منّا يغسل جسده، وهناك من يغتسل يومياً، بل في اليوم أحياناً عدّة مرات خاصةً في أيّام الحرّ. فلماذا نهمِل قلوبَنا؟! لو علِم أحدٌ منّا أن في قلبه مرضاً يسيراً لبادرَ إلى المستشفى عَجِلاً، خوفاً على نفسه، فهلا بادرنا بتطهير قلوبنا من الأمراض المعنوية، من غِلّ أو حسد أو حِقد أو بغضاء، للمتقدّمين أو المُصاحبين أو المتأخّرين؟ فكل أمراض قلبية مردية على تفاوت بينها، ولهذا كان الواجب من سلامة القلب تجاه العلماء والدعاة إلى الله والآمرين بالمعروف والعاملين للدين آكدَ من غيرهم، وسلامةُ الصدر تجاه الصحابةِ والسلف المرضيين آكدَ ممن دونَهم، وقد أثنى الله على أقوام فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر].

وقد صح عن مالك بن أنس أنه قال: من سب أصحاب رسول الله فليس له في الفيء حق، يقول الله ﷻ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر]، هؤلاء أصحاب رسول الله الذين هاجروا معه، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]، هؤلاء الأنصار، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

فالفيء لهؤلاء الثلاثة، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ فليس من هؤلاء الثلاثة، ولا حق له في الفيء[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "وهذا معروف عن مالك وغير مالك من أهل العلم، كأبي عُبيد القاسم بن سلام"[2].

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: الناس على ثلاث منازل فمضت

---

(١) رواه البيهقي في السنن (١٣٤٩٠)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٢٤٠٠)، وغيرهما.

(٢) منهاج السُنَّة : ٢/ ٢٠.

منهم اثنتان وبقيت واحدة فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت ثم قرأ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون وهذه منزلةٌ وقد مضت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية ثم قال: هؤلاء الأنصار وهذه منزلة وقد مضت، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية، قال: فقد مضت هاتان المنزلتان وبقيت هذه المنزلة فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت[1].

وأما من لم يكن من أصحاب المنزلة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة! لم يكن من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الذين جاؤوا من بعدهم يترَضَون عنهم، فمع مَن يكون؟ نخشى أن يكون من الذين ذكروا في الآيات التي بعدها، والعياذ بالله، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

(١) رواه الحاكم (٣٨٠٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

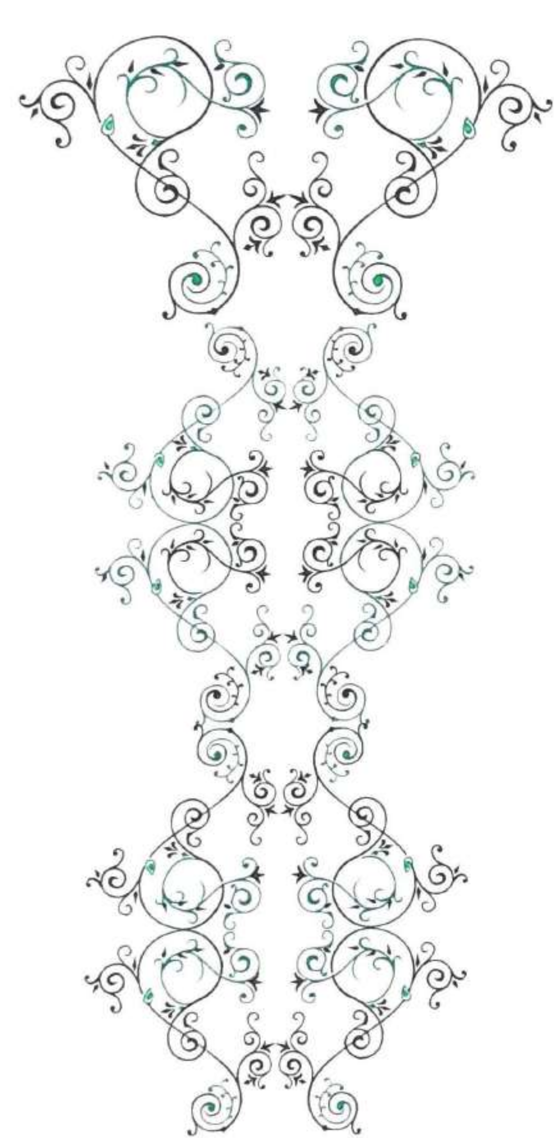
نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ [الحشر].

والمقصود فتِّش قلبَك، وانظر حالك، وحذارِ من أن تنطوي نفسُك على الحِقد والغِل والحسد وأمراض القلب وأدوائها، فإنَّها قد تقضي على صاحبها في الدنيا، فما بالك بالآخرة؟ إنَّه لن ينجو في الآخرة إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم. أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم، وتأمل هذا الحديث العظيم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]، فماذا تحب أن يرى اللهُ تعالى من قلبك؟

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤).

ولقد آتينا إبراهيم رشده





ولقد آتينا إبراهيم رشده

مما أثنى به الله تعالى على إبراهيم في القرآن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء]، قيل رشده النبوة، وقيل: الاهتداء لوجوه الصلاح ويكون في الدين والدنيا، ومنه الرشد في قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، وعلى الثاني أكثر أهل التفسير[١]، وعلى هذا فقوله (من قبل): أي من قبل النبوة، وهو فتى، وعلى الأول: (من قبل) موسى وهارون ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وبين المعنيين تلازم، فالأنبياء أرشد الناس قبل النبوة، والنبوة زادتهم رشداً، وقد كان إبراهيم عليه السلام رشيداً مرضياً وهو لا يزال فتى في قومه، وظاهر السياق يشعر بإرادة هذا المعنى، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) انظر تفسير القرطبي ١١/ ٢٩٦، وفتح القدير ٥/ ٦١.

[الأنبياء]، فهذا هو الرشد الذي تميز به إبراهيم عليه السلام فاستحق الإشادة، وإلاّ فكل الأنبياء ذووا رشد بلغوا فيه الغاية، ثم إن الرشد الدافع لإنكار عبادة الأصنام متحقق عند جميعهم بعد النبوة، لكن إبراهيم أوتي رشده من قبل وهو فتى، وقد ذكر الله تعالى من أخبار إنكاره الشرك، ومجابهته قومه بذلك، ومناظرهم حتى بلغ بالمناظرة ملكهم، مثل ما ذكر له منذ أن كان فتى.

وأصل الرشد: الهدى والرأي الحق، وضده الغي، وأياً ما كان فكلمة المفسرين متفقة على أن الرشد الذي أوتيه عليه السلام رشدٌ عظيم اقتضى التفخيم والإشادة بالذكر.

والناظر في سيرة إبراهيم عليه السلام يلحظ بجلاء، رجاحة عقله، وحضور ذهنه، وقوة حجته، وشدة فطنته، وعظيم حكمته، منذ صغره، فقد ذكر غير واحد من المفسرين أن قوله: (من قبل) أي قبل البلوغ[1]، وفي هذا بيان لكون الشباب لا يلزم منه الطيش ولا يقتضي

---

(١) مأثور هذا المعنى مروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٤٥٣٣)، والطبري ١٦/ ١٩٠ (٢٤٨١٤)، وابن كثير ٥/ ٣٤٧، والبغوي ٥/ ٣٢٢، وزاد المسير ٤/ ٣٤٣.

الغِواية، ولا يستوجب العجلة والنَزَق، بل قد يكون الشاب راجحَ العقل، قوي الحجة والمنطقِ، بعيدَ التخطيط، كما كان إبراهيم ﷺ، وما أحوج شبابنا الإسلامي اليوم إلى أن يقتدوا في ذلك ويتشبهوا بإبراهيم ﷺ. وإنَّ بعض الأحداث التي جرت وتجري في بلاد المسلمين، تنم عن غياب للحكمة والسياسة الرشيدة عند بعض الشيب والشباب، ويخشى أن تكون عاقبة ذلك وخيمة على الدعوة وعلى أولئك الأحبَّةِ، وهذه دعوة لتدبِّر سيرة إبراهيم ﷺ لنقتبس من حكمته ورشده.

من مظاهر الرشاد في سيرته

ومعالم الرشاد في سيرته ﷺ كثيرة، وحسبنا فيما يلي وقفات، فمن ذلك:

أولاً: ما قصه الله تعالى من مجادلته الملائكة.

وهو خبر يدل على كمال العقل وقوَّةِ الحُجة، وتأمل أول خبره مع الملائكة الأضياف! ومجادلته بعد في قوم لوط، فعلى الرغم من فصول قصة الضيوف، ترحيب وشغل وضيافة كريمة، ثم خيفة وتوجس وترقب، ثم خبر عن وجهتهم، اعترضه وقع البشارة المذهلة! بالولد

بعد الكبر، مع ذلك لم يغب عن باله خبرهم الأول، قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود]، بعد هذا الخبر ومع هول هذه البشرى، وما دار بعدها من الكلام قصه الله تعالى في مواضع: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود]، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الذاريات].

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود]، حفظ القضية الأولى، ثم دخل في القضية

الثانية ولم ينس مع عظم وقعها الأولى! فلما فرغ رجع إلى قضيته الأولى، وهذا يدلك على أنه كان بعيد الغور، ثاقب النظرة، قوي المناظرة لا تذهله العظائم. ومجادلته عليه السلام كانت صحيحة وفق ما انتهى إليه علمه، قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾! [العنكبوت: ٣٢]، فبُيِّن له ما لم يكن في حسبانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾[العنكبوت: ٣٢]، وهنا وقف عليه الصلاة والسلام، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود].

ثانياً: مناظرته قومه عباد الكواكب.

وقد مضى ذكر الخبر(١)، وبعض ما فيه من العظات والفوائد والعبر، ومن مظاهر حسن تدبيره ورشده في المناظرة تدرجه مع القوم، فقال ابتداء في التعليل على عدم استحقاقها للعبادة بـ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام]، ثم جاء وصفهم بعد بالضلال

(١) انظر ص٧٩ وما بعدها، وكذلك ص١٦٨ من هذا الكتاب.

تعريضاً: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنعام]، ثم أعلن البراءة بعد ذلك، قال بعض المفسرين: "والتعريض بضلالهم هنا كما قال ابن المنيِّر أصرح وأقوى من قوله أولاً: لا أحب الآفلين، وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عَرَّض عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم له إلى آخره، والدليل على ذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم، والتصريح بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق وبلغ من الظهور غايته"[1].

(١) تنظر حاشية ابن المنير على الكشاف ٢/ ٤٠، وروح المعاني للألوسي ٤/ ١٨٩، وكذلك تفسير الآيات عند القاسمي.

ثالثاً: مناظرته النمرود.

كذلك مناظرته النمرود الملك الذي يقال إنه ملك الأرض[1]! وكان أول من تجَبَّر، فأظهر إبراهيم عجزَه، وألقمه الحجة، بأسلوب هادئ بديع، فقد عمد عليه السلام إلى تعجيزه يوم طلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب، وعمده عليه السلام إلى هذا الدليل الظاهر من جملة حكمته البالغة ﷺ، فمقام الجدل والمناظرة يقتضي الانتقال إلى الدليل الأظهر عند عدم تسليم الخصم أو اعتراضه على الدليل الأول، ولهذا **انتقل إبراهيم** عليه السلام **أثناء محاجته النمرود** عندما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ، فقال النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ ، قيل: جاء برجلين فقتل واحداً وترك الآخر. وكان بمقدور الخليل أن يقول للجبار: أنت أحييت الحي، ولم تحيي الميت! وإن كان قتلك للحي إماتة دالة على الربوبية فإن أدنى من في المجلس ربٌّ مثلك، بل العقرب والثعبان والأسد ربٌّ على زعمك! ولعل إبراهيم عليه السلام خشي أن يُشوش النمرود على الحاضرين بجدل من نحو قوله: لا

(١) روي هذا عن قتادة والسدي وغيرهما انظر تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٧٦ (١٥٦٨٩)، وابن جرير ٤/ ٥٧١.

بعث، والموتى لا يحيون! وهذا لا يكون حقيقة بل سحراً.. إلخ ما قد يورده النمرود من تشغيبات على استدلال إبراهيم عليه السلام، فانتقل معه عليه السلام إلى دليل مفحم أظهر على سبيل قطع الجدل فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، فقد علم أن الشمس يسيرها بهذا النظام رب قادر مريد، حكيم لطيف لما يشاء خبير، وقد علم أن ذلك الرب غيره، فكيف لا يُبهت! فإنّه إن قال أنا الذي أجيء بها كذبه ذوو الأسنان من قومه، فإن ادعى وراثة الربوبية لزمته حجة إبراهيم: ﴿فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾، ولا يرد على هذا أن النمرود قد يقول إن كان ربك هو الذي يأتي بها من الشرق فليأت بها من المغرب، لأن هذا لا يغير من حقيقة أن النمروذ لا يأتي بالشمس ولا حيلة له في ذلك فثبت بذلك أنه عاجز عن أمر موجود وليس رباً، فحاصل الاستدلال: إنَّ لهذه الشمس المحدثة رباً يدبرها، فأت بها من المغرب إن كنت هو، وإلاّ فمدبرها قبل خلقك هو ربي وربك. وهكذا انفض المجلس والنمرود مفحم وحجة الخليل قائمة.

رابعاً: مناظرته قومه بعد تكسير الأصنام.

مر معنا أن تكسيره الأصنام كان فعلاً شجاعاً محسوباً ولم يكن عملاً غضبياً حماسياً[1]، وتتجلى حكمته عليه السلام، ويظهر حسن تدبيره، وتخطيطه الواضح لأهدافه، في هذه القضية من وجوه:

منها أن الأنبياء عليهم السلام لا يستعجلون مواجهة قبل أوانِها، فإذا ألجئوا إليها أيَّدهم الله بما شاء، كما أيَّد موسى بالبحر والعصا، وأيد لوطاً بالملائكة، وأيد المؤمنين يوم بدر بالملائكة، فمن سياسة الأنبياء عملهم وفق فقه الاستطاعة والقدرة، ولهذا مكث نبينا محمد ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكةَ ولم يحطّم حول الكعبة صنماً، وإنما كان يعمد إلى تحطيمها في القلوب، ثم لمّا هاجر إلى المدينة، وأقام دولته فيها، وبعد أن عظم أمرها جاء إلى مكة فاتحاً وحطَّم الأصنام، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاث مائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «﴿... جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ

(١) انظر ص١٧٢ من هذا الكتاب وما بعدها.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ]»[1]، أما أول مبعثه عليه السلام فكان يطوف ويرى ويسمع أعظم المنكرات، ولا تسعه والمؤمنين -غير المستضعفين- سوى الدعوة. وصنيع إبراهيم عليه السلام مع أصنام قومه ليس عن هذا بمعزل فقد بدأ بتحطيم الأصنام في القلوب، وبيان عدم جدارتها ولا الكواكب التي هي فوقها بالعبادة، وقد قص الله من أخباره في ذلك طرفاً، كقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ الآيات [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء]، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾

(١) متفق عليه رواه البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١).

[مريم]، وكان قومه يعرفون ذلك منه، ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء]، فقد ناظر القوم وكانت له معهم صولات مشهورة مرّ معنا ذكر بعضها[1].

فلم يلجأ إبراهيم عليه السلام إلى تكسير الأصنام إلاّ بعد أن استنفذ سبل الإقناع فقد جادل وحاور وناظر، حتى عرف بذلك بين القوم فلم يرتابوا في غيره يوم وجدوا الأصنام جذاذاً بل قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠].

ومن رشده عليه السلام تخلفه عن عيد القوم بأسلوب حكيم، لايحدث ضجة، ولايثير عند القوم هاجساً على أصنامهم فيذهب مقصوده: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات].

ثم لَّمَّا خَلَفَهم ودخل بيت الأصنام لم يكسرها تشفياً بل لحكمة وهدفه نصب عينيه ولهذا أبقى كبيرهم المقدم عندهم في العبادة، ولو كان التكسير عن فعلاً حماسياً غيرَ منضبطٍ لبدأ بهذا الكبير ليشف

(١) انظر ص٧٩، و ص١٦٨ وما بعدها، وكذلك فيما يأتي ص٣٤٩.

غيظ قلبه، ولكنه لم يفعل بل ترك طاغوتهم الأكبر لحكمة خطط لها. لم يقل تركه منكرٌ، كيف أتركه وهو أكبرها ليعبد من دون الله! بل كان يعلم أن من الرشد ترك بعض المنكر لكون إنكاره لا يزيده إلاّ نكراً، فكيف إذا اجتمعت مع هذا السبب مصلحة يرجو بها للقوم هداية، وفي هذا تنبيه إلى أن القدرة المقصودة في إزالة المنكرات ليست هي القدرة على مطلق الفعل، كتكسير صنم مثلاً! بل الفعل بالصفة الشرعية فلا يَخْلُفُه ما هو أنكر، أو يسبب منكراً مثله أو هو أظهر.

ثم لّما أقبلوا إليه ﴿يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات]؛ يسرعون إسراعاً يشبه جري النعام من شدة اندفاعهم بالقوة الغضبية، لّما جاءوه في تلك الحالة قائلين: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء]، لم يقل عليه السلام: نعم فعلته وأتحدّاكم! بل مقصوده الدعوة، ولذا خَلَصَ إلى الهدف البعيد الذي خطط له تخطيطاً بعيداً عن الطيش والهمجية فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء]! قال بعض أهل التفسير أي: فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون، فاسألوهم، فعلق نسبة الفعل

لكبيرهم بنطقهم[1]. وأياً ما كان فهو عليه السلام كان يحكم تدبيره لأهداف نبيلة، فلو استفزهم ابتداء وقال نعم أنا فعلتها لأغلق الغضب عقولهم ولحَجَبَتْ بُغية الانتقام قلوبَهم، لكنه أجابهم بجواب يترك كلَّ عاقل يراجع نفسَه! ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

ومن علامات فطنته وحسن تدبيره وتخطيطه لأهدافه أنه لم يقل لهم لا أدري ربما يكون إنساناً آخر كعدوٍ، إذ ليس غرضه التهرُّب من المسؤولية وإنما غرضه الوصول إلى هدف مرسوم، فمهد لحجته التي من أجلها صنع ماصنع بحصره الاتهام بينه وبين الكبير، مع أنه كان بإمكانه أن يقول لا أعرف أو يدعي ثالثاً أو غير ذلك.

لقد قرر عندهم عجز الأصنام ولفتهم إلى ذلك بقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ ﴾ ولم يقل فسألوه، بل طالب بسؤال الجذاذ ليلفت أذهانهم إلى عجز الأصنام المركب، فهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها، بل عاجزة عن أقل من ذلك عاجزة عن مجرد الدلالة على من

---

(١) انظر ص١٨١، ويأتي ص٤١١.

جعلها جذاذاً، فقادهم سؤاله بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ إلى إقرار بهذا الذي أراد، فكان جوابهم كما قص الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء]، فأقروا بعجزهم عن النطق والإخبار بمن فعل بهم ما فعل، وتلك غاية الضعف والذِّلة. ولكن القوم نُكسوا على رؤوسهم فحاولوا الفرار من الإذعان بذلك فأجابوا جواباً لاينص على الحقيقة، وإن كانت هي مقتضاه الظاهر لأولي الألباب.

حاجتنا إلى الرشاد في العمل

لقد كان عليه السلام منذ فتوّتِه ناضجَ العقلِ رشيداً، ومن تأمل سائر أخباره المذكورة في القرآن، وجد فيها من الرشد والحكمة ما لا يكون إلاَّ بتوفيق الله القائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء]، والموَفَّق اليوم كذلك من وَفَّقَه الله إلى الحكمة وآته رشداً، وعلى كل منّا أن يسعى في اكتساب ذلك، لعل الله ييسره لليسرى! إذا رأيت منكراً فعوِّد نفسك ودربها على الحكمة في مدافعته،

وهي فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي لإزالته[١]، ولأَنْ تغضب لله فهذا حقٌّ، لكن أن تتصرف تصرفاً يوطد المنكر ولا يزيله أو يزيله ويخلف أكبر منه فهذا منكر، إن لم يكن لك سلطان ولم تكن لك قوة، فاقصر جهدك على إزالة المنكرات من القلوب، وحسبك الكلمة كما في حديثه ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه»[٢].

وخلاصة الأمر علينا أن نأتسّى بإبراهيم الذي قال الله جل وعلا فيه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء] وما أحوجنا في العمل الدعوي إلى الحكمة، إلى الرشد، إلى بعد النظر، ولنأتسي في ذلك بإبراهيم عليه السلام، فقد قال ربنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل]، والاستعجال طبع بشري، وفي الحديث: «ولكنكم تستعجلون»[٣]،

---

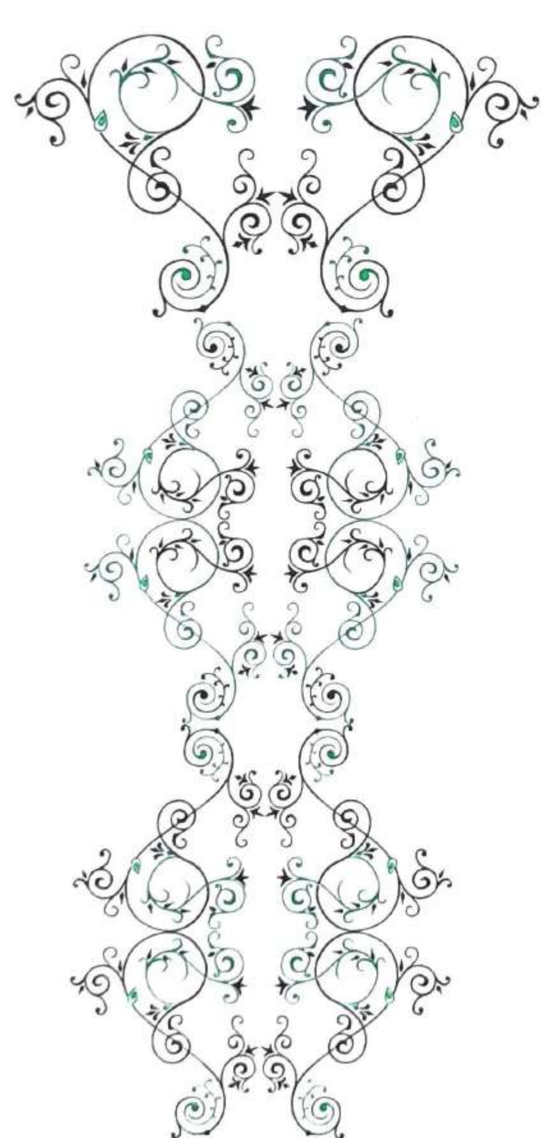
(١) انظر كتاب الحكمة للمؤلف.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

لكن مع المجاهدة والتواصي والتذكير يعين بعضنا بعضاً، وخير معين قبل ذلك وبعده اللَّجَأ إلى الله وسؤالُ التوفيق للرشاد، فبيده سبحانه وحدَه خزائن كل شيء، وهو الموفق للصواب: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة].

إبراهيم عليه السلام والمبادرة





إبراهيم عليه السلام والمبادرة

إنّ أمّتنا اليوم بحاجة إلى مبادرات إصلاحية في مجالات كثيرة، وبسبب ضعف المبادرة في الأمّة تأخرنا عن الأمم في كثير من شؤون الدنيا، وانعكس ذلك على قضايا الدعوة.

من سبق إبراهيم عليه السلام.

لقد كان الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، أصحابَ مبادرات شاملةٍ كبيرة، وهكذا الأئمة والمصلحون مِن بعدِهم، ومن المناسب في هذا المقام أن نعرض لبعض مبادرات إبراهيم عليه السلام، فهو إمام من أئمة الأنبياء، تميَّز بالبدار، وقد أُمرنا باتّباع ملته، والاهتداء بهديه، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل]، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام]، وقد عرضنا لشيء من مبادراته عليه السلام[1]، وذكرنا أن من مناسبة حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ أول من يُكسى يوم

(١) انظر ص٦١-٦٢ من هذا الكتاب.

القيامة هو إبراهيم عليه السلام»[1]، أنَّه كان سَبَّاقاً إلى الخير مبادراً إلى البِرِّ، ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النبأ].

وقد ثَبَت في الحديث الصحيح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنَّ إبراهيم أوّل من ضيّف الضيف»[2]، ومرَّ كلام ابن حجر وقوله: "ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة، منها أول من ضاف الضيف، وقصَّ الشارب، واختتن، ورأى الشيب وغير ذلك، وقد أتيت على ذلك بأدلة في كتابي إقامة الدلائل على معرفة الأوائل"[3]، وأنه أول من لبس السراويل، وأول من استحد[4]، قال السيوطي:"عن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٢٢ من حديث سعيد بن المسيب، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١٧٠)، ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في قرى الضيف، وابن أبي عاصم في الأوائل وغيرهم، وذكر ابن عبدالبر في التمهيد ٢١/ ٤٣ أن هذا ثابت،وحسنه الألباني.

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٩٠.

(٤) انظر البداية والنهاية ١/ ٢٠٢.

يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام أول الناس ضيَّف الضيفَ، الحديث وصله بن عدي والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وأول الناس اختتن، وأولُ الناس قص شاربه، وأول الناس رأى الشيب، زاد ابن أبي شيبة عن سعيد وأول من قص أظافره، وأول من استحد، وزاد وكيع عن أبي هريرة وأول من تسرول، وأول من فَرَق، وللديلمي عن أنس مرفوعاً أنه أول من خضب بالحِنَّاء والكَتَمِ، ولابن أبي شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه أنه أول من خطب على المِنْبَر، ولابن عساكر عن جابر انه أول من قاتل في سبيل الله، وله عن حسان بن عطية أنه أول من رتَّبَ العسكر في الحرب ميمنةً وميسرة وقلباً، ولابن أبي الدنيا في كتاب الرمي عن بن عباس أنه أول من عمل القِسِيَّ، وله في كتاب الإخوان عن تميم الداري مرفوعاً أنه أول من عانق، ولابن سعيد عن الكلبي أنه أول من ثَرَدَ الثَّرِيد، وللديلمي عن نُبَيْطِ بنِ شُرَيْط مرفوعاً أنه أول من اتخذ الخبز المبلقس[1]، ولأحمد في الزهد عن مطرف أنه أول من راغم"[1]، وهكذا

(١) انظر نسخة نبيط بن شريط (٨)، قال والخبز المبلقس: خبزة كاللبنة، فيها أربعة أرطال، منسوب لبَلَّقس قرية بشرقي مصر انظر تاج العروس ١٥/ ٤٦٧.

مبادرات عليه السلام في شؤون مختلفة، سننِ فطرة، وعباداتٍ، وأعمالِ برٍ نفعها متعد، وأعمالٍ حضارية، وعسكريةٍ، واجتماعية، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، «ومن سنّ في الإسلام سنّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده»[2]، أما في الدعوة فقد كانت مبادراته عليه السلام كثيرة ذات شأن عظيم، أعظمها المبادرة إلى دعوة التوحيد في مجتمع لا يعرفها، حيث أنكَر ما عليه قومه من الشرك وعبادة الكواكب والأصنام، وهذا الضرب من المبادرة شأن سائر الرسل، من لدن نوح وهلم جراً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون]، ما سمعنا بهذا! ما سبقك إليه أحد! هو خلاف ما وجدنا عليه الأمور!

وقال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا

---

(١) تنوير الحوالك ١/ ٢٢٠.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[القصص]، وقال في شأن محمد ﷺ مع الكفار: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾[ص]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[الزخرف]. وهذا الشأن؛ شأن إصلاح العقائد أولى ما يَبْدَأ به الدعاة، وأولى ما يُبَادرُ إليه، فالتوحيد والعقيدة من أجلِّ الأمور، وتلك سنة رسل الله في الإصلاح.

مبادرات الصالحين

إن الله تعالى يذكر في القرآن الكريم هذه المبادرات لإبراهيم عليه السلام، ويذكر مبادرات أخرى لغيره مشيداً بها لينبنيَ فينا حبّ المبادرة إلى الخير، إنها دعوة لاقتفاء أثر أولئك المؤمنين الأفاضل، من الأنبياء وأتباعهم، ومما ذكره لأتباع الرسل من المؤمنين الطيبين:

مبادرة الرجل المؤمن من آل فرعون إلى نصح موسى، كما قال جل وعلا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[القصص].

وكذلك كان موسى مبادراً إلى الخير قبل النبوة، ومن ذلك خبره في مدين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]

وقد خلَّد سبحانه مبادرةَ رجل أخرى في دعوة قومه إلى اتباع الرسل فقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس].

وأشاد بمبادرة امرأة فرعون إلى الإيمان بالله تعالى دون سائر أهل بيته، وضربها مثلاً للمؤمنين، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [التحريم]، وكانت من قبل بادرت فمنعت قتل موسى لمّا أرادوا قتله، فما أعظم بركتها، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص]، الله فنفعها بموسى، وقد أثنى عليها

النبي ﷺ، وذكر أنّها من النساء اللاتي كمُلن، كما في حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «كمُل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنتِ عمران، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام»[1].

وصور المبادرات ومواطن السبق التي خلدها الله تعالى في القرآن لتربي في الأجيال المسلمة حبَّ المبادرة إلى الأعمال الفاضلة كثيرةٌ، ثم جاءت سنة نبينا ﷺ، ووطدت معانيها بالنصوص النبوية، وبأفعاله ومواقفه عليه الصلاة والسلام، فقد كان نبينا ﷺ صاحب مبادراتٍ، وسيرته مليئة بالمواقف والعِبر في هذا الصَّدد، حتى قبل بعثته، فقد بادر من تلقاء نفسه إلى التحنّث؛ فكان يذهب إلى غار حِراء، ويمكث فيه الليالِيَ ذوات العدد، يتعبَّد فيها، مع أنه نشأ في مجتمعٍ جاهليٍّ لايؤمن بيوم آخر وبعث ونشر وقيامة. ولو ذهبنا لاستقصاء مبادراته عليه الصلاة والسلام لطال المقام، فهو صاحب السُّنَّة الأولى، النبي المقتدى، والرسول المتبع.

(١) متفق عليه رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

لا يضير المبادر عدم الاستجابة له

إنه لا يضير المبادر شيئاً إن لم يسمع له أو أخفق، فهذه آسية امرأة فرعون قُتلت فضُرِبت للمؤمنين مثلاً وإنها لمن أهل الجنة قرنها الله بمريم أم عيسى -عليهما السلام- بل قدمها في الذكر عليها، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة لنصرة الرسل الثلاثة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس]، قتل -كما ذكر المفسرون[1]- فكان ماذا؟ فاز وربِّ الكعبة! ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[يس]، وأثبت الله نعمته الدينية على رجلين نصحا ولم يُسمع لهما، فخلد ذكرهما بمبادرتهما التي لم تُسمع، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة].

المبادرات تتنوع

سبق إبراهيم عليه السلام في أمور مختلفة، وهكذا فإنَّ المبادرات تتنوع،

---

(١) كابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣١٩٢، وابن جرير ١٩/ ٤٢٤، والقرطبي ١٥/ ١٩، وابن كثير ٦/ ٥٧١.

وفي القرآن الكريم مبادرات شتى ليست سواء، فلا تحقرن المبادرة إلى فضلٍ قليل، فإن البِدار يعظِّمه، فللسبق مزيَّتُه، وللأولَّية فضلُها، وقد ثبت عند مسلم أن رسول الله ﷺ ندب يوماً الناس إلى الصدقة، فقال: «تصدق رجل من ديناره، من دِرهَمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة»، فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة، كادت كفُّه تعجز عنها، بل قد عجزت! قال الراوي: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، ورأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً؛ فله أجرُها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن يَنْقُص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيءٌ»[1]، فليس غُنْمُ ذا بصَرَّتِه، بل بصرته وثمرة مبادرته أن من جاء بعده في ميزان حسناته! ثم إن الذي لا يبادر في الأمور الصغيرة لن يبادر في الأمور الكبيرة، وقد قال

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلِق»[١]، وقال: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِنَ شاةٍ»[٢].

فانظر إلى حالك هل أنت مبادر؟ هل أنت صاحب سبق في نجدة أمّتك، في نفع قومك، في إفادة عائلتك، في خدمة أهلك؟ لا تقل لا أستطيع فالأبواب كثيرة، انظر في تاريخك؟ وحاسب نفسك في ما مضى من عمرك؟ فإن وجدت خيراً فاحمد الله على ذلك؛ فهو فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى فبادر! نعم بادر إلى المبادرة تحمد العاقبة فالأعمال بالخواتيم.

من صفات المبادر

إنَّ من صفات المبادِر؛ الجدّ والحرص والصدق، والتهيّؤ لاغتنام الفُرص، فعلى المُبادر أن يدقق النظر ويلاحظ، ويغتنم الفرص، ويستثمر الظروف. كما فعل عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنِ بنِ حُرْثَان الأَسَدي رضي الله عنه لمّا ذكر النبي ﷺ السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، فلمح عُكَّاشة رضي الله عنه

(١) حديث أبي ذر رضي الله عنه في صحيح مسلم (٢٦٢٦).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البخاري (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠).

هذه الفرصة واقتنصها حيث قال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: له النبي ﷺ: «أنت منهم» ثم يأتي آخر ويقول: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة»[1]. اغتنم عكاشة فرصة، والفرصةُ إذا ذهبت لا تعود.

ومن صفات المبادر أيضاً الفاعلية والإقدام والشجاعة والثقة والاستعداد للتضحية، وقد قيل:

لولا المشقّة ساد الناس كلُّهمُ ... الجود يُفقر والإقدامُ قَتّالُ

لكن الله يخلف خيراً، فالجودَ لا يُفقر، بل يُغني بإذن الله ويزيد في حسناته، والإقدام كثيراً ما يهب الحياة!

ومن صفات المبادر علو الهمة والصبر على السعي الدؤوب، وقد قيل:

ولم أجدِ الإنسانَ إلا ابنَ سعيهِ

فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠)(٣٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وباِلهِمَّــةِ العَليـاء يُرقى إلى العُــلى
فمـن كان أعلى هِـمّـةً كان أظهـرا
ولم يـتأخّـر مَن يـريــد تقــدُّمــاً
ولـم يتقـدَّمْ مــن يـريـد تـأخُّــرا

ومن أهم صفات المبادر القدرة على القيام بما يريد أن يبادر إليه. والقدرة قد تشمل أموراً تتجاوز مفهومها الضيق، منها حسن التخطيط، وتحديد الأهداف، وابتكار أجدى الوسائل، وجمع الجهود؛ ومن هنا كانت حاجتنا إلى العمل المؤَسَّسي كبيرة، فإن تحديات الواقع تفتقر إلى عمل كبير، وجهود متضافرة ترقى بالأمّة، أما الأعمال الفردية فتبقى محددة التأثير إلّا في حالاتٍ استثنائية.

العناية بغرس الفاعلية وحب المبادرة في النفوس

إن على المربّي معلماً أو والداً، أن يغرس في نفوس من يعتني بهم حب المبادرة، ومزية السبق للخير، فيشجعهم عليه منذ الصغر، لتكون منهم الشخصيات الفعّالة المبادرة، فإن ذلك من التربية الطيبة والإنبات الحسن، ومن ذلك تعويد الأطفال على المبادرة إلى إكرام

الضيف، وإغاثة الملهوف، وإعانة المُعسر، ابدأ معهم بالأمور اليسيرة وسيَيَسرُّونك بإذن الله في الأمور الكبيرة! وبالمقابل فإن من الخلل الذي تترتب عليه آثار بعد سيئة منع الصغار من المبادرات الصغيرة، والبذل القليل، وبعض الآباء يحسب أنه يحسن إذ كان مبادراً للطفل وحاجاته، غيرَ مكلِّفٍ له بأية مبادرة أو حاجة! وهذا في حقيقته إفساد للطفل، وضربٌ من التَّدْلِيلُ تُخشى مغَبَّتُه. فاستدركوا الأمرَ أيها الآباء وأيتها الأمهات، أيها المعلمون، وأيها المربّون، أيها العلماء وأيها الدعاة، وجّهوا الأمّة إلى المبادرات كما كان إبراهيم عليه السلام، حضوا بنيها على المبادرات وابتدروا أنتم المشروعات لتتكسر كثير من العوائق النفسية، والحواجز الوهمية التي تُوضع أمام كثير من المبادرات إلى الخير، ومن استعان بالله كفاه.

من نصوص القرآن في الحض على المبادرة في الخير

إن كثيراً من آيات القرآن الكريم تغرس في نفس المسلم تفخيم أمر المبادرة إلى الخير، فقد أثنى الله على أهل السبق بالفضل في مواضع، كقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ [التوبة]، ويقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾ [الحديد]، ويقول سبحانه مخاطباً نبينا محمداً ﷺ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٤) ﴾[الأنعام]، فتأمل ما في هذا من الندب إلى الأوليّة والمبادرة بالخير، ويذكر سبحانه وتعالى قول موسى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾ [الأعراف]، ويذكر في القرآن الكريم ما قال السحرة لفرعون بعد أن آمنوا: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ

﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء]، وقال الله ﷻ مثنياً على أقوام: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤﴾ [آل عمران]، قال الطبري: "يبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك"[1].

وقال تعالى في شأن أنبيائه ورسله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء]، والمعنى يبادرون إلى عملها.

وقد أثنى الله على المؤمنين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون]، قال ابن جرير الطبري: "يبادرون في الأعمال الصالحة"[2].

(١) تفسير ابن جرير ٥/ ٦٩٩.

(٢) السابق ١٧/ ٧٢.

فالإسراع هنا مبادرة إلى فعل الخير، بل قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، والاستباق أبلغ من المسابقة، فهو افتعال بمعنى صيروا أو كونوا سابقين، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)﴾ [آل عمران].

من نصوص السنة في الحض على المبادرة إلى الخير

وأما في السنَّة فالأخبار التي تؤكد أهمية غرس معنى المبادرة في الخير، والاستباق إلى المكرمات كثيرة، كالذي ذكرناه من خبر عكَّاشة، وكالذي مرَّ من قصة حديث «من سَنّ في الإسلام سنّة حسنة»[١].

وقد قال الإمام النووي رحمه الله في رياض الصالحين: «باب في المبادرة إلى الخيرات وحث من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد»، وأورد فيه ثمانية أحاديث:

الأول: حديث أبي هريرة عند مسلم: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وانظر ص٣٢٢ وص٣٢٤.

كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1]، ودلالته ظاهرة.

الثاني: عن أبي سِروعَة -بكسر السين المهملة وفتحها- عقبة بن الحارث ﵁ قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى قد عجبوا من سرعته، قال: «ذكرت شيئاً من تبر عندنا فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته»[2] قال الشيخ ابن عثيمين: ففي هذا المبادرة إلى فعل الخير وأن لايتوانى الإنسان عن فعله، وذلك لأن الإنسان لايدري متى يفجأه الموت فيفوته الخير، والإنسان ينبغي أن يكون كيساً يعمل لما بعد الموت ولا يتهاون، وإذا كان الإنسان في أمور دنياه مبادراً مسرعاً ينتهز الفرص، فإن الواجب عليه في أمور أخراه أن يكون كذلك بل أولى، قال الله تبارك تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]، وفي هذا دليل على أن رسول

(١) صحيح مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) صحيح البخاري (٨٥١).

الله ﷺ أسرع الناس مبادرة إلى الخير... والمهم من هذا الحديث المبادرة بفعل الخيرات، فلا تتهاون واعلم أنك إذا عودتَ نفسَك على التهاون اعتادت عليه، وإذا عودتها على الحزمِ والفعل والمبادرة اعتادت عليه.

الثالث: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال : «في الجنة»[(١)]، فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل. متفق عليه.

وفي هذا الحديث دليل على مبادرة الصحابة رضي الله عنهم على الأعمال الصالحة، وأنهم لايتأخرون فيها، وهذا شأنهم وبهذا كانت لهم العزة في الدنيا وفي الآخرة، ونظير هذا أن النبي ﷺ خطب الناس يوم عيد ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن وأمرهن بالصدقة فجعلت المرأة منهن تأخذ قرطها وخاتمها وتلقيه في ثوب بلال يجمعه حتى أعطاه النبي ﷺ، ولم يتأخرن رضي الله عنهن بالصدقة بل تصدقن حتى من حليهن[(٢)].

الرابع: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أي

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٤)، ومسلم (١٨٩٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٨٨٥) وهذا سياق له بالمعنى.

الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت الحلقوم. قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[(١)].

فبين أن المبادرة بالصدقة، خير من تأخيرها.

الخامس: عن أنس ﷺ، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «من يأخذ مني هذا»؟ فبسطوا أيديهم، كل أناس منهم يقول: أنا أنا. قال: «فمن يأخذه بحقه»؟ فأحجم القوم، فقال أبو دجانة ﷺ: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين[(٢)]. فحمد ذلك لأبي دجانة ﷺ إذ بادر وحده.

السادس: عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك ﷺ فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج. فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌ منه حتى تَلقوا ربَّكم»، سمعته من نبيِّكم ﷺ[(٣)]. وشاهده في

---

(١) متفق عليه رواه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٤٧٠).

(٣) رواه البخاري (٧٠٦٨).

الباب أنه إذا ثبت أن كل زمان آت فهو شر مما بعده دعاك هذا إلى اغتنام الزمان الذي أنت فيه والمبادرة وترك التسويف.

السابع: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً. هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[1]! وهذا الحديث فيه الحث على المبادرة، والتحريض عليها بذكر القواطع التي قد تصب المتأخر المسوِّف، وجلها لا تؤمن بغتته، فالعاقل من اعتبر وبادر.

والمقصود أن المبادرة إلى الخير حثت عليها الأدلة من الكتاب والسنة. ومع ذلك يوجد عجَّازون يثنون على العجز على حد قول الأول:

يرى الجبناءُ أنّ العجز حزمٌ   وتلك خديعة الطبع اللئيم

فهم باسم الحكمة يتأخرون عن المبادرة إلى إغاثة الملهوف، ومساعدة المجاهدين، وهذا كما قال الشاعر هو اللؤم.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) وسنده ضعيف جداً.

فاختر لنفسك أحدَ أمرَين، إمّا أن تكون متقدّماً أو أن تكون متأخّراً، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدّثر]، وخذ هذه القاعدة الكونية والسنّة الربّانية، مَن لم يتقدّم فهو متأخّر.

المبادرة إلى الخير من الطبائع السوية

إنَّ من طبائع النفوس السوية حبُّ المبادرة إلى الخير ولهذا كان الناس يعدونه منقبة فيمدحون المبادرين إلى المعالي ويذمون المتأخرين عنها والبطّالين.

وقد قالوا في هجاء بعضهم:

إذا ابتدرَ الرجالُ ذُرى المعالي   مسَابقة إلى الأمرِ الخطير
تعثر في غبارِهِمُ فُلانٌ   فلا في العِير كان ولا النَّفير

وقيل لرجل: أَوص؛ فقال: أحَذِّرُكم سوفَ.

قال بعض العقلاء:

والمرء مرتهنٌ بسوف وليْتَني   وهلاكُه في سَوْفِه واللَّيْتِ!

ووصف أعرابي رجلاً فقال: هو وساع إلى الخير، قَطُوفٌ عن الشرِّ.

فسارع إلى ما رُمتَ ما دُمتَ قادراً   عليه فإن لم تُبصر النجح فاصبرِ

إذا نامَ غرٌّ في دجى الخَطْبِ فاسهر　　وقم للمعالي والعوالي وشمّرِ
وخلِّ أحاديث الأمانِ فإنّها　　عِلالة نفس العاجز المُتحيِّر

الفرق بين المبادرة والعجلة

بعد ما تقدم تحسن الإشارة إلى أنّ هناك فَرْقاً بين المبادرة والعجلة المذمومة؛ فالمبادرة إتيان شيء على وجهه في موعده، بأولية، أو سبق وعجلة، فالعجلة في وقتها إذا جاء الفعل على وجهه الكامل مبادرة محمودة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه]، فهذه مبادرة إذ جاء موسى إلى ميقات ربه في موعده الذي قضاه، كما قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]، ثم قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣]، وأما السؤال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه]، فللناس فيه كلام مشهور، لكن ما قدَّمتُه يشعرك بأن المعنى المراد لم فارقت مَن أمرت باختيارهم للميقات، لهذا كان جوابه غير مطابق للسؤال بادي الرأي إذ قال: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾،

وقد كان ظاهر السؤال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾؟ لكنه لمّا علم عليه السلام أن مَقدَمَه كان في الميقات، وكان ينبغي أن يكون معه من اختارهم للميقات، عَرف المراد من السؤال، فاعتذر بأنهم على أثره قريبون منه.

أما العجلة فإتيان الأمر قبل أوانه، أو في أوانه بسرعة تُفسد أداءه على وجهِه.

والأمة اليوم بُليَت بعددٍ من المتعجّلين هداهم الله، لا نشكّ في نيّاتهم ولا في صدقهم، ولكنهم كما قال النبي ﷺ: «ولكنكم تستعجلون»[1]، فلهؤلاء يقال ما قال الأول:

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

وأي زلل! زلل قاد بعضهم إلى أن يهلك الحرث والنسل!

وقد سبق لنا قبل الحديث عن مبادرات الخليل عليه السلام، الحديث عن رشاده وحكمته وحسن تخطيطه وإحكام أمره[2].

وهكذا كثير من الأمور لابد من دراستها قبل أن نُقدم عليها،

---

(١)أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢)انظر ص٣٠٣ من هذا الكتاب، والإحالة فيها وما بعدها.

ولاسيما المشتبهات التي لأهل العلم والنظر والديانة فيها كلام، لابد من دراستها والسؤال عنها، والمشاورةِ فيها، على الأقل من باب السياسة الشرعية، التي تُمَهِّدُ للأمر، وانظر إلى إبراهيم عليه السلام مع مبادراته لتنفيذ أوامر ربه، كيف شاور ابنه تمهيداً لما أمر به: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات:١٠٢]؛ فإذا صح أن يكون لهذا السؤال وجه صحيح مع الأمر الصريح، فكيف بالأمور المشتبهة؟ كيف بالأمور التي يخالف في مشروعيتها كثير من أهل الديانة؟ فتأنى وادرس مشاريعك الإسلامية من هذا الضرب مع مشايخك، مع أهل العلم والنظر، مع أهل الخبرة والتجربة قبل الإقدام عليها.

المبادرة إلى المعصية والإثم

إذا ما رأيتَ الشرّ يبعث أهله ... وقام جناة الشرِّ بالشرِّ فاقعدِ

ولآخر:

وإذا تشاجر في فؤادك مرّةً ... أمرانِ فاعمَد للأعفِّ الأجملِ

وإذا هَممتَ بأمرِ سوءٍ فاتَّئد ... وإذا هَممتَ بأمرِ خيرٍ فاعجلِ

إن المسارعة كما تكون في الخير تكون في الإثم والعدوان، وما أكثر المشجعين حينها! ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [المائدة]، قال ابن كثير: يبادرون إلى ذلك[1]! إن في مجتمعاتنا اليوم أُناسٌ يبادرون، ولكن يبادرون إلى السيّئة، كثير من المنافقين والعلمانيين وأعداء الدين، ومن حلفاء اليهود والنصارى، قدّموا مبادرات، ولكنها مبادرات تُفسد ولا تُصلِح، هؤلاء لهم من الوزر مثل أوزار من تَبعهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، أولئك أشقى القوم، إن أطاعهم المجتمع أو سكت عنهم مقراً قادوه نحو الهاوية كما قاد أحمر عاد قومه بمبادرته المشؤومة! ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس]، فواجبنا أن نقف في وجه مبادرات الفساد، فإنها إن تركت أهلكت البلاد وأفسدت العباد.

---

(١)تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤٤.

مواطن تتأكد فيها المبادرة

هذا، ولا بدَّ لي أن أذكِّر بمَواطن تتأكّد فيها المبادرة أكثر من غيرها، فمن ذلك:

المبادرة بالأعمال الصالحة عند الفتن، كما قال ﷺ: «بادروا بالأعمال فِتناً كقطع الليل المظلم»[1]، وهذا الحديث في مسلم، وفي الحديث الآخر: «بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلّا فقراً مُنْسياً» الحديث المتقدم[2].

ومن المواطن التي تتأكد فيها المبادرة عن العقلاء ما جاء في إنشاء بعضهم: مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول الضئيلة قبل أن تغلظ، أحزم في الرأي، وأصح في التدبير من التأخير لها، والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

كذلك ثمة أمور لا تحتمل التأخير إما لضيق وقتها أو خطر التأخر فيها، فتجب المبادرة حينها، وقد قيل:

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ص٣٣٣، وقد أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بادر الفرصة واحذر فَوتها   فبلوغ العِزِّ في نَيل الفرص

وابتدر مسعاك واعلم أنّ مَن   بادر الصيد مع الفجر قَنَص

ومن المبادرة الطيبة المباركة التي لا تحتمل التأخير مبادرة ذلك الرجل من قوم فرعون راكضاً والقوم مجتمعين لينذر موسى، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص]، فذكر مجيئه لموسى سعياً، وعبر بالفعل المضارع: ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ ليشعر بأمر يجري، فجاء يسعى إذ الشأن لا يحتمل التأخير.

كذلك الساحة قد تتطلب مبادرة لأعمال مختلفة يخشى أن يَسْتَولي على أمَد السَّبق فيها من لا خلاق له فيُفسد.



إبراهيم عليه السلام والحوار

إبراهيم عليه السلام والحوار

ذكر الله تعالى في القرآن حوار الرُّسل لأقوامهم، أجمل ذلك في مواضع وفصلها في أخرى، فذكر حوارهم جملة في نحو قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم].

وذكر تعالى بشيء من التفصيل حوارات بعض الأنبياء، كموسى وعيسى، ونوح عليهم السلام، ومن ذلك ذكره تعالى محاجة إبراهيم عليه السلام ومجادلاته في مواضع كثيرة.

وينبغي أن تكون لنا وقفة مع موضوع الحوار جملة، وحوارات إبراهيم عليه السلام خاصة، فإن الحاجة تشتدّ اليوم إلى معرفة بعض الأصول في هذا الصدد، حيث زلّت في شأن الحوار أفهام وعقول، فغدت باسم الحوار تُناقش الثوابت، لا من أجل هداية الطرف المُناقش، وإنما من أجل التنازل أو التوصل إلى حل وسط يلغي بعض الحق وبعض الباطل! لقد غدا الحوار عند بعضهم هدفاً مراداً لذاته! فمن أجل الحوار يتخلّى عن مُسلَّمات من مُسَلَّمات الدِّين! وباسم الحوار يَظْهَر لأصحاب الأديان المحرّفة المنسوخة، أنّ أديانهم صحيحة أمام الناس!

فكان من ثمرة ذلك أن وجدنا بعض المنتسبين إلى الإسلام يكتب أحدهم فيقول: إن المسلمين يقولون: إنا على الحق، واليهود يقولون: نحن على الحق، والنصارى يقولون: نحن على الحق، فمن هو الذي على الحق؟!

الحاجة للحديث عن الحوار

إن الحوار قضية كبيرة فيها مسالك خطرة؛ ولأهميتها ولحاجة البشرية إليها، جاء تأصيلها في القرآن العظيم، وفي أخبار إبراهيم ﷺ إضاءات تكشف طريق الحق لمريده، حيث تعدّدت حواراته ما بين مناقشة ومجادلة ومحاجّة لبيان الحق، والناس اليوم بين طرفين ووسط في شأن الحوار: طرفٌ يُريد أن يُناقش المسلّمات والثوابت على سبيل البحث فيها والنظر، وطرفٌ لا يريد أن يناقش في شيء، ولا أن يحاور في شيء، والوسط هو الذي يتّبع منهاج القرآن والسنة فيميز بين الحوار الذي يبحث في حقوق شخصية، وقضايا حياتية، فيتسامح فيه ما لا يتسامح في ما ليس له التسامح فيه! وينزل فيه إلى حلول وسط وربما دون الوسط بطيب نفس، بخلاف الحوار الذي يبحث في أصول الدين وثوابت الشريعة ومحكمات النصوص، فإن المسلم إنَّما يحاور في هذه ليدعو إلى ما تقرر عنده، غير هيَّاب ولا متشكك، وبين هذا وذاك قضايا مشتبهة قد يحاور المرء فيها ويناظر ليستبين موضع الحق أهو معه أم مع غيره أم بينهما؟ ومتى استبان صار إليه حيث هو.

ثم هو في كل تلك الأنواع يلتزم الأدب الداعي للقبول وإثمار الحوار، فيدخله بعدل وإنصاف، ويفارقه بحكمة وإحسان، حتى وإن كان الحوار في الأصول لتقريرها، كما في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

حاجة الدعاة إلى الحوار

إن الحوار من أهم أسباب الوصول إلى القناعات، فبالحوار تتكشف الحقائق وتزال الإشكالات، ولهذا فإنه لابد للدعاة من إتقان طرائقه والتزام آدابه، بل لابد لكل منّا منه! فحاجتنا إلى الحوار متحققة في البيت مع الزوجة مع الأبناء بل حتى مع النفس! ومن السهل أن يقود المرء أجسام الناس بالقهر! إذا كانت لديه بعض قدرة على ذلك والسلطة، ولكن فرق بين أن تقاد الأجسام بالقهر، وبين أن

تنقاد القلوب سلسلة طائعة، وكل الخير في هذا القياد الأخير. خذ مثالاً على ذلك رجلين: رجل يأمر أبناءه الصلاة بعد أن ملأ قلوبهم حبًّا وتعظيماً لله تعالى بالحوار والإقناع، فإذا أيقظهم لصلاة الفجر قاموا مستيقظين نشيطين فرحين، ورجل آخر إذا أذّن المؤذن لصلاة الفجر، وقف على رؤوس أولاده يأمرُهم ويزجرهم بل قد يضربهم فهم ينقادون له، ولكن إذا غاب يوماً تخلّفوا عن الصلاة!

الأول قاد بالحوار قلوب أبنائه، والثاني قاد أجسامهم بسلطته وقهره، فمتى وجدوا فرصةً هربوا، كذلك شأن الناس معاشر الدعاة إلى الله! إذا انقادوا بالقهر تفلتوا ما إن سنحت لهم سانحة! أما إذا كان انقيادهم ناشئاً عن قناعة فسوف تنقاد القلوب بغير جهد، وسوف تلتزم بما قنعت به دون رقابة.

يذكر أن هارون الرشيد -وهو من هو كان يحج عاماً ويغزو عاماً، ولكن أساء إلى سيرته بروايات لا تصحّ بعض المؤرخين- هارون الذي بلغ من ملكه أن يخاطب السحابة فيقول: أَمطري حيث شئتِ فإنّ خراجَك سيأتيني، قدِم هذا الخليفة كبير الشأن الرَّقَّة، وكان حوله

الناس، ثم لم يلبث أن انجفلوا عنه خلف رجل وَرَدَ، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من قصر، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم أهل خراسان قدم الرَّقة يقال له عبد الله بن المبارك.

فقالت: هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان(1).

وهذا هو الفرق بين قيادة الناس بالقهر والغلبة، وبين قيادتهم بالحجة والبرهان، والحوار البَنَّاء، فلهذا سلطان أعظم من سلطان القهر والسيف، ولهذا يجيء وصف الحجة بالسلطان كثيراً في القرآن، بل قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام لّما بعثهما لأحد أكابر المجرمين من سلاطين القهر والجبورت، لّما بعثهما لفرعون، قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦)﴾ [هود]، فالسلطان المبين مع موسى وهارون، وليس هو سلطان فرعون.

إن حاجتنا للحوار تتجاوز الآخرين أو البعيدين، بل قد يحتاج

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٤، وصفة الصفوة ٤/ ١٣٧.

المرء للحوار مع نفسه! فيقودها إلى أداء الواجبات والفرائض بانشراح ومحبّة ورغبة، وقد كانت للسلف مع أنفسهم حوارات معلنة مثمرة، ألم تسمع قول ابن رواحة:

يَا نَفْسُ إلّا تُقْتَلِي تَمُوتِي ... هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيَتْ

وَمَا تَمَنَّيْت فَقَدْ أُعْطِيَتْ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيَتْ!

لابد من الحوار لكي تُربّي أبناءك، وتقنع زوجتك فتنقاد راضية محبة. وبهذه المناسبة بعض الناس يفهم قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤] فهماً خاطئاً؛ فليس لديه إلا الأوامر المباشرة: افعلي أو لا تفعلي، وقد تخدمه زوجته، ولكنها تخدمه وهي كارهة، قد تقضي حاجته وهي نافرة، فقد سلّمت له جسدَها دون قلبِها، أما بالحوار الحسن، فإنك تستطيع أن تقود نفسك، وأن تقود زوجتك، وأن تقود أولادك. وتستطيع الزوجة أن تقنع زوجها بما تُريد بالحوار الهادئ واللفظ الجميل، لا بالصراخ والعويل والغضب واللجاج، وبالجملة بالحوار المهذب تطمئن البيوت، ويحصل السكن.

من محاورات إبراهيم

وإبراهيم عليه السلام عاش بين قومٍ أصحاب فلسفة وجدل[1]، فخاض غمار مناظرات، وكانت له مع القوم صولات وجولات، من تدبرها خرج بفوائد جمة في موضوع الحوار. ولم تقتصر حواراته على ذلك، بل ذكر الله عز وجل في القرآن حوارات أخرى له عليه السلام، حوارات دعوية حانية كحواره مع أبيه، حوارات مع الملائكة، ومع ابنه، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات]، فهذا شكل من أشكال الحوار، والحوار مع الأبناء له فوائد تربوية ونفسية كثيرة.

ومن أخبار حواره العجيبة مجادلته في قوم لوط، ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود]، ولعل المراد بالجدال هنا أصله الذي يفيد استحكام الشيء في استرسال يكون فيه[2]، كامتداد الخصومة أو طول المراجعة، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ

---

(١) انظر ص١٦٩ من هذا الكتاب.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٨٩.

سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة: ١]، فسمى حوارها مجادلة لاسترسالها فيه، وكذلك شأن إبراهيم مع الملائكة في قوم لوط، قد ساق المفسرون من الأخبار ما يشهد لهذا المعنى[1]. والحوار مراجعة الكلام مطلقاً، ثم قد يكون مجادلة أو غيرها كالمناظرة والمحاجة، ثم المجادلة على ضربين؛ ضرب فيه مخاصمة أو تفاخر، وضرب فيه طول كلام واسترسال، والضرب الأول أكثر وقوعاً في القرآن.

وعوداً إلى حواراته عليه السلام، فمما يمكن أن يجعل في عدادها حواره مع ربه سبحانه وتعالى كما في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا

(١) انظر ص٩٣ من هذا الكتاب.

﴿يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة]، وهذا الضرب من الحوار مخصوص في الدنيا بالأنبياء المكلمين.

ومن حواراته عليه السلام مناظرته لقومه، ومحاجته للذي آتاه الله الملك، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة]، والمحاجة: المجادلة مع الإتيان بالحجة والبرهان، أو منازعة البرهان بين المتجادلين. والغرض من ذلك أن يبيِّن كل واحد منهما أن الجادة في قوله والصواب حيث قصد.

ومن حواراته عليه السلام مناظرته لقومه من عُبَّاد الكواكب وقد مضت الإشارة إلى بعض فوائدها[1]، والتنبيه على حكمته وتدرجه فيها.

ومن حواراته عليه السلام حواره مع أبيه وقد سبق ذكره وبيان ما فيه من الأدب وما يكتنفه من الحرص والشفقة.

إلى غير ذلك من حواراته عليه السلام، ولكل واحد من أنواع الحوارات

---

(١) انظر ص٧٩، و ص١٦٨، و ص٢٩٧، و ص٣٠١، من هذا الكتاب.

الماضية أهداف تختلف بحسب المقام، فمنها التوجيه والإرشاد، والتعليم والإنباء، وبيان الحق وفضح الزيف، كما أن وراءه مقاصد أخرى منها التأييد والتثبيت، وإظهار الحق، وترسيخ الإيمان. وفيه من المعاني والفوائد غير ذلك.

وأعظم أغراض حوار الرسل للمخالفين من أقوامهم: إقامة الحجج، وإزالة الشبه، وحل الإشكالات، وقد تكون له أغراض أخرى، لعله يأتي لذلك مزيد بيان.

معالم وتوجيهات من حوارات إبراهيم

إذا تدبرت حوارات إبراهيم عليه السلام خرجت بجملة مبادئ وضوابط وتجيهات تفيدنا في موضوع الحوار، فمن ذلك:

الفرق بين التَنَازُلِ والتَّنَزُّلِ

فهو عليه الصلاة والسلام مع كثرة مناظراته وحواراته مع قومه، لم يتنازل لهم عن شيء من معتقده قيد أنملة، حتى بلغ بهم الحنق إلى إضرام النار العظيمة، ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الصافات]، وهذا يبين لك أن التوصل إلى حل وسط -كما يقال- لا يكون غرضاً

محموداً لمثل هذه الحوارات الدينية العقدية، نعم قد يكون غرض الحوار تصور ما لدى الآخر من الحجج والشبهات، وقد يكون الغرض منه دعوته، وقد يكون غرضه تعليمه، وقد يكون غرضه تصحيح خطئه، وقد يكون غرضه شرح وجهة نظر إسلامية له، لكن لا يكون غرضه تغيير معتقده أو تحريف شيء منه فضلاً عن التنازل عنه! بخلاف مناظرة المؤمنين أو محاورة بعضهم بعضاً، فهذا قد تدخلها آراء اجتهادية يجب أن توضع على طاولة البحث للنظر في صحتها، ويجب أن يكون التراجع عنها خياراً لازماً إن بدا لأحد المجتهدين خطؤه، ولهذا لمّا جادل عليه السلام الملائكة في قوم لوط، وعلم أن ما اعترض به غير متحقق، أعرض عن الجدال، كما قال الله تعالى له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾[هود]. أما مسائل الأصول، فما تراجع في مناظرة فيها قط، لكنه **استخدم أسلوب التَّنَزُّل**، وفرق بين التنازل والتَّنَزُّل الذي هو نقض احتجاج الخصم على فرض تَسْلِيم دليله غير المُسَلَّم، ومن ذلك مناظرته لقومه في عبادة الكواكب، وقوله هذا ربي، هذا ربي هذا أكبر، فهذا كله خرج مخرج التنزل، والمعنى: سلمت جدلاً أن هذا ربي، فهلم

ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه! ثم ذكر الدليل على عدم استحقاقه، وقد تقدم الحديث عنه، والتَّنَزُّل في المحاجة مما أرشد إليه الكتاب؛ فمنه قول الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الزخرف]، وكقول مؤمن آل فرعون الذي قصه الله: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ ﴾ [غافر: ٢٨].

الانتقال إلى الدليل الأظهر

وكذلك مما يسوغ في الحوار حول الأصول الانتقال، وهو إعراض عن اعتراض الخصم العليل على الدليل، واحتجاج بدليل أظهر لا يتطرق إليه تشغيبه[1]، كما فعل إبراهيم عندما جادل الملِك، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وكان ذلك في الأصول في رب إبراهيم عليه السلام، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ

---

(١) انظر ص٢٩٩ من هذا الكتاب.

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِ، وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]، فانتقل من دليل اعترض عليه الكافر باعتراض ضعيف -وقد مرَّ معنا- إلى دليل مفحم، فهذا نمط من الجدال يسوغ.

الفرق بين التنازل والتدرج مع المحاور

إن الحوار في أمور الأصول لا مجال فيه لتنازل المُحَاوِر عن بعضها بغية الوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف، نعم قد يكون من الحكمة أن يقبل المحاوِر من محاوره الاقتراب خطوات نحو الحق، ويفرح بذلك، لكن ليس له أن يتقدم خطوة واحدة نحو الباطل مختاراً، لا يحل لمن يعتقد أن دين الله يقضي بشيء أن يتنازل عن اعتقاد بعضه، ربما كان له أن يتدرج في إنفاذه حسب القدرة إن لم تكن له به قدرة كله، ربما كان له أن يقبل إتيان محاوره إليه شيئاً فشيئاً من قبيل السياسة إن عسر إتيانه مرة واحدة، لكن غايته واضحة وما يريده في النهاية لا يغيب عن عينيه. والمهم أن يعتقد المحاور الحق الذي ظهر له، ويدعو إليه، ويجعل الوصول إليه هدفاً له، وأن لا يرضى بحل وسط اختياراً.

أقول هذا لأنه الساحة اليوم تغص بمن ضلّ في هذه المسألة من منتسبي العلم والدعوة! جاؤوا يُساومون أعداء الله على المبادئ، كما هو الحال في كثير من حوارات الأديان، وحوار الدين حوارٌ جِدُّ خطير،

وكذلك الحال مع أناس يحاورون في مسائل البدع وأوصل السنة فرقاً كالرافضة، فلو أنّهم حاوروهم من أجل أن يُؤتَى بهم إلى الحق، وإلى السنّة، وإلى الإسلام، فحيّا هلا. ولكن مع كل أسف، يقولون لهم بلسان الحال: تنازلوا هنا ونحن نتنازل هناك! يشهدون زورهم ولا ينكرون، بدعوى التسامح مع الآخر! أخي الكريم: أهو مِلْكُكَ حتى تتسامح فيه أو تتنازل عنه؟ أهي أرضٌ فيها مشكلة كلٌّ منّا يتنازل عن جزءٍ منها؟ هذا دين الله جلّ وعلا، الذي قال لنبيه عليه الصلاة والسلام -وهو هو-! ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، إنه لا مجال للتنازل يسع المسلم عندما تطرح الثوابت، عندما تُطرح المسلّمات في المجالس النيابية والبرلمانات للتصويت، بل لابد من الصدع بالحق.

الحقوق الشخصية يمكن فيها التنازل

وهذا بخلاف الحقوق الشخصية والأمور المادية، فإن التسامح فيها والعفو مما يحمد في الصلح، ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقد قيل:

تجاوز ولا تستوف حقك كله   وسامح فلم يستوف قط كريم!

قال ﷺ: «كان تاجر يُداين الناسَ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنَّا، فتجاوز الله عنه»(١)، وفي الصحيحين أن كعب بن مالك تقاضى ابن أبي حدْرَد ديناً له عليه فلقيه في المسجد فلزمه وكلمه فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله ﷺ حتى كشف سجف حجرته، ونادى كعبَ بنَ مالك قال: «يا كعب»! قال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، قال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «قم فاقضه»(٢).

أغراض الحوار شتى والمحاوَرُون كذلك

الحوار الهادف قد يعرض لنا مع طبقات شتى من الناس ربما جمعتنا بهم جوامع مشتركة، بغض النظر عن صفاته الأخلاقية ووضعه الاجتماعي، سواءً أكان عظيماً مبجلاً، أم كان طاغية متسلطاً ظالماً كفره ككفر النمروذ، **أم** كان تقياً صالحاً كالملائكة، وسواء أكان والداً كما في

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه رواه البخاري (٤٧١)، ومسلم (١٥٥٨) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

حوار إبراهيم لأبيه آزر، أم كان ولداً كما في حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام، وقد نحتاج إلى الحوار الهادف مع أهل الأديان المختلفة، والمذاهب المتفرقة، ومع أهل المذهب الواحد، بل مع من هم أقرب من ذلك، فحوار الرسل مع أنبيائهم حوار بين أديان لا بغرض التوصل إلى حل وسط!ولكنه بغرض دعوة الضالين إلى صراط الله المستقيم، وحوار أهل الدين الواحد كثير كحوار موسى مع قومه، وحوار يوسف مع إخوته، وحوار بلقيس مع ملئها، وهو حوار يكون لأغراض شتى منها تقريب المحاوَر إلى الحق ودعوته إليه كحوار الأديان، ومنها معرفة وجه الصواب وكشفه، ومنها غير ذلك، وقد نحتاج إلى الحوار الهادف في كافة شؤون الحياة، اقتصادية وسياسية، واجتماعية، في البيت وخارجه، في أمر الدين والدنيا، وقد يكون الحوار بين اثنين، أو بين فرد ومجموعة، أو بين مجموعتين، أو بين قبيلتين أو بين دولتين، أو بين ممثلي مملكتين كما حدث في قصة سليمان عليه السلام وبلقيس، فهذه كلها أنواع تحتاجها البشرية في كثير من شؤونها، وقد تحتاج بعضها أنت في بيتك، مع جيرانك، في شركتك ومؤسستك.. إلى غير ذلك،ولهذا لابد أن نتدرب عليه ونعرف كيف نحاور الحوار الهادف المثمر، وما الذي يحسن أن ندخل

فيه، وما الذي يجب أن نحجم عنه، فثمة حوار يجب أن نكف عنه، وحوار هادف يجدر أن نشارك فيه.

الحوار المطلوب لا يحسنه كل أحد في كل وقت

الحوار الهادف يحتاج إلى تَعَقُّل، وإلى حكمة، وبُعد نظر، فليس كل إنسان يُحسن الحوار؛ أقول هذا لأن بعض الناس مع كل أسف نشاهدهم في بعض القنوات يدخلون في مناظرات مع الكفار أو مع أصحاب البدع أو أصحاب الضلال، ويُسيئون إلى دينهم بسبب ضعف حجّتهم، والناس عندما يرون حجّة أهل الباطل أقوى يتأثّرون بها، ولذلك نقول: لا يصلح كل إنسان أن يدخل في الحوار؛ لأن الحوار له مؤهّلات، والمحاور له صفات: منها العلم، ومنها القدرة على ضبط النفس، ومنها سرعة البديهة، ومنها استحضار الأدلة، وكل هذا نجده في شخصية إبراهيم عليه السلام، فقد كان سريع البديهة، حاضر الحجة، حتى إن الله تعالى نوّه بذلك فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام]، والذي يتأمل في حوارات إبراهيم يجد كلّ هذه الصفات ظاهرة بيِّنة في أسلوبه وهذا مما يساعده في إسكات خصومه، أو إثمار حواره، فإياك إياك أن تدخل في حوار لا تُحسنه أو جدال لم تتهيأ

له، حتى من الناحية النفسية، ففي بعض الأحوال يكون من الأحكم أن تأخر النقاش في موضوع مع الأبناء أو الزوجة، لعدم تهيؤك نفسياً، أو لانشغالك ذهنياً، وكذلك مع غير هؤلاء، وذلك لأن كثيراً من الحوارات غير المحسوبة تنتهي إلى خصومة، تبدأ من أجل حق أو خير، وتنتهي إلى خصومة وربما اشتباك بالأيدي! وقد رأيت بعض الحوارات، بدأت في مسألةٍ علميّة سهلة، بين أحبّة، بين إخوة، بين طلاّب علم، وانتهت إلى خصومةٍ شخصية!

وقد أعجبتني كلمة سمعتها من أحد طلاب العلم، يقول: إذا كانت المسألة سهلة وقد ارتفع صوت أحد المتحاورين؛ فاعلم أن عنده مشكلة، أو أنه يشعر بضعف حجته! فبمقدار ضعف حجّته أو عدم قدرته على بيانها، يرتفع صوته، وهذا يقع كثيراً، إذا ضَعُفَت الحجّة بدأ ارتفاع الصوت، وقد يصل أحياناً إلى الشتم والسِّباب، بل إلى الطعن في الأنساب! والمقصود ليس كل أحد مع إقرارنا بحاجته إلى الحوار في الجملة أهل أن يجادل كل أحد في كل وقت، بل من الحكمة أن تترك الحوار وأنت عليه قادر في بعض الأحوال، ومن ذلك النهي عن الجدال في الحج: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في

رَبَض الجنّة لِـمن ترك المِراءَ ولو كان مُحِقّاً»[1]، والمماراة جدل فيه تزيين من قول المماري وتصغير للقائل بخلافه، والمماراة مذمومة كلها، حتى وإن كانت بحق، لما تتضمنه من تجهيل وتكذيب يجعل من الجدال موضوعاً لضياع الأوقات بغير طائل ولا قبول، فمتى خشى المرء أن يخرج به الجدال إلى هذا الحد فليكف وليحجم عنه، وبعض الناس يُحبّ المماراة، همه التصغير والتحقير، والطعن والتفاخر، فحري بالعاقل أن يعرض عنه، وأن يتمثل قول الأول:

ولو أن كل كلب عوى ألقمته حجراً

لأصبح الصخـر مثقالاً بدينـار!

ولآخر:

نجا بك عرضك منجى الذباب   حـمتــه مقــاذيره أنْ ينــالا

ومــا كل كلـب نابـح يستفـزني   ولاكـلمـا طن الذباب أراع!

إننا قد نحتاج إلى أن نجادل أو نحاور أهل الأديان أو أهل البِدع، فإن كان ذلك فلابد من التزام الآداب الشرعية، والضوابط المرعية،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة ﷺ، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢٧٣).

وإلا فخير من حوار المماري الإعراض. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت].

وبالجملة الحوار مقدمة لما قد يأتي بعده من نتائج إيجابية، أو نتائج سلبية ولهذا لابد من العناية به، وإدراك ما قد ينجم عنه، وتحديد إمكانية خوضه من عدمها. وإلاّ لكان على أحسن الأحوال مضيعة للأوقات، وإهداراً للطاقات. وقد جاءت حوارات الخليل عليه السلام دالة على قوة ذهنه وحسن ترتيبه ووضوح هدفه من ورائها.

الحوار قد لا يثمر!

ومما ينبغي أن يوضع في حسبان المحاور مهما بلغ من العلم ومهما التزم من الأدب أنَّ الحوار ليس بالضرورة أن يثمر مع كل إنسان، قد يثمر مع بعض الناس ولايثمر مع آخرين، وقد لايثمر البتَّة، ولكن به تبرأ من العهدة وتسلم الذمة، فهذا إبراهيم يحاور أباه آزر ولكن دون جدوى، ويحاور النمروذ وتظهر له فيه الخوارق المعجزة ولكن دون فائدة، وكم قص الله علينا أخبار بلاد ومدنٍ وقرى وقرون قصمها وأهلكها بظلمها

وتكذيبها لرسلها الذين بُحت أصواتهم وذهبت أعمارهم في محاوراتٍ لم تثمر مع جمهورهم إلاّ إقامة الحجة عليهم، فهذا نبي الله نوح يبث شكواه إلى ربه بعد محاورات امتدت مئات السنين! ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح].

الحوار لغاية وليس هو الغاية

ومما يجب أن يوضع في حسبان المحاور أن حواره لغاية، وليس هو الغاية، له أمد وليس سرمديًا إن عاش! وتأمل حوارات الرسل، فكثير منها انتهى إلى تفاصل بينهم وبين أقوامهم، فهذا إبراهيم عليه السلام يعتزل قومه وأباه بعد أن أيس منهم، ومن ذلك نهاية حوار موسى لقومه على أبواب أرض العماليق، فعندما وصل بهم الحد إلى أن ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ
فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، فليس الغرض الحوار لأجل الحوار، وإنما لما يرجى من نتائجه المدروسة الشرعية، فإن قُطع بأنه لن يثمر فلا طائل وراء الاسترسال فيه، وكذلك إذا قطع الطرف الآخر أسبابه، ولكن لا يجزم بهذا قبل محاولته، فهذا موسى رغم ظروفه وخلفيته أمر بمحاورة فرعون ودعوته، وقد كان للحوار ثماره على بعض حاشية فرعون ومقربيه وسحرته وإن لم يثمر مع المتوجه إليه ابتداء.

الحوار قد يعلن وقد لا يناسب إعلانه

ومما يتعلق بمعالم الحوار التي رسمها الخليل عليه السلام التنبيه على تنوع طريقة الحوار الأمثل، فقد يكون من المناسب جعله سراً على سبيل النصيحة، وقد تقتضي أن يكون بين الملأ جهراً، منقولاً على الهواء مباشرة! فالأول مثاله حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، ومنه كذلك حوار يوسف ويعقوب عليهما السلام عندما قص عليه الرؤيا فأولها له أول مرة، وأما الحوار المشهود فكحوار إبراهيم مع قومه إبان تحطيمه الأصنام، وحواره معهم عندما استدل بالكواكب على بطلان عبادتها، وغرض الحوار وموضوعه وظروفه هي التي تحدد الأنسب بين غلقه وفتحه.

قد تسوغ الغلظة في الحوار على خلاف الأصل

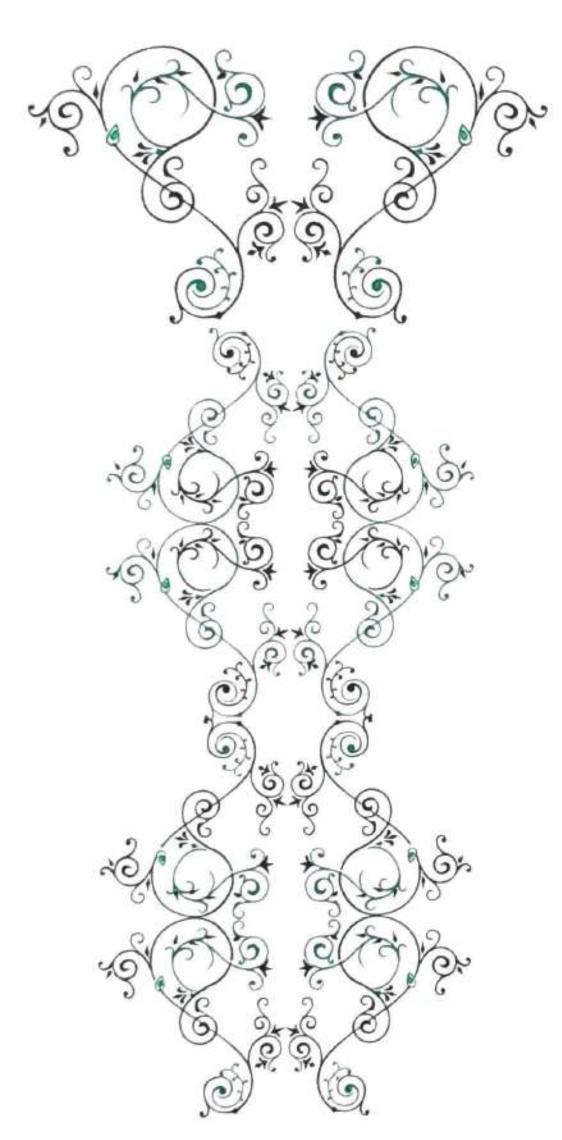
وأخيراً قد يقتضي وضع الحوار في نطاق ضيق استعمال عبارات شديدة الأصل عدم استخدامها، ولهذا لا تكاد توجد في حوارات القرآن الكريم إلاّ نادراً، كما في حوار موسى عليه السلام مع فرعون ﴿..فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]، ومنه قول الخليل لقومه: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

وبعض الناس يأخذ من هذه المفردات النادرة المستعملة على خلاف ما جرت به سائر المحاورات أصلاً له فيلتزمه في الجدال! والنتيجة أن يسيء إلى قضيته، ويعرف بالفظاظة وينفض عنه الناس! نعم هو استعمل الكلمة التي استعملها موسى، والأخرى التي استعملها إبراهيم، والثالثة التي استعملها أبو بكر، والرابعة التي استعملها عمر.. وهكذا مع أن هؤلاء ربما لم يؤثر عنهم استخدام تلك الألفاظ إلاّ في موقف واحد له ملابساته وظروفه، فأخذها هذا المسيء وجعلها هجِّيراه في كل حين فأبعد أيما إبعاد!

الزم الأدب أو انسحب!

إن الحوار مرتبطٌ بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، فحذارِ أن تتخلّى عن الخُلُقِ والأدب، فإذا رأيت أن خصمك وقع في هذا؛ فانسحب بهدوء؛ وذلك خيرٌ لك؛ وأسلم لقلبك؛ وأبقى لحُجَّتك، وأمضى لهدفك، وحذارِ حذارِ من الحظوظ الشخصية، وحذارِ أن تكون أصحاب الخصومات، ومحبي المماراة، كحال الذين قالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾، قال الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف]، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾[النساء].

إبراهيم عليه السلام والصحبة





إبراهيم عليه السلام والصحبة

الصحبة أثرها عظيم في حياة الإنسان، قد تؤثر في مستقبله وفي مصيره، قال الله تعالى مخبراً عن حال قرينين: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات]، وقد عُرض لموضوعها في عدة مواضع من القرآن، ومن تلك المواضع المتعلقة بحديثنا، قول إبراهيم عليه السلام، المقصوص في القرآن لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت]، إنها آيةٌ تهزّ القلوب!

فإبراهيم عليه السلام يُنبِّه إلى حقيقةٍ مهمة، إنّها حقيقة العلاقات المبنية على غير الحبِّ في الله! مآل مخزٍ، ومشاهدُ عظيمة، وقد عرضت في

القرآن الكريم مراراً، يقول الله جلّ وعلا: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]، جعلنا الله وإياكم من المتقين، وتوهم مشهد الندامة الذي أخبر عنه أصدق القائلين في سورة الفرقان، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان].

إلاّ المتقين!

وهذه الآيات توجب لنا معاشر الإخوة أن نتفقّد أحوالنا ومَن حولنا، تتنبّه إلى مَن يُحيط بك، انظر إلى من يأنس بك، ويَهِش إليك، تأمل في أقرب الناس منك، تفقد من تصاحب! وأنت أعلم بقول الشاعر:

عن المرءِ لا تَسأل وسَلْ عن قرينه ... فكـــلُّ قريـــنٍ بالمُقارِن يَقتدي

فالصاحب ساحب، إما إلى جنَّةٍ وإمَّا نار! ولا يسلم إلاّ من سلّمه الله؛ ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات]، فهذا عَصَمهُ الله، وكثيرٌ من الناس أرداهم أصحابهم وسيتبرّؤون منهم، ويقولون كلمة زعيمهم:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]، وكذلك أولئك الأخلاء الذين اجتمعوا على غير تقى!

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سبأ]، وكيف لا واليوم يوم عظيم!

إن من أوثق العلاقات وأغلظها علاقة الرجل بأهله، بوالديه وأولاده، بزوجه: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء]، وكثيراً ما تكون الزوجةُ ألزمَ صاحبٍ، ولهذا تسمى صاحبة،

والمرء في هذه الدنيا جُبِل على الإحاطة بأهله وحمايتهم بل وفدائهم بنفسه، ومع ذلك تَنْفَصِمُ هاتيك العُرى والوثائقُ في يومِ القيامةِ إذا كانت على غير تُقى! ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]، فكيف بأخلاط اجتمعوا على غير هدى، بل على محاربة الهدى! إن "الناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان، أبغض بعضهم بعضاً وإن كانوا فعلوه بتراضيهم، قال طاووس: ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلاّ تفرقا عن تَقَالٍ"[1]، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ﴾[العنكبوت]، وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً لمجرَّد كون أحدِهم عصى الله؛ بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر، نعوذ بالله من سوء المنقلب، ومن كآبة ذلك المشهد، ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا

---

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٢٨.

ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]، هذا جزاء الذين يتّبعون أهل الضلال، ويروجون للباطل، ما أشد حسرتهم يوم القيامة، يتمنى أحدهم أن يعود ليعادي من قد كان يواليه! قال الله جلّ وعلا: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾!

قال مجاهد وغيره: هي المودات التي كانت لغير الله جل وعلا[1].

إنها مشاهدُ عظيمة نبّه إليها إبراهيم عليه السلام، وحذّر منها قومه، ومِن بَعده حذّر منها محمد ﷺ، فكم زَلّت أقدامٌ بسبب زُعماء السوء المتبوعين، وقرناء الضلال، وأصحاب الأهواء.

القرين بالقرين

المقصود إياك أن تصاحب أهل السوء، ولا أن تكون لهم تابعاً:

---

(١) انظر التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢٣٨)، وابن جرير ٣/ ٢٦، وفي تفسير ابن أبي حاتم (١٤٩٢) معناه عن ابن عباس.

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولاتصحب الأردَى فتردى مع الرَّدِي

لقد أُجريت تحقيقات ومقابلات مع الذين وقعوا في المخدرات فظهر أنّ أكثر من تسعين بالمائة من هؤلاء وقعوا بسبب أصدقاء وجُلساء السوء.

وهذا يلقي على المربين وبالأخص الآباء مسؤولية، فيا أيها الأب أين يذهب أبناؤك؟ ومن يُصاحبون؟ ابنتك مَن صديقاتُها؟ بمن تتصل من زميلاتها؟ أنت من تُجالس؟ هذه الجلسات التي تمضي فيها الساعات في أماكن عدّة ماذا يُقال فيها؟ وأي أفكار يتلقّاها ابنك أو ابنتك؟ وتذكّر أن أبناءك يتأثرون بأقرانهم أشدّ التأثر.

إن كُنتَ تبغي الأَمْرَ أو أصلَه وشاهداً يُخْبرُ عن غائبِ

فاعْتَبِرِ الأرضَ بأَشْباهها واعْتَبر الصَّاحبَ بالصَّاحبِ

مثال عجيب

واعتبر بهذا المثال العجيب!

إن الكلب نجِسٌ، وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «إذا ولغَ

الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً والثامنةُ بالتراب»[1]، ونجاسة الكلب من أشدّ أنواع النجاسات عند بعض الفقهاء، ومع ذلك هذا الكلب لـمّا صاحب رفقة طيّبة، لما صاحب الفِتية -أصحاب الكهف- خُلّد ذكره في القرآن؛ فكم مرة ذُكر كلبهم في سورة الكهف؟ أربع مرات! وما ذلك إلاَّ لأنه لازم رِفقةً صالحة؛ فِتيةً صالحين طيبين خيّرين، قال الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]، ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف:٢٢]، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، سبحان الله، إذا كان شرفُ صُحْبَةِ الطَّيِّبين لحقَ الكلب؛ فكيف لا يلحق إنساناً دأب على مُرافقة الأخيار والصالحين؟

وفي المقابل استجاب رجل كان صالحاً لصُحبة غيرِ صالِحين، فضرب الله له مثلاً بالكلب! ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف].

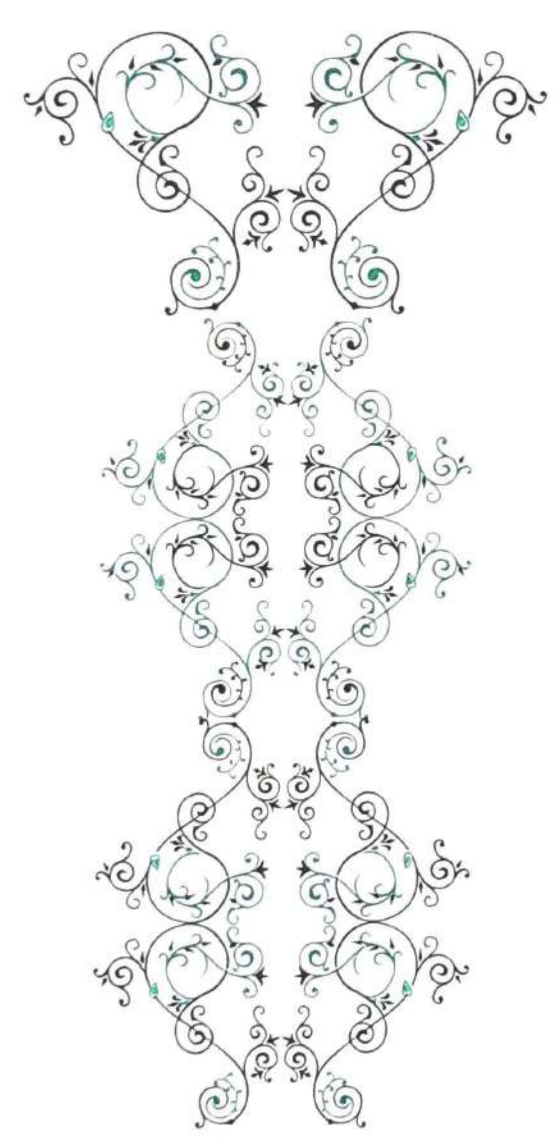
ولذلك جاء الاستثناء: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[الزُّخرُف]. ونحن اليوم في زمان عواصفه كثيرة، إن تركنا الأبناء لها ألقتهم في مهاوٍ سحيقة! إمّا ذاتِ اليمن وإما ذات الشمال! إما إفراط وإما تفريطٍ، إما شبهات وإما شهواتٍ؛ لذلك فمن الواجب علينا أن نوثق في نفوس الأبناء بناء العلاقة على عقيدة الحب في الله والبغض في الله، وأن نحذرهم من أن تقوم على المودة لأسباب الدنيا، فهذه المودة في الحياة الدنيا تنقلب إلى عداوة يوم المعاد، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت]، واعتبر ذلك بمجرمين تآلفوا على العدوان، ثم أُخِذُوا في الدُّنيا للعقوبة على ما صنعوا، أترى الأُلفة تبقى؟ أم يحمل كلٌّ منهم المسؤولية صاحبَه

ويتنصلُ ما أمكنه! بل اعتبرها بالعقوبات القدرية، وانظر ما يتبعها من التلاوم بين المتآلفين، كما قال ﷻ في قصة أصحاب الجنة: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القلم]، إلى أن قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[القلم].

يذكر أن أحد الشباب سافر مع رفقة فاجرة إلى إحدى دول شرق آسيا ووجد كلٌّ منهم مبتغاه في عشيقة فاجرة تشبع لَذّاته، وذات مرة اتفقوا على لقائهن في وقت واحد، في مكان محدَّد، فحضروا، وحضرت عشيقاتهم إلاّ واحدة، فاضطرب صاحبها لتأخرها، ثم ازدادت حالته سوءاً، وعندما حضرت ارتمى ساجداً عند قدميها، ثم أُغشي عليه حتى مات، فحملوه جثة هامدة، فمات على تلك الحال، وقد خرج من بلاد المسلمين. وهذه نتائج الخلّة الفاجرة في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، نعوذ بالله من أسباب سخطه، وأليم عقابه.



إبراهيم عليه السلام والعبادة



إبراهيم عليه السلام والعبادة

وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه كان قانتاً لله حنيفاً، وقد مرَّ معنا ما يتضمنه هذا من ملازمة الطاعة والقيام بوظائف العبودية.

فقد كانت حياتُه عليه السلام عبادةً كلُّها، كحال الخليل الثاني الذي أمره ربه سبحانه أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام]، فكذلك كان إبراهيم، تنوعت عباداته، ما بين عبادة قلبيّة، وعبادة بدنيّة، وعبادة ماليّة، وما من عبادة إلاّ وتندرج ضمن واحدة من هذه الأقسام، وبعض العبادات تندرج فيها جميعاً؛ فالحج مثلاً، فيه عبادة مالية فهو يتطلب نفقات، وبعض الناس في البلدان البعيدة يعمل عمره ليُحَصِّلَ نفقةَ الحجِّ، وفيه كذلك عبادة بدنية كالطواف، والسعي، والوقوف بعرفة وغيرِ ذلك، وفيه أيضاً العبادة القلبية؛ إنابةٌ وخضوع وانكسار بين يدي الله، في مواقف تتنزل فيها الرحمات،

كموقف يوم عرفة، عشية يدنو رب العزة إلى السماء الدنيا[1]، و"من المعلوم أن الحجيج عشية عرفة ينزل على قلوبهم من الإيمان والرحمة والنور والبركة ما لا يمكن التعبير عنه"[2]، بل سائر أعمال الحج تتعلق بها أعمالٌ قلبية، فالمؤمن المقيم للفريضة على وجهها يطوف بالبيت وقلبه متعلق بالله، لا بالبيت والأستار، يرمي الجمرات، وقلبه مع الله، لا مع الجمرات والشخوص!

والمقصود إنَّ إبراهيم عليه السلام تنوعت عباداته ما بين مالية وبدنية وقلبية، وللعبادات القلبية شأنها!

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو وُزن إيمان أبي بكر رضي الله عنه بإيمان أهل الأرض لرجح بهم[3]! وهو بإجماع أهل السنة أفضلُ هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبماذا تميز؟ يقول بعض السلف: "إن أبا بكر ما سبقهم

---

(١) دونه تعالى عشية عرفة ثابت في صحيح مسلم (١٣٤٨)، وغيره، انظر السلسلة الصحيحة (٢٥٥١).

(٢) من كلام ابن تيمية انظر مجموع الفتاوى ٥/ ٣٧٤.

(٣) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده ٣/ ٦٦٩، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة (٨٢١)، والصابوني في السلف (١١٠)، وغيرهم.

بكثير صيامٍ ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وَقَرَ في قلبِه"[1].

إن أعمال القلوب من أجل العبادات، وكثيرٌ من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة، ويتصوّرون أن العُبّاد هم أصحاب العبادات البدنية، وينسون أن العبادات القلبية هي الأصل وهي المعوَّل عليها، وما أحوجنا إلى فقهها وإلى تدقيق النَّظر فيها، فإن من أحكم هذا الباب عادت حياته كلُّها عبادة لله! ولهذا كان ابن أبي جمرة رحمه الله كثيراً ما يقول: «ودِدت أنَّه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلاَّ أن يُعلِّم الناسَ مقاصدَهم في أعمالهم، ويقعد في تدريس أعمالِ النِّيَّات ليس إلاَّ؛ فإنه ما أُتي على كثير من الناس إلاَّ من تضييع ذلك»[2]، إن تصحيح عبادات الناس الظاهرة مطلوب، ومن يقوم به مشكور، ولكن العناية بالقلب كذلك مطلب، لتكون حياتنا كلها لله، وليكون العمل ثقيلاً في الميزان، إنك ترى الرجلين في الصف، كلاهما يصلي خلف الإمام، وقد

---

(١) روي مرفوعاً انظر المقاصد الحسنة (٩٢٦)، وجاء من قول بكر بن عبدالله المزني، ونسب أيضاً لأبي بكر بن عياش.

(٢) المدخل لابن الحاج ١/ ٦، وذكر أنه كثيراً ما سمعه يقول هذا أو نحوه.

تلحظ أنّ أحدهما في صلاته أحسن من الآخر في الظاهر، ولكن قد يكون بينهما ما بين المشرق والمغرب بسبب ما قام في القلب! انظر إلى الصف! كل من فيه صلاته صحيحة في الظاهر، لكن منهم مَن يخرج من صلاته وقد كُتِبت كلُّها في ميزان حسناته، ومنهم من كُتب له نصفها، ومنهم من كُتب له ربعها، ومنهم من لم يُكتب له منها شيء، وإن سقطت عنه! ومنهم من تُضرب بوجهه وتُردُّ عليه! مع أنهم ربما كانوا كلهم في عين الناظر إلى الصَّف السواء، ولو دَقَّقْت النظر فيهم لم تجد فرقاً بينهم، ولكن الفرق هناك بين القلوب، التي يراها علاّم الغيوب.

من عبادات إبراهيم عليه السلام

لقد تميز إبراهيم عليه السلام في سائر أبواب العبادات وأنواعها، أما الإخلاص وسلامة القلب من الشوائب والأغراض الفاسدة فهو الُمزكى من الله تعالى فيه، ﴿كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات]، كان عظيمَ التوكُّلِ على ربِّه، شديدَ الإقبال عليه، وقد مرَّ

معنا ما يذكر من خبره مع جبريل يوم يلقى في النار، قال: أمّا إليك فلا، وأمّا من الله فنعم، ويُصدّق هذا قول النبي ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار»[1]، وقد أثبت الله تعالى في كتابه دعاءه عليه السلام: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة].

إنها درجة عالية! وحري بالمؤمن أن يعتبر بتلك الحال الرَّفيعة، فليراجع كل منّا نفسَه، ولينظر إلى حاله في باب الرزق مثلاً، الله تعالى قد تكفّل لكل دابة برزقها، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات]، ومع ذلك انظر حال أكثر الناس في طلبهم الرزق المقسوم؟! أليس ثمة من يَذِلُّ للخلق من أجل الرزق؟ أليس هناك من يأتي الحرام من أجل الرزق؟ أليس ثمة من يغش ومن يسرق ومن يغل من المال العام؟ ألا تجد تعلق كثير من الناس بشيء

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر ص٧٧ من هذا الكتاب.

من خلق الله في رزقه؟ ومَنْ أَجْمَلَ في الطلب متوكلاً على الله كفاه، وآجره، وأعطاه من حيث لا يحتسب.

عنايته بمباني الإسلام الأربعة

وعوداً إلى إبراهيم عليه السلام، من نظر في سيرته وجد عنايته بأعمال القلوب وكذلك بالعبادات الظاهرة، بما فيها مباني الإسلام، فمن ذلك ما يأتي:

عنايته بالصلاة

عنايته بإقامة الصلاة، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم]، يدعو لنفسه وذريته بإقامة الصلاة، عناية بذلك الشأن، وإقامة الصلاة لا تكون بأداء حركات ظاهرية فقط، بل لابد من العناية كذلك بالباطن، والعمل على حضور القلب، والخشوع، مع القيام بشروطها، وواجباتها وفروضها.

وقد عمل إبراهيم عليه السلام على تهيئة أعظمِ مكانٍ للصلاة، حيث رفع القواعد من البيت، وبنى مع ابنِه إسماعيلَ أعظمَ مسجِد، وطهراه للطَّائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ

لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحج]، وقال: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة]، ثم قال: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة].

عنايته بالزكاة

ومن عناية الخليل بالعبادة عنايته بالزكاة، فقد كان إبراهيم باذلاً لها، مأموراً بها، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء]، فانظر إلى نصه على عبادات معينة عطفها بخصوصها على أمر عام هو ﴿ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ، ثم ثنائه بعدها عليهم بقوله: ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾! وهذا يشعر بإقامتهم لتلك العبادات وتحقيقيهم لها على وجهها المرضي عند الله تعالى، كما يشعر بعظم شأن العبادات

المنصوصة، وهي كذلك فالصلاة هي الركن الثاني بعد الشهادتين، والزكاة بعدهما، ولا غَرْوَ فالصلاةُ صِلةٌ بين العبد وربِّه، بها تزكو النَّفس وتصلح، والزكاة صلاح للمجتمع وسد لعوز المحتاجين.

الصوم

وأما الصوم، فيندرج تحت النصوص العامة، ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ ونحوها، وقد بين الله فريضته على الأمم من قبلنا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]، وقد قال بعض أهل العلم: كان الصوم مكتوباً على الناس كلِّهم[١]، وجاء حديث مرفوع فيه ضعف: «صام نوح الدهر إلاّ يوم الفطر والأضحى، وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر؛ صام الدهرَ، وأفطر الدهر»[٢].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ٣/ ١٥٥.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٣٥٦٣)، وهو ضعيف.

عنايته بالحج

وأما الركن الخامس وهو الحج، فلا غرابة في أن يكون هو قدوتنا بعد رسول الله ﷺ في فريضة الحج، فإنَّه عليه السلام أوّلُ من أقام أركان الحج كما هي الآن، وكان العرب تحج البيت الحرام مِن بعده عليه السلام، وقد غيَّر كفَّار قُريشٍ في مَنْسَكِه وأحدثوا أشياء، ثم جاء النبي ﷺ وأعاد المناسك على جادَّة إبراهيم عليه السلام. قال الله تعالى له: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج]، وقد كان حَجُّه عليه السلام شبيهاً بالحج الذي نعرفه من شريعة محمدٍ عليه الصلاة والسلام، فقد صح من حديث يزيد بن شيبان أن النبي ﷺ قال لهم وهم وقوف بعرفة بعيداً من موقفه: «كونوا على مشاعركم، فإنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم»[1].

وكذا الطواف كان معروفاً من لدن عهود إبراهيم، قال الله تعالى:

---

(١) رواه أبو داود في السنن (١٩٢١)، والنسائي (٣٠١٤)، وغيرهما، انظر صحيح أبي داود للألباني (١٦٧٥).

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال سبحانه في معرض ذكر أذان إبراهيم وإتيان الناس من كل فج: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج].

وكذلك السعي ورمي الجمار والذبح وإتيان منى وعرفةَ ومزدلفةَ فقد صح عند أحمد من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة أنه قال لابن عباس: "يزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة وأن ذلك سُنَّة؟ قال: صدقوا إن إبراهيم لما أُمِر بالمناسك عَرَض له الشيطان عند السعي فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمَّ تَلَّه للجبين وعلى إسماعيل قميصٌ أبيضُ، وقال: يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات]، فالتفت إبراهيم فإذا هو بكبش أبيضَ أقرنَ أعيَنَ قال ابن عباس: لقد رأيتنا نبيع هذا الضَّرْبَ من الكباش، قال: ثم ذهب به جبريل إلى الجمرة

القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم ذهب به جبريل إلى مِنى، قال: هذا مِنى هذا مُنَاخُ الناس ثم أتى به جمعاً فقال: هذا المشعرُ الحرام ثم ذهب به إلى عرفة.."[1] الحديث.

وفي لامية أبي طالب الشهيرة التي يدافع فيها عن محمد ﷺ ويتوعد قريشاً، ذكر جملة المناسك، غير أنهم أفسدوها بما أدخلوه فيها من الشرك كما فعلوا في التَّلبِية حيث قالوا: (لبيك لا شريك إلا شريكاً هو لك! تملكه وما ملك!)[2]، ومطلعها استعاذة حسنة إذ قال:

أَعوذُ بِرَبِّ الناسِ مِن كُلِّ طاعِنٍ
عَلَينا بِسوءٍ أَو مُلِحٍّ بِباطِلِ

ثم ذكر ما عرف من مناسكهم مستعيذا به فقال:

وَبِالحَجَرِ المَسوَدِّ إِذ يَمسَحونَهُ
إِذا اِكتَنَفوهُ بِالضُحى وَالأَصائِلِ
وَأَشواطٍ بَينَ المَروَتَينِ إِلى الصَفا
وَما فيهِما مِن صورَةٍ وَتَماثِلِ

(١) رواه أحمد في المسند (٢٧٠٧).

(٢) انظر صحيح مسلم (١١٨٥).

وَمَن حَجَّ بَيتَ اللهَ مِن كُلِ راكِبٍ
وَمِن كُلِّ ذي نَذرٍ وَمِن كُلِّ راجِلِ
وَبِالمَشعَرِ الأقصى إِذا عَمَدوا لَهُ
إِلالٍ إِلى مُفضى الشِراجِ القَوابِلِ
وَتَوقافِهِم فَوقَ الجِبالِ عَشِيَّةً
يُقيمونَ بِالأَيدي صُدورَ الرَواحِلِ
وَلَيلَةِ جَمعٍ وَالمَنازِلِ مِن مِنىً
وَما فَوقَها مِن حُرمَةٍ ومَنازِلِ
وَجَمعٍ إِذا ما المَقرُباتُ أَجَزنَهُ
سِراعاً كَما يَخرُجنَ مِن وَقعِ وابِلِ
وَبِالجَمرَةِ الكُبرى إِذا صَمَدوا لَها
يَؤُمّونَ قَذفاً رَأسَها بِالجَنادِلِ
فَهَل بَعدَ هَذا مِن مَعاذٍ لِعائِذٍ
وَهَل مِن مُعيذٍ يَتَّقي اللهَ عادِلِ

إلى آخر أبياته القويَّةِ الجَزْلَةِ لو ما فيها من الشرك الذي أفسدها.

وهذه القصيدة تشير إلى مابقي عندهم من ميراث حج الخليل عليه السلام، والكلام عن حج إبراهيم عليه السلام يطول، وفيما سبق كافية.

فظهر بذلك أن مباني الإسلام كلَّها قد حققها إبراهيم عليه السلام، وكان

له معها شأن، بدءاً بالتوحيد ووصولاً إلى الحج، ثم إن تلك المباني تتضمن مِن العبادات القلبية والمالية والبدنية ما لا يحصيه إلاَّ الله، كأنواع الدعاء، وأنواع الأعمال القلبية، وأنواع الإحسان وأنواع التعليم، وأنواع المشاريع كبناء بيت الله وعمارته، إلى غير ذلك من عباداته عليه السلام.

من سمات عبادة إبراهيم

رفع الحرج

ثمَّة سمتان من سمات العبادة عند إبراهيم عليه السلام، رأيت الوقوف معهما للحاجة إليهما، أولاهما: اليسر ورفع الحرج، قال الله جلّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨]، فملَّة إبراهيمَ عليه السلام قائمةٌ على رفع الحرج، قال بعض المفسرين: ما جعل عليكم في الدين من حرج؛ أي "لم يضيق الدين عليكم، ولكن جعله واسعاً لِمن دخله، وذلك أنه ليس شيء مما فرض عليهِم فيه إلا ساق إليهم عند الاضطرار رخصة، والرخصة في

الدُّنيا فيها وسع عليهم رحمة منه"[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال ﷺ: «يسّرا ولا تُعسّرا وبشّرا ولا تُنفّرا وتطاوعا ولا تختلفا»[2]، «إن الدين يسر، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلّا غلبه»[3]، «إن هذا الدين متين فأوغِل فيه برفق»[4]، «بُعثت بالحنيفية السمحة»[5]، فوصف الحنيفيةَ التي هي ملَّة إبراهيم بالسماحة، فهي ملة التيسير، والتيسير فيها من جهتين:

الأولى: لم يكلف الله فيها أحداً بما لا يُطيق، بل سائر تكاليف

---

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٤٨٦٨) ذكره عن مقاتل، وانظر تفسير ابن كثير ٥/ ٤٥٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

الشريعة مطاقةٌ للناس، سهلةٌ على من سهلها الله عليه، يأتي الناس من السعي لدنياهم أضعافها وهم مقبلون راغبون حريصون.

الثاني: عند حصول المشقة لطارئ في المُكلَّفِ أو الأحوالِ شرع الله رُخصاً، فغدت الشريعة سمحةً ميسرة، في الحال المعتادة، وفي الحال العارضةِ، ما فرَّط الله تعالى في بيان أحكام الحالين، ومن رحمته أن أسقط من كل واجبٍ ما خرج عن حدِّ القُدرة، والذين يكلفون أنفسهم ما لا يطيقون، خالفوا ملة إبراهيم التي ما جعل الله فيها من حرج، أما الذين يكلفون الأُمَّة ما لا تُطيق، وإن كان ما يكلفونها به مطلوباً أصله بالشرع فقد جنوا عليها؛ فَتَنُوها وأَعْنَتُوها هداهم الله! وإنّما شِفاء العِيِّ السؤال!

غير أنَّ ما سبق كذلك يبين الفرق بين التَّيسيرِ الذي هو شرع الله ودينُه، والتمييعِ الذي هو تحويرٌ للشريعة من الحالة التي أنزلها الله فيها إلى حالة أخرى تشبه تمييع العناصر ليسهل تشكيلها في الأوعية المناسبة للأهواء! فالواجب على المسلم أن يتقي الله، ويعمل بشرع الله الذي ظهر له أنَّ الله أمر به وأنزله، وأن لا يتتَبَّع شواذ الأقوال وضعيفها لملاءمتها هواه، وإن قال بها علماء، فإن من تتبع الرخص -

التي لا تثبت لحاله- تزندق؛ أخذ من كل عالم خطيئة يغفرها الله له باجتهاده، فتجمعت فيه الخطيئات التي اجتهد ولكن في جمعها!

إنّا بُلينا اليوم بقوم انحرف عندهم مفهوم التيسير فظنوا أن الشريعة التي أنزلها الله تعالى صعبة محرجة، قد ضاقت بها نفوسهم، ولم تنشرح بها صدورهم، فما سَلَّموا لها، بل طَفِقوا يبحثون طرق التخلص من أحكامها، ولو بأقاويل شاذةٍ، وآراء يعضدونها بالضعيف دليلاً أو استدلالاً، ويزعمون أنهم متبعون للشريعة السمحة ميسرون كما أمر النبي ﷺ في الأحاديث، وقد كذبوا فلو كانوا متَّبعين لكان هواهم تبعاً لما قررته الأدلة التي لم تذر حالة أخلتها من حكم، وحقيقة تيسير هؤلاء اتباع الأهواء، بخلاف التيسير المشروع فإنَّما يكون بتمييز الأحوال وتكاليف الشريعة فيها، فيأتي بالرخصة في حال معينة إن ثبتت عن ثقة، ويعلم أن الخير فيما شرعه الله، لا ما اختارته الأهواء.

الإحسان

أما السمة الثانية في عبادة الخليل فهي الإحسان، وقد شهد الله تعالى لإبراهيم به في مواضع، فقال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات]، ثم عقب بعدها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الصافات]، فكرر وصفه بالإحسان في مقامٍ واحدٍ وهذا تأكيدٌ بعد تأكيدٍ. لكون إحسانه ﷺ في أعلى مقامات الإحسان، فالإحسان مرتبتان:

الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه. الثانية: أن تعبد الله وأنت موقن بأنه يراك.

كما في الحديث جبريل: قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقد ارتقى إبراهيم ﷺ في إيمانه من علم اليقين إلى عين اليقين،

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩)، وهو مروي من حديث عمر رضي الله عنه انظر سياقه في مسلم (٨).

كما ذكر أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة]. فلم يكن هذا شكاً، قال النبيّ ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[١]، قال أهل العلم: معناه أنه لو كان شكاً لكُنَّا نحن أحق به، ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أَحْرَىٰ ألاّ يَشك؛ فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. ولهذا كان جواب إبراهيم عليه السلام للسؤال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، أي آمنت وأقررت ولكني أريد أمراً آخراً. فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين[٢]، وقال بعضهم: أراد أن يُصير له علم اليقين وعين اليقين فقيل له: أولم تؤمن، والإيمان غيبيٌّ في علم اليقين فقال: بلى ولكن

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٩٩، وابن كثير ١/ ٦٨٩.

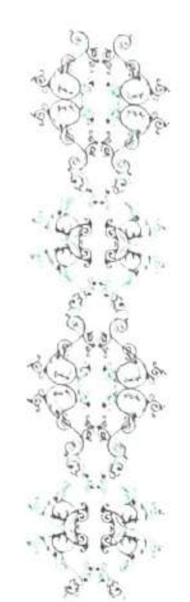
أسألك مشاهدة الغيب[1].

وقد ذكر الله مرتبتي العلم في سورة التكاثر فقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾، ثم قال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾، فعلم اليقين أكمل، والفرق بين علم اليقين وعين اليقين: كالفرق بين الخبر الصادق والعيان، ثم حق اليقين: فوق هذا. والمقصود أن إبراهيم رأى من قدرة الله ما كان مؤمناً به عن خبر، فصار إيمانه إيمان من رأى، وفرع عن ذلك كانت عبادته، ولهذا استحق شهادة الإحسان، قال بعض أصحاب الإشارات: لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ وأجيب إلى سؤاله، قيل له: وأرني كيف تذبح الحي! يعني إسماعيلَ، مطالبة بمطالبة، ثم كانت نتيجة الابتلاء لما أسلما وتَلَّه للجبين: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصافات]، إنها شهادة الإحسان من الكريم الرحمن.

---

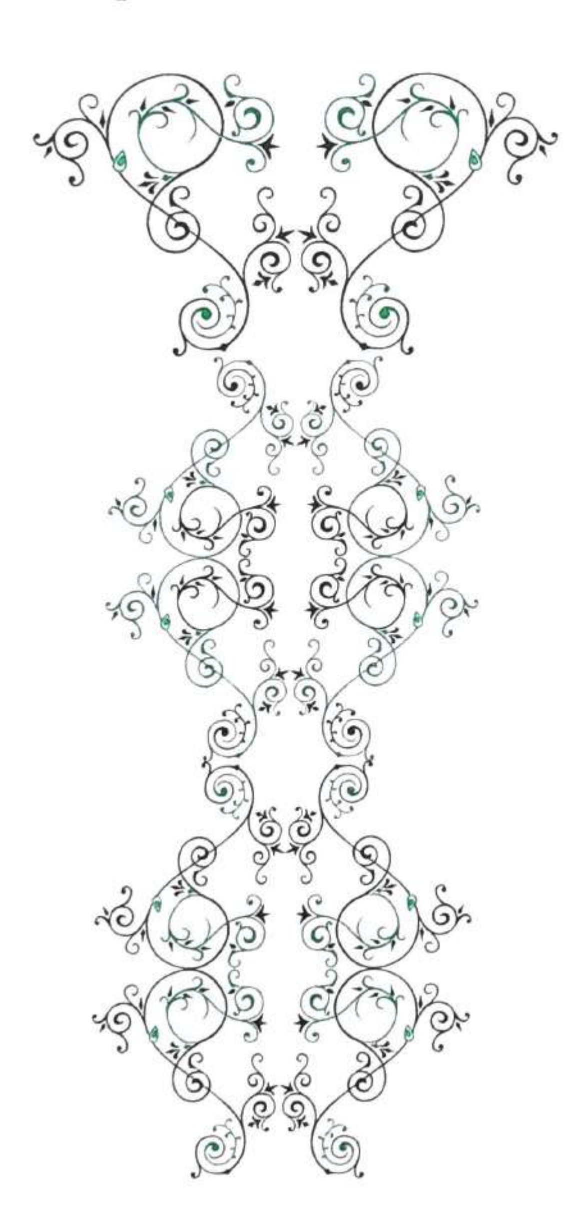
(١) انظر تفسير السلمي ١/ ٧٩.

والإحسان أعظم مما يتصوّره كثير من الناس قصراً على بذل المعروف إلى الخلق، بل هو فعل أنواع الخير، ابتغاء وجه الله. وهو شأنٌ ملازم لأنبياء الله، ألم تر كيف وصف الله به يوسف عليه السلام خمس مرّات، وإبراهيم مرتين في مقام واحد، وكذلك جاء وصف عدد من الأنبياء بأنهم من المحسنين، فاقتدوا يا معاشر المسلمين! أحسن يا عبد الله! إلى نفسك، إلى عائلتك، إلى مجتمعك وبلدك، إلى أمّتك، بل أحسن إلى أعدائك بدعوتهم والحرص على هدايتهم، ثم بمجاهدتهم إذا أصرّوا على باطلهم، واسأل ربّك أن يجعلك من المحسنين، وردد: رب أعني على ذكرك، وعلى شكرك، وعلى حسن عبادتك.





فوائد من مواقف لإبراهيم عليه السلام مع أهله



فوائد من مواقف لإبراهيم عليه السلام مع أهله

هذا الرجل الأمة عليه السلام، مع ما كان فيه من شؤون الدعوة والتعليم، ومواقف المحاججة والمناظرة، واشتغاله بأنواع المكارم، كان له شأن أيضاً مع أهل بيته، مع زوجاته، ومع أبنائه، لابد من التعريج على بعضه.

من مواقفه مع زوجاته

وقفات مع حادثة لسارة

فمن الحوادث المشهورة التي وقعت له مع سارة، وهي أم إسحاق عليها وعلى إبراهيم وعلى نبينا وعلى أبنائه أفضل الصلاة والسلام، حادثة أخبر عنها نبينا ﷺ، وفيها فوائد نقف معها وقفات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام، إلّا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، وهي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات]، والثانية قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]، والثالثة في شأن سارة، وكان إبراهيم عليه السلام أتى أرضاً، يحكمها مَلِكٌ جبّار، ظالم، طاغٍ، باغٍ، وكانت سارة من أحسن الناس؛

فقال لها إبراهيم ﷺ: إنّ هذا الجبّار إنْ يَعلم أنّك زوجتي يغلبني عليك؛ فإن سألكِ، فأخبريه أنّك أختي! ولا تقولي له: إنّك زوجتي؛ فإنّك أختي في الإسلام؛ فإنّي لا أعلم في الأرض مؤمناً غيري وغيرك، فلمّا دخل إلى هذه الأرض رآه بعض أهلها من المخبرين، وأعوان الظالمين، كما يوجد في كل زمانٍ ومكان؛ فأخبروا هذا الجبّار، وقالوا له: إنّه قدِم إلى أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلّا لك؛ فأرْسِل إليها؛ فأُتي بها؛ فقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام يُصلّي، فلمّا دخلت عليه، وهي جميلة، لم يتمالك أن بسَط يده إليها، فقُبِضَت يده قبضةً شديدة، فقال لها: ادعي الله جلّ وعلا أن يرسلها، وعاهدها أنّها إن دعت الله جل وعلا وأُرسلت يده ألّا يمسّها بسوء؛ فدعت الله جلّ وعلا، ثم نكث، ثم حدث له ما حدث، ثم دعت له، ثم نكث، ثم عاهدها في المرة الثالثة؛ ففعلت، فتركها وقال لمن جاء بها: خذها فإنها شيطانة، وأهداها هاجرَ، ثم ذهبت إلى إبراهيم وهو يُصلّي، ثم سألها، ما الخبر؟ فقالت: كفّ الله يد الفاجر وأخدم خادماً، وهي هاجر أم إسماعيل»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومن الوقفات مع هذه القصة ما يأتي:

الأولى: مع قول النبي ﷺ : «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلّا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات]، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣]. وقد مَرَّ معنا تعليق عليها[1]، وبالجملة فقد ذكر العلماء: أن هاتين الاثنتين من قبيل المعاريض، ووصفهما في الحديث بالكذب نظراً لظاهر الأمر الذي يفهمه السامع، لا ما يريده المتكلم؛ وقالوا إن قوله: ﴿سَقِيمٌ﴾، أفهمهم أنّه مريض جسمانياً، وإبراهيم عليه السلام لم يكن سقيماً بهذا المعنى المتبادر؛ فهي بهذا الاعتبار كذبة، وأما باعتبار ما يريد فقد كان صادقاً، فهو سقيم من رؤية والده وقومه يعبدون أوثاناً من دون الله، ولا شك أنّ المؤمن يُصيبه من ذلك الغمُّ والهمّ، كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ

---

(١) انظر ص١٧٨ وما بعدها، و ص١٢٦، من هذا الكتاب.

﴿يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]، والمرض المعنوي ربما كان أعظم وأشدّ على النفس من المرض الحِسِّي، فأراد هذا وكان باراً صادقاً فيه. وهذا نوع من التورية، وهي معروفة في علم البديع، من أقسام علم البلاغة، أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيّة، ويريد المتكلم المعنى البعيد، ويورِّي عنه بالقريب، فيوهم السامع أولَ وهلَةٍ أنَّه يريد القريب وليس كذلك، وهذا ليس من الكذب إن كان بحق، قال شيخ الإسلام رحمه الله: "يجوز للإنسان أن يظهر قولاً وفعلاً مقصوده به مقصود صالح، وإن ظن الناس أنه قصد به غير ما قصد به، إذا كانت فيه مصلحة دينية، مثل دفع ظلم عن نفسه، أو عن مسلم، أو دفع الكفار عن المسلمين، أو الاحتيال على إبطال حيلة محرمة، أو نحو ذلك فهذه حيلة جائزة. وإنما المحرم مثل أن يقصد بالعقود الشرعية ونحوها غير ما شرعت العقود له"[1]،

---

(١) إقامة الدليل على إبطال التحليل، وانظره من الفتاوى المصرية ٦/ ١٠٧، وانظره في إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ٧٢.

والأدلة على هذا المعنى كثيرة جداً، بل الأصح أن التورية سائغة إن لم يكن فيها ظلمٌ أو ضرر، مما يدل عليه ورود أضربٍ منها في مزاحه ﷺ، كالحديث المشهور أن عجوزاً أتت النبي ﷺ فقال: «إنه لا يدخلُ الجنةَ عجوز، فقالت: وما لهنَّ؟ -وفي بعض الألفاظ فولَّت تبكي- وكانت تقرأ القرآنَ، فقال لها: أما تقرئين القرآن ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة]»[1]، وفي حديث أنس، جاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله، فقال: «أنا حاملك على ولد ناقة»! قال: يا رسول الله! وما أصنع بولد ناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهل تلدُ الإبلَ إلاَّ النوقُ»[2]، ومن هذا الجنس أو هو أقرب إلى التورية للمصلحة، حديث أبي سعيد في الصحيحين، «إن الله خَيَّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عندَه فاختار ما عند الله»، فبكى أبو بكر

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل ٢/ ٣٩، وانظر تخريجه في الصحيحة للألباني (٢٩٨٧).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٥٠٠٠)، والترمذي (١٩٩١)، وغيرهما، وصححه الألباني في صحيحيهما (٤٩٩٨)، (٢٠٧٦).

الصديق رضي الله عنه، فقلت في نفسي ما يبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسولُ الله ﷺ هو العبدَ، وكان أبو بكر أعلَمَنا"[1]، إلى غير ذلك، من نصوص السنة بل والكتاب كقول نائب يوسف إنكم لسارقون فإن يوسف أمره بالنداء لكن مراد يوسف سارقون ليوسف من أبيه وهو صادق فيما عناه.

الثانية: قوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء]، قال أهل العلم: قصد تعليقه بالشرط؛ وهو قوله: إن كانوا ينطقون؛ والمعنى: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا فسألوهم، ففي الكلام تقديم وتأخير، وشرط وجزاء؛ وهو أيضاً نوع من التعريض بعجز آلهتهم التي يزعمون، وفيه تعريض بمن يسأل هذا السؤال وهو يعتقد ألوهية الأصنام مع جزمه بعجزها عن الفعل، يقرب هذا مثال: لو دخل بغير استئذان أحد عليك غرفتك أو موضعاً أنت فيه، يظنه خالياً، فلما رآك جالساً قال: في أحد

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

هنا؟ فأجبته متغيظاً: لا! هو يراك وقد علم بوجودك، وعلم خطأ ظنه خلو المكان، لكنه ما أحسن الاعتذار، فأجبته بما حاصله: إذا لم تكن تراني فليس ثمة أحد! على سبيل التغيظ، فكذلك هؤلاء، يظنون هذه آلهة وهم يعلمون أنها لاتدفع عن نفسها، فكيف تغني عن غيرها، وقد دأب عليه السلام على الاستدلال ببطلان عبادة آلهة أخرى مع الله ببيان عجزها، وعدم غنائها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم].

الثالثة: من باب المعاريض قوله لسارة: أخبريه أنك أختي، وهذه قد بينها إبراهيم عليه السلام وفسَّرها لسارة،إذ قال: لا أعلم على وجه الأرض أحداً مؤمناً إلّا أنا وأنت. ولعله يريد أرض الجبار، لأن الله تعالى قال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت]، فهو يريد أرض الجبار، ويجوز أن تقول لزوجتك: يا أختي، وتقول لأبيك: يا أخي، وتقول لابنك: يا أخي، فهو أخ في الإسلام، وتقول لمن لم تلده أمك: يا أخي؛ فباب الأخوّة واسع؛ فقد يكون أخاً من النسب، وربما هو شقيق، وقد يكون أخاً في

من العشيرة، كما في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف: ٢١]، فهذه أخوة العشيرة، ويجوز أن تكون الأخوة أخوة دين وإيمان، وهذه أثبتتها نصوص كثيرة معروفة، فإبراهيم هنا قصد أنّها أخته في الإيمان، والملِك ومن معه فهموا أنّها أختُه في النسب، وقد مرّ معنا حكم التعريض[1]، لكن مما ينبه إليه هنا، أن الكلام إذا لم تكن تحتمله اللغة فلا يسمى تعريضاً بل هو كذب، ومن ذلك قول بعضهم لكافر لا يربطه به نسب، ولا عشيرة، ولا دين: الأخ! فهذا ليس بأخ ولا كرامة.

الرابعة: أنّه استخدم الحيلةَ في التخلّص من هذا الظالم، وهذا يدلّ على جواز استخدام الحِيَل المشروعة للتخلص من الظلم؛ ومن ذلك استخدام المعاريض حتى في اليمين، والأصل في اليمين أن تكون على

(١) انظر ص٤٠٧، و ص١٧٨، من هذا الكتاب.

نية المُحلِّف، لكن إن كان المحلف ظالماً جاز فيها من التورية، والتخصيص بالإضمار، وأنواع التجوز، ما لا يجوز من حيث الأصل، وهذا الحم يقرره الفقهاء كثيراً في أبواب مختلفة من كتب الفقه، وربما أفرد له كثير منهم باب التأويل في الحلف، وكثيراً ما يكون ضمن كتاب الطلاق، أو الأيمان، أو القضاء، وهو من الفقه الذي قد يغفل عنه أجلةٌ من أهل الدِّيانة. ومما يُنبه عليه في هذا الصدد كراهية بعض أهل العلم أن يقول الرجل: لزوجه أختي أو أمي ولو على سبيل الإكرام، لحديث جاء في ذلك، وهو ضعيف والصحيح الجواز.

الخامسة: الظالمون في كل مكان، هذا دأبهم وهذا شأنهم، يأخذون أموال الناس، ويعتدون عليهم، وعلى أعراضهم، في القديم وفي الحديث؛ والتخلص منهم يُشرع كذلك في القديم والحديث! ولكن بالحيل الشرعية، وهل له أن يدفع بمحرم منكراً أعظم؟ هذا يتوجه في بعض الصور دون بعض، جرياً على قاعدة دفع أعلى المفسدتين بأدناهما، وضابط ذلك في الجملة أن يتعذر طريق مشروع، وأن يكون عدم أخذه بالممنوع سبباً في حصول المفسدة الأعلى، فتركه الأخذ بالمفسدة الأدنى في هذه الحالة كالتسبب في المفسدة الأعلى.

السادسة: قام إبراهيم عليه السلام يُصلّي! إذا ابتُليتَ بنازلة أو وقعتَ في مصيبةٍ من مصائب الدنيا وأردتَ الخلاص؛ فتوجّه إلى الله، كما توجه إبراهيم عليه السلام؛ فأنجاه الله جلّ وعلا وعصم زوجته من هذا الطاغية الباغي. وقد جاء عند أبي داود وغيره من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[1]، وعند أحمد وغيره بسند صحيح عن صهيب رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى همس شيئا لا نفهمه... الحديث وفيه: «قال وكانوا يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة»[2]؛ يعني الأنبياء، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وقد حسن إسناده ابن حجر في الفتح ٣/ ١٧٢، وكذلك الألباني في صحيح أبي داود (١١٧١)، وأعله بعض أهل العلم.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٨٩٣٧) والذي بعده، وهو عند ابن حبان في صحيحه (١٩٧٢)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، (٢٤٥٩).

السابعة: من عجيب أمر سارة عليها السلام، حين قال لها: ادعي، فلم تمتنع بل دعت له، ثلاث مرّات! وقد جاء ما يفسر هذا ويبين رجاحة عقلها عليها السلام، فقد صح في لفظ البخاري أنها قالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته، فأرسل[1].

فمع فَرَقِها وبغضها للجبار أبصرت تلك المصلحة فدرأت مفسدة القتل عنها وعن زوجها بالدعاء، فأكرمها الله تعالى بأن حماها وأخدمها وليدة هي هاجر عليها السلام.

وانظر إلى إبراهيم عليه السلام كيف بقي في صلاته حتى جاءت، وبعض الناس اليوم إذا نزلت به نازلة، فقيل له قم صل ركعتين، يقال ألا ترى ما بي لا أستطيع! حالتي النفسية ما تسمح!! ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]، مكث عليه السلام يصلي حتى جاءت سارة، فلمّا جاءت سألها ما الخَطْب؟فإذا هي تُبشّره؛ وتقول له: كفّ الله يد الفاجر، وتأمّل كيف أعادت الفضل إلى أهله إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل]، إنّه درسٌ جليل يكشف الستر قليلاً عن خُلق إبراهيم عليه السلام،

---

(١) صحيح البخاري (٢٢١٧).

وخُلق أهل بيته، فلا غرو أن يُكرمهم الكريم أجل إكرام، ويرزقها الولد مع أنها بلغت من العمر ما يسمى بحد اليأس فقد ولدت وهي عجوز وقد كانت قبل عقيماً، ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ [هود:٧٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات]، وقولها: عقيم، خبر عن حالها في الماضي، ثم أصبحت أم الأنبياء، إسحاق فمَن بعده، ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف]، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

مع هاجر

روى البخاريُّ عن بن عبّاس رضي الله تعالى عنهما، قال: «أوّل ما اتّخذ النساءُ المِنْطَق من قِبَلِ أُمِّ إسماعيل، اتّخذَت مِنْطَقاً لتُعفّيَ أثرَها على سارة»، -والمِنْطَق هو الذي تتمنطق به المرأة، أي: ما يشد به الوسط- قال الشراح[1]: شدت هاجر وسطها، كزِّي الخدمة استمالة لواهبتها فإن سارة كانت قد وهبتها لإبراهيم لمّا أبطأ بها الولد، فلمّا ولدت

(١) انظر كشف المشكل لابن الجوزي ١/ ٥٥٨، وشرح القسطلّاني ٥/ ٣٥٢، وحاشية السندي ٢/ ٩٧.

هاجر وتحرَّكت الغَيْرَةُ الطَبْعِيَّةُ عند النساء في سارة، اتخذت هاجرُ المِنْطَق لِما سبق، وأطالته لتُخفِي أثرَها، حتى لا تتأذى سارةُ إن رأت الأثَرَ، وهذا من حكمة هاجر وبرها بصاحبتها عليها السلام.

ثمَّ خرج بها إبراهيم عليه السلام، بعد أن رُزقت بإسماعيل عليه السلام، إلى مكة إلى وادٍ غير ذي زرع، وجاء بها إلى حيث البيت قبل أن ترفع قواعده، فوضعها في أعلى المسجد، وليس بمكةَ يومئذٍ أحد، وجعل معهما سِقاء، وقليلاً من التمر، ثم انطلق إبراهيم عليه السلام مُنصرِفاً، ولم يقُل كلمة، فتبعته هاجر، تسأله وتقول له: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟ ولمّا رأت هاجر عليها السلام أنه لا يلتفت إليها ولا يردّ عليها، وكأنه خلق لم تعهده منه تنبهَت، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيّعنا[1]. الله أكبر، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، ولك أن تتأمل أخي القارئ الكريم عِظَم التربية الإبراهيمية لزوجاته على

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

الإيمان بالله جلّ وعلا، والتسليم لأمره! بل تتأمل حال هذه المرأة العظيمة هاجر! من أين جاءت؟ ألم تكن وليدةً في بيت ملك ظالم جبّار؟ بل لو لم تكن كذلك فأي امرأة تطيق ذلك؟ من الذي أدَّبها، وبعث معاني الإيمان والإذعانِ لحكم الله في قلبها؟ إنها التربية الإبراهيمية المؤيَّدة بتوفيق الله ﷻ، واعتبري أخت الإسلام! بها إذا شرع لك الله ورسوله أمراً.

وقد تمالك إبراهيم -الأب الرحيم- نفسه، فلم يلتفت إليهم حتى غادر ورجعت على عقبها هاجر، وكأني به يلتفت بعد ذلك نحو مكة ثم يتوجّه بمشاعر جياشة يدعو ربَّه، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]، كما توجّه في خبر سارة مع الجبار ودعا لها فحفظها الله وأكرمها، توجّه في خبر هاجر وناجى ربه أن يحفظ ذريَّته ويرزقهم في

ذلك الوادي المُجْدِب؛ فاستجاب الله دعاءه، وغدت ثمارُ كلِّ شيء تجبى إلى ذلك المَحَلِّ المَحْلِ، وأقرَّ الله عينه بصلاح ولده.

وأمَّا أم إسماعيل عليها السلام فرجعت إلى حيث ابنها، ومكثت إلى أن نفد الماء من السقاء الذي تركه إبراهيم، وبدأ ابنها يبكي، ويضرب الأرض برجله، شأن الرضيع إذا تضور جوعاً، فذهبت هاجر تنظر مورِداً، وكان أقرب الشُرَف إليها جُبَيْلين هما الصفا والمروة، فسعت بينهما تصعد هذا وتنظر هل ثمَّة مورد؟ أو هل يَمُر رَكْبٌ؟ ومن لهفها على ولدها فعلت ذلك مراراً، تدعو ربَّها، وتسأله الرزق، فكان السعي بين الصفا والمروة سنَّةً للناس بعدها.

وأنبه هنا إلى مسألة شريفة، وهي أن الأسباب الشرعية من أعظم مفاتيح الرّزق، فلا ينبغي أن يغفل العبد عنها اكتفاء بالأسباب الكونية، بل على العبد أن يبذل السببين الكوني -أو المادي- والشرعي، وبالشرعي يتيسر من الكوني ما تعسر، ويُبَارك فيما تحقق الرزق به، وإبراهيم عليه السلام عمل بالسبب الشرعي فتَوجَّه إلى الله بالدعاء، ولم يكن أمامه ما يفعله غير ما تركه لهم من الزاد القليل،

وهاجر عملت بالسبب المادي فأخذت تسعى وترقى وتبحث لعلّها تجدُ شيئاً أو أحداً، لكنها لم تجد، فلمّا علم الله إخلاصَها وظهر صدقها، وبذلت غايةَ وُسْعِها، وانقطع رجاؤها إلّا منه سبحانه وتعالى؛ يسر الله لها الأمر، فإذا بالمَلَك يضرب بطرف جناحه الأرض فينفجر ماء زمزم الذي لا يزال ينبع إلى ما شاء الله، ولولا أنّها أحاطته لكانت زمزم عَيناً معيناً. فانظر إلى بركة الأخذ بالأسباب الشرعية مع مراعاة الأسباب المادية كيف كانت! وماذا أثمرت؟ ماءً مباركاً، طعام طُعمٍ وشِفاء سُقْمٍ، يُغني عن الأكل والشرب ويُصح البدن، كما في الحديث الصحيح في قصة أبي ذر رضي الله عنه[1] أنّه مكث شهراً يشرب من ماء زمزم حتى سَمِن وتكسَّرَت عُكَن بَطْنِه. ولا غرو أن تعظم بركة سبب شرعي صاحبه إبراهيم! ولئن كان السبب المادي بحسب باذله، فأثر الفأس مثلاً على قدر قوة ضاربه، فكذلك السبب الشرعي تكون قوة تأثيره بحسب حالة صاحبه!

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٢)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم تمرُّ الأيام؛ وينزل أهل بيت من جرهم في أسفل مكة، فرأوا طائراً يجول في السماء، فعلموا أن ثمة ماء، فأقبلوا حتى بلغوا المورد، ونزلوا أضيافاً عند أم إسماعيل عليه السلام.

وتحققت دعوة إبراهيم عليه السلام، ولست أدري كم استغرق ذلك، لكنْ بوادُره كانت سريعة، بمقدار ما ينفد ماء في سقاء، وبمقدار ما يسعى الساعي بين الصفا والمروة بضعة أشواط!

ثم كبُر إسماعيل عليه السلام، وتزوّج من جرهم، وتفتق لسانه بالعربية، فكان هو أبو العرب المستعربة التي منها قريش، ومن أشرف بيوتها جاء محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا خبر هاجر وإسماعيل عليه السلام مختصراً، وكم فيه من العِبَر والدروس، فلنقتبس منها قبسات هدى، فالوحي ما جاء بتلك الأنباء فضولاً، بل للاهتداء، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

مع إسماعيل وأهله

ولننتقل إلى فصل آخر من خبر الأم ووليدها، فقد مرت سنوات،

وتعاقبت أيام، وترعرع إسماعيل، وأنْفَسَ القوم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، فقرت عين أُمِّه بزواجه، ثم ماتت هاجر -رحمها الله-، ورجع والده يطالع تركته، والذي يظهر لي أن إبراهيم كان يزورهم بين فينة وأخرى، ولهذا لمّا وصفته المرأة لإسماعيل عرفه، ومما يدل عليه كذلك قصة الذبيح فعلى الراجح من قولي أهل العلم أنه إسماعيل وهذه حدثت قبل ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قال ابن كثير: "وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد (فاران) وينظر في أمرهما"[(١)]، والمقصود رجع إبراهيم بعد وفاة هاجر يطمئن على ذريته التي طالما دعا الله لها، فزار داره ولم يجده، ووجد زوجه؛ فسألها أين إسماعيل؟ قالت ذهب يبتغي لنا الرّزق؛ فسألها عن عيشهم وحالهم، فقالت: نحن بشدّة وشرّ، وشكت حالهم! فلمّا أراد أن يذهب، قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام، وقولي له بأنَّ عليه أن يُغيّر عتبة بابه! فجاء إسماعيل عليه السلام، وكأنّه لاحظ أمراً أثراً عند الباب أو غيره، فسألها هل جاءكم من أحد؟ فقالت:

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٧.

جاءنا رجلٌ صفته كذا وكذا، وسأل عن حالنا وأجبته بكذا، وأوصاني أن أقول لك: غيّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى، وجاء إبراهيم مرَّةً أخرى، ولحكمة أرادها الله فإنه لم يجد ابنه إسماعيل، وإنما وجد امرأةً أخرى، فسألها عن عيشهم وحالهم؟ فقالت له: بخير وسعة، وأثنت على الله جلّ وعلا، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم، قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللّحم والماء، وقبل أن يذهب قال لها: إذا جاء إسماعيل فأقرئيه السلام وقولي له: ثبِّت عتبة بابك، فلمّا جاء إسماعيل سأل كالمرة الأولى، فقالت له: إنه جاء رجلٌ هيئته كذا وكذا، وأخبرته بما كان، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أوصاني بأن أقرئك السلام، وأقول لك: الزم عتبة بابك، فقال لها: ذاك أبي، وأنتِ عتبة بابي، وأمرَني أن أمسكك، وبعد مدة رجع إبراهيم عليه السلام، وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد في مثل هذا الموقف، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، فقال لإسماعيل من فوره: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن

أبني ها هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فأقاما البيت، جعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بحجر فوضعه له وقام إبراهيم عليه يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة]، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

وهذا الخبر في الصحيح بألفاظ مقاربة[1]، ولنا معه وقفات:

أوّلاً: حِرص إبراهيم عليه السلام على ذريته، وهذا الحرص تتبدى معالمه من أمرين:

الأول: بذل الأسباب الشرعية من الدعاء والوصية، والثاني: بذل الأسباب المادية من التعاهد والزيارة والنصيحة.

أما الدعاء، فقد أثبت في مواضع من القرآن: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً

(١) انظر صحيح البخاري (٣٣٦٤)، (٣٣٦٥).

مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة]، ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]، ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [إبراهيم]. وقد كان لهذا الدعاء أثره قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم]، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات]، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد]، ألا فلْيَعي هذا من يَدعُون على أبنائهم وذريَّاتِهم، ألا فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً! يقول النبي ﷺ: «لا

تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أموالكم، ولا تدعوا على أولادكم، فتُوافقوا من الله ساعة إجابة فيُستجابَ لكم»[1]، بل ادعوا لهم كما فعل إبراهيم، فالدعاء من أعظم الوسائل الشرعية لصلاح الأبناء.

وأمَّا الأسبابُ المادِّيَّةِ فتفقده أحوالَ ابنِه ونصيحتُه وهي ظاهرة في هذا الحديث، وتأمل كيف رحل من الشام، من أجل أن يزور ابنه، فلم يجده ولم ينتظر، فهو نبي مرسلٌ، وعنده من وظائف الدعوة والبلاغ ما عنده، ثم هو لا يدري متى يرجع مَن خَرج يبتغي الرزق، فذهب.

ثانياً: تأمل وصيّته في المرة الأولى والثانية، بعض الناس يتصوّر أنّه إذا تزوّج فلا علاقة لأبيه بحياته، وهذا غير صحيح، بل الوالدُ الفاضل الدَّيِّنُ العاقل المجرب لابد أن يُقْدَر قَدْرُه ويُعرف لرأيه مكانُه، مهما بلغ مكان الزوج وفضله، ألم تر أن عمر رضي الله عنه وكذلك أبا بكر رضي الله عنه قد كان لهما شأن مع بنتيهما في وقائع، بعد زواجهما بمحمد ﷺ، فعمر رضي الله عنه لمّا علم بأن

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

إحداهن تغاضبه ﷺ، قال: «دخلت على حفصة، فقلت: أي حفصة أتغاضِبُ إحداكُنَّ رسولَ الله ﷺ اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت! أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله ﷺ، فتهلكين لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك»(١)، وفي الحديث المتفق عليه أن الناس جاءوا إلى أبي بكر فقالوا ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء، وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يَطعن بيده في خاصرتي فلا يمنعني مِن التَّحرُّك إلاّ مكان رسول الله ﷺ على فخِذي، الحديث(٢)، وفي الحديث الآخر: استأذن أبو بكر رحمة الله عليه على النبي ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً

(١) انظر صحيح البخاري (٢٤٦٨)، (٥١٩١).

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، انظر صحيح البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فجعل النبي ﷺ يحجزه، وخرج أبو بكر مغضَباً، فقال: النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «كيف رأيتني أنقذتُك من الرَّجل»! قال فمكث أبو بكر أياماً ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سِلْمِكُما كما أدخلتماني في حربِكما. فقال النبي ﷺ: «قد فعلنا قد فعلنا»[1].

وهكذا الأب الحكيم يتفقد أحوال أبنائه، ويدبِّر ما يُصلحهم، ويَنْصَحُهم ويُرْشِدُهم، وهكذا صنع إبراهيم عليه السلام، تفقّد ابنه، ونظر في حال زوجِه، فلما رأى حالها، نصح ابنه بالرأي السَّديد في شأنها؛ فالمرأة كثيرة الشكوى، التي تبث أسرارَ البيت وأحوالَه لمن عَرفت غَناءَه لها ومن لم تَعرف، التي تجعل البيت نِكداً بتَذَمُّرِها، التي لا تصبر على بعض الشَّظَفِ، وغَيبةِ الرجل، لا تستحق أن تبقى، ولا سيما مع مثل إسماعيل عليه السلام، فالأبناء يأخذون من خُلُقِ أمِّهم، وإذا كانت الأم بتلك

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٤١٨)، وأبو داود (٥٠٠١)، والنسائي (٨٤٩٥)، وغيرهم انظر السلسلة الصحيحة (٢٩٠١).

المثابة كانوا على شَاكِلةٍ لا تُشبِه شَاكلةَ أبيهم! وبهذه المناسبة نصيحتي لأخت الإسلام بأن تصبر في الضرّاء، وتشكر في السرّاء، وأن لا تشكي حالها إلى من لا تعرف.

ولتكن أسوتها تلك المرأة العاقلة التي لمّا سألها إبراهيم عليه السلام، عرف منها شكر العشير والعرفان، ووجد منها الصبر والإيمان، فحري بمثلها أن يوصى بها، ولا غرو أن يكون جزاؤها منه وصية ابنه بها، أن يَلْزَمها ويحافظ عليها جزاءً وِفاقاً، و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن].

أما إسماعيل فيا لروعة بِرِّه، لم يُعارض والده، بل سارع في تنفيذ وصيَّتِه من فوره، فقال للأولى: «الحقي بأهلِك»، وأمسك الأخرى.

ثالثاً: ومما في القصة من العِبر: أنَّ إسماعيل لَـمَح أثراً في البيت؛ فسأل امرأته هل جاءكم أحد؟ وهذا يدل على ما تميَّز به إسماعيل عليه السلام من الفطنة والذكاء. وتَفَقُّدُ الإنسان لزوجته وأبنائه ومتاعه مطلوبٌ، ولا ضير في السؤال إذا رأى ما يقتضيه، والنصوص لم تصرح بما رآه

عليه السلام، قال بعضهم وجد ريح أبيه[1]، وليس بظاهر، ولعله وَجَدَ آثارَ خُطى أو دابَّةٍ أو نحوها فاستدعى ذلك سؤالَه.

وفي الخبر أيضاً ذكر شيء من حكمةِ إبراهيمَ عليه السلام، فانظر كيف أوصل رسالتَه بهدوء، دون أن تفقه أيٌّ من المرأتين مضمون الرسالة التي تحملها، ثم انظر كيف فهمها إسماعيل، ولا عجب ألم يقل الله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]، والحكمة وإن فُسِّرت بالنُّبُوَّةِ، فإنَّ معناها الواسعَ لآل إبراهيم منه نصيبٌ وافر، فكيف بإبراهيم نفسِه الذي آتاه الله رشده، ما احتاج أن يُقْحِم في القضيَّة طرفاً ثالثاً، ولا جَابَهَ الأولى بما تتأذى به أو بشيء قد لا تطيق تبليغه، ولا أشعر الثانية بشيء يدعُها تَتَكَلَّفُ له، ولا أمرها أن تزكي نفسها عند ابنه، بل كنّى بألفاظ فهمها الابن ولم تفهمها الزوجتان، وظاهر هذا الخبر أن إبراهيم عليه السلام كان يتحدث العربية، إما علَّمه الله إياها وإما اكتسبها، فزوجتا إبراهيم من قبيلة عربية.

---

(١) انظر إرشاد الساري للقسطلاني ٥/ ٣٥٦.

والمقصود أنَّ بمقدور الإنسان أن يُوصِل الرِّسالةَ أحياناً بحكمة وذكاءٍ دون أن يعرف حامل الرسالة ماذا فيها؛ لأن الأمر قد يقتضي أن لا تُذاع الأسرار؛ وهذا مما يحتاجه المسلم في وقت البلاء والشدّة، عافاكم الله.

رابعاً: من الدروس الإشارةُ إلى أنه ليس من شروط العيش الهنيء الطيب كثرةُ المال وسعة الرزق، فالسعادة لا تُقاس بذلك، بل أعظم السعادة في طاعة الله جلّ وعلا، والسعادةُ الحَقَّةُ هي السعادة المعنوية، السعادة النفسية، وهذا أمرٌ مُشاهَد بل مُجرّب، كم مَرَّةٍ قلَّ المالُ وكنتَ في عافيةٍ وسَتْرٍ مُغتَبِطاً مسروراً، وكم مَرَّةٍ زادَ المالُ، وكدَّرَت صفوك العوارض؟ ثم إن صاحب المال وإن عاش فَرِحَاً مسرُوراً بَطِراً مغروراً، فلا تؤمن عليه العاقِبَةُ في هذه الدنيا قبلَ الآخِرَة، وانظر إلى قارون جمع من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتَنُوءُ بالعُصْبَةِ! كان يراه الناس في خير حال، ويتمنون مكانه: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص]، لكنَّ مِعْيَارَ الحُظُوظِ عند الذين أوتوا العلم مختلفٌ! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ..﴾ [القصص: ٨٠]،

كلمة زجر لهم عن قولهم، فليس هذا هو المحظوظ! قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وإنْ سَلِم فثمَّةَ آخرة إذا غُمس فيها في النَّار أنعمُ رجلٍ في الدنيا ليقولَنَّ ما رأيت خيراً قط! فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بأنعمِ أهلِ الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النَّار صَبْغَةً ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤتى بأشد الناسِ بُؤساً في الدُّنيا من أهلِ الجنَّة فيُصبغ صَبغةً في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤساً قط؟ هل مَرَّ بك شِدَّة قط؟ فيقول لا والله يا رب ما مَرَّ بي بُؤسٌ قط، ولا رأيتُ شِدَّةً قط»[1]، فهذا معنى ينبغي أن نراعِيَه، وأن يُذَكِّر بعضنا بعضاً به، ولا سيما أن زَهْرَة الدنيا التي فُتِحت على كثيرٍ من النَّاس قد غَرَّت أقواماً.

خامساً: من دروس القصة، أن لبر الأبناء أسباباً من أهمها تاريخ الوالد مع ولده، فالذي ينظر يرى طاعةَ إسماعيلَ لأبيه؛ انظر كيف طلق امرأته لمّا أمره أبوه أن يُطلِّق، وكيف أمسك لمّا أمره أن يُمسك، وكيف

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٨٠٧).

أجابه لّما أمره أن يلبي طلبه في البناء؛ أظهر موافقته على بناء البيت قبل أن يعلم بالتكليف، قال إبراهيم: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر، فقال لإسماعيل من فوره: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، فانظر إلى مسارعته إلى طاعة أبيه، وإن تعجب فاعجب من كلمته قبل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات]. لكن المتأمل لأسرار هذا البر يجد أنَّ من أهمها بِرُّ الوالدِ بولده! ومن ذلك حرصه على أن يُشاركه الخيرَ، وهذا أمر ظاهر عند إبراهيم، لّما قال الله له: إني جاعلك للناس إماماً! ما طار بها فَرحاً وسَكَتَ، بل قال وهو العليم بكرم ربِّه: ومن ذريتي؟ كأنه يقول: هلا ألحقت بكرمك من ذريتي بهذا الخير؟ وكذلك في هذا المشروع العظيم –بناء البيت- شَرِكَ ابنه؛ ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة]، ومن بره ببنيه وصيتهم بالخير، ومن أعظمها تلك الوصية التي نوَّه بها الله تعالى في كتابه، الوصية بكلمة

الإخلاص، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة]، وتلك سنته في الوصية بالتوحيد، وقد توارثها أبناؤه من بعده، فيعقوب حفيد إبراهيم عليهما السلام، ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]، ومعلوم أنَّ إسماعيل عمّ ليعقوب، ولكن العرب تسمي العم أباً، وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: «يا عمر، أما علِمتَ أنّ عمّ الرجل صِنوُ أبيه؟»[1] أي: مثل أبيه. والشاهد أن وصية إبراهيم لهم بالتوحيد سابقة، ومن ثمارها وصية الأحفاد بما كان عليه الآباء، وهو كذلك أسلوب تربوي تحدثت عنه في كتابي «آيات للسائلين» فلينظر هناك، والمقصود هنا أن إبراهيم عليه السلام أحسن التربية، وبَرَّ الأبناءَ صِغاراً فبرَّه الأبناء والأحفاد، وتبعوا طريقتَه فكان إسماعيل على جادَّةِ أبيه يأمر

(١) أخرجه مسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أهله بالصلاة والزكاة، ووصى يعقوب بنيه بالتوحيد، وكذلك من قبله إسحاق عليهم السلام، إلى يوسف حيث يقول: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.

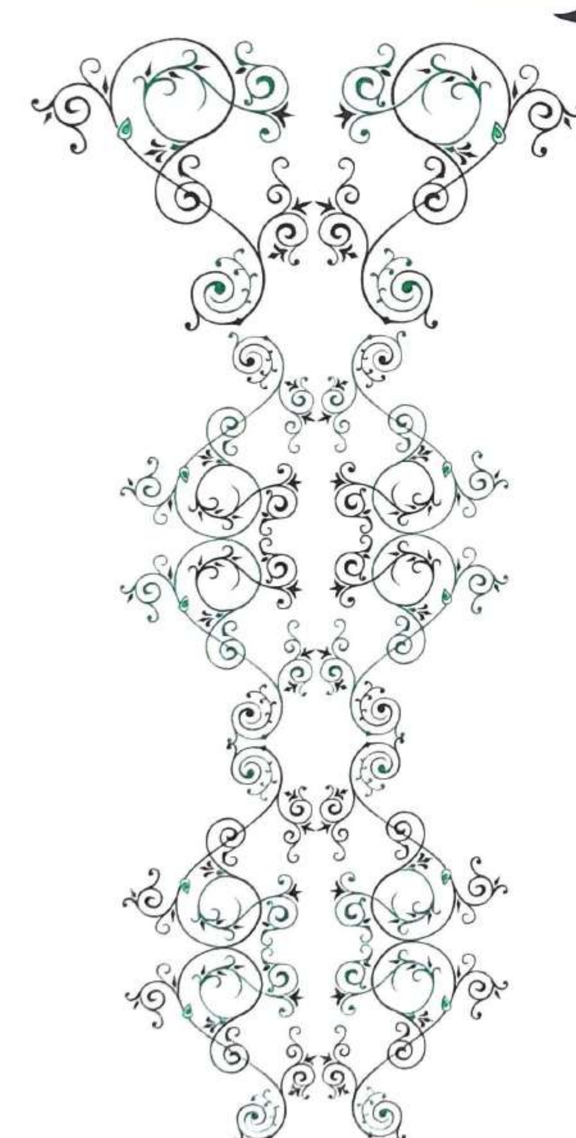
ومن جملة بر إبراهيم عليه السلام ببنيه، صلاحه في نفسه، فإن لذلك أثر على الذرية، كما قال الله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف:٨٢]، فانظر بركة صلاح الآباء كيف تدرك الأبناءَ؟ قال بعض العلماء: إنَّ جدّهم السابع هو الذي وضع هذا الكنز! والأقوى أنّه الأب المباشر، كما هو ظاهر الآية.

وأخيراً المقام لا يتسع للتطويل، وإلاّ فالفوائد التربوية في أخبار إبراهيم عليه السلام كثيرة، إن إبراهيم كان أمة، مدرسة متكاملة، له أحوال مع أبيه، ومع قومه، ومع لوط، ومع الملائكة، ومع محمد ﷺ، ومع رب العزة، فيها من الفوائد التربوية ما لا يحصيه إلاّ الله، وبعض ذلك

مبثوث في ثنايا هذا الكتاب، ولا أقول لك راجعه! بل أَقبِل على الأصلِ! أقبل على كتاب ربِّك، وتدبَّر أخبار إبراهيم عليه السلام فستجد أضعافها!



إبراهيم عليه السلام وقصة الفداء





إبراهيم عليه السلام وقصة الفداء

ذكر الله تعالى خبر الفداء، وما فيه من البلاء المبين في سورة الصافات، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]، والقصة مبسوطة في كتب التفسير، وبمناسبتها أنبه القارئ الكريم إلى أن الإسرائيليات قد مُلئت بها كتب التفسير؛ فعلى المبتدئ من طلاب العلم أن يلزم التفاسير الموثوقة، حتى لا تشوش عليه الأخبار الإسرائيلية التي لا يميز بين غَثِّها وسمينها، وما يُقبل أو يُرد أو يُتوقف فيه إلاّ عالم، ومِن خَطَرِ مطالعتِها على المبتدئ تَصْدِيقُ باطلٍ أو تكذيب حقٍ فيها، وفي تفسير ابن كثير غناء عن كثير، وكذلك تفسير الشيخ عبدالرحمن بن سعدي، فإن رام اختصاراً أكثر، فلينظر في التفسير الميسر لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

وعوداً إلى موضوع الآيات فإنّ من المقرر أن رؤيا الأنبياء حق، فلا يقولَنَّ قائل: كيف يرى في المنام أنّه يذبحُه ثم يفعل! قال ابن عباس رضي الله عنهما: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[١]، ؛ فرؤياهم في المنام كالوحي في اليقظة، وقد ورد في الصحيح أن الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوّة[٢]، ووردت روايات أخرى صحيحة أقل أو أكثر من ذلك؛ فلهذا كان النبي ﷺ لا يرى رؤيا قبل بعثته إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبحِ[٣]،وكما أن الوحي في اليقظة خاص بالأنبياء، فكذلك في المنام، وليس لأحدٍ غيرهم مهما بلغ شأنه أن يحتج بالمنامات ولكن يستأنس بها، وبكل حال فالدين قد كمل، والتشريع قد انقضى، فلا تؤخذ من الرؤى وإن كانت صالحةً صادقة أحكاماً غير التي قررها النبي ﷺ، لكنها قد تكون بشارة أو نذارة، ولها أحكامها المبسوطة في مظانِّها.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣٦١٣)، وقال: حديث صحيح، ووافقه الذهبي، وهو في صحيح البخاري (١٣٨)، من كلام عبيد بن عمير.

(٢) انظر حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣).

(٣) انظر: البخاري (٤)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والغرض أن إبراهيم عليه السلام رأى رؤيا حقٍ أنه يذبح ولدَه وذلك وحي من الله تعالى له، بأن يفعل.

وقد اختلف في المخاطب بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، والخلاف بين أهل الإسلام في ما بينهم، وبين أهل الإسلام وأهل الكتاب الذين اتفقت كلمتهم على أنَّه إسحق. والصحيح من أقوال أهل العلم في المسألة أنّه إسماعيل عليه السلام ولهذا أدلة كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا﴾ [الصافات: ١١٢]، فإسحاقُ مبشرٌ به، ومبشرٌ بأنّه نبي، فكيف يؤمر بذبحه وهو لم يبلغ الحلم ولم يتنبأ؟ فهذا لا يكون إلاّ مع ابن آخر.

أيضاً قال الله تعالى في سورة هود: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود]، فكما بشره بإسحاق بشره بابنه يعقوب، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعَدَه بنافلة منه وهو يعقوب؟ ووعد الله لا

خلف فيه، فهذا لا يتأتى إلاّ مع ابن آخر غير إسحق[1].

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»[2]، ولا أصل له، وروي: «السلام عليك يا ابن الذبيحين» في قصة طويلة، وفيه ضعف، يريدون: أباه عبد الله بن عبد المطلب، وجده إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام.

ومما احتج به على كونه إسماعيل أن الله تعالى ذكر البشارة بإسحاق بعد الفراغ من قصة المذبوح فقال بعدها: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات]، فدلّ على أن المذبوح غيره، فقوله بعد أن ذكر خبر الفداء: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات]، كأنَّه مكافأة لإبراهيم على موقفه وتنفيذه لأمر الله في الخبر المتقدم قبلها.

ومن الدليل عليه: أنَّ قَرني الكبش كانا مَنُوطَين بالكعبة في أيدي

---

(١) انظر: معالم التنزيل ٦/ ٣٨٧، وفي الوجه الذي قبله بحر العلوم للسمرقندي تفسير الآية.

(٢) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٣٣١).

بني إسماعيل إلى أن احترق البيت واحترق القَرنان في أيام ابن الزُّبيرِ والحجاج، وفي ذلك آثار عن بعض الصحابة والتابعين[1]، بل فيه أحاديث مرفوعة. قال الأصمعي: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح إسحاق كان أو إسماعيل؟ فقال: يا صُميع أين ذهب عقلك! متى كان إسحاق بمكة؟ إنَّما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه[2].

ومن الإشارات أيضاً أن الله تعالى خص إسماعيل بوصف الصبر دون إسحاق، وذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء]، وهذا الوصف هو المطابق لقوله: ﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

ومن جنس هذه إشارة أخرى ذكرها بعض المفسرين وهي:

(١) بوب عبد الرزاق في مصنفه: (باب قرني الكبش) وساق بعض الآثار، وانظر أخبار مكة للفاكهي ٢/ ٣٥٥، ومستدرك الحاكم (٦٣٣٩)، ومسند أحمد (١٦٦٨٨)، (٢٣٢٦٩).

(٢) انظر مختصر معالم التنزيل ٧/ ٤٧، وتفسير الخازن ٤/ ٢٢.

وصفه عليه السلام بصدق الوعد وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، قالوا: لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى له بذلك[1].

ومن جنسه دليل آخر وهو أن الله وصف إسحاق عليه السلام بأنّه غلامٌ عليم، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات]، ووصف الذبيح بأنّه حليم، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢]، والعليمُ غيرُ الحليم.

إذاً القول الصحيح أنّ الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وهذا أيضاً لا يَنقص من فضل إسحاق عليه السلام ومكانته، فقد أثنى الله عليه في مواضع من القرآن الكريم، وقد استدل لكونه الذبيح بأدلة أيضاً، وليس الغرض نقضها هنا.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/ ١٠١، ومفاتيح الغيب ٢١/ ٥٤٩، والبحر المحيط ٩/ ١١٩، وغيرها.

عبر من خبر الفداء

أولاً: رزق الله تعالى إبراهيم عليه السلام بإسماعيل وهو شيخ كبير، وما أن تَمَّ له الفرح بالولد حتى أمر بذبحه! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات]، إنه موقف عظيم، لو توهمتَه أَدْرَكْتَ مقام إبراهيم، وعرفت عظيم إيمانه، ،وأنَّه ما استحق عليه السلام ثناءَ ربِّه تعالى إلاّ لشيء وقَرَ في قلبه، كان من ثمرته صفات وخلال ميَّزته عليه السلام، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل].

ثانياً: من حكمة هذا التَّكليفِ أن يَخْلُص قلب إبراهيم عليه السلام لربّه وحدَه دون سواه، ولِيعلم الله جلّ وعلا ذلك منه علم ظهورٍ، يَبين معه فضلُه على من سواه بأمر تشهده البَشريّة، فإذا قيل الخليل، عُرف لماذا كان الخليلَ، وعلم أنها رُتبة لا تنال بالتحلي ولا بالادعاء والتَّمني بل هي درجةٌ عالية دونَها بلاء مبين.

ثالثاً: أقام إبراهيم عليه السلام الحجة على العباد، في وجوب التسليم لأمر الله، والرضا بقضائه الشرعي، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا

مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب]، وإذا كان إبراهيم عليه السلام يُؤْمَر بذبح ابنه فيُنفِّذ، والغلام يُخبر فيُرَحِّب، أفلا يستحي الذين يتوارَون من الغرب خجلاً فيتحرجون من تعاليمِ دين ميسرة، وأوامر حكمتها ظاهرة!

أفلا يستحي أولئك الذين يتتبعون الرُّخَص، ويتخلصون من التكاليف الشرعية الميسرة بالحيل؟ أفلا يجدر بنا أن نستجيبَ لله ورسولِه إذا دعانا لما يحيينا!

إنّ الله تعالى هو الحكيم العليم، خلق الخلق، وله الأمرُ، وهو أرحمُ الراحمين وأعلم بما فيه صلاحُ العالمين، فإذا دعاك فبادِر ولا تَلْتَوي، فالنفع لك! ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسِه، وإذا أمرك رسولُه فاترك الطَيْش والتَّعَاشِي عن الحَقِّ المبين، اترك تحكّمات العقول القاصرة التي تُخضِع النصّ لأهوائها، واستجب لأمر ربك فقد دعاك لما يحييك، فإن لم تطاوِعْكَ نفسُك، ونفر من الامتثال قلبُك، فاعلم أنه مريضٌ، وأدواء القلوب خطيرة، فبادر إلى علاجه وتطهيره قبل فوات الأوان، فلن ينجو يوم القيامة إلّا مَن أتى الله بقلبٍ سليم، ﴿ ..وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر].

رابعاً: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الصافات]، استسلامٌ قلبيٌّ يتبعه استسلام بدنيّ، وهكذا المؤمن يجب أن يُسِّلم لله حكمه، وهذا يقتضي أن ينظر في حاله أهو مستسلم لله تعالى حقاً؟ أم مطاوع يأتي الأمر في ما يظهر للناس وقلبه كاره؟ بعض الناس قد يستسلم ببدنه دون قلبه، وإن الله لا ينظر إلى صوركم بل إلى القلوب! ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧]، إذا قضى الله ورسوله أمراً فتفقد قلبك، وانظر تسليمه، فإن شأن القلب خطير! قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

خامساً: كانت عاقبة استسلام إبراهيم عليه السلام وابنه لأمر الله تعالى حميدة مشتملة على منح جليلةٍ منها:

أولاً: ظهر ثبات إيمان إبراهيم عليه السلام وقوته.

ثانياً: سلامة الولد وحمده.

ثالثاً: فداه الله بذِبْحٍ عظيم، بكبشٍ عظيم.

رابعاً: شُرعت سُنّةٌ إلى يوم القيامة، وهي الأُضحية،

ولإبراهيم عليه السلام أجرها إذ جعله الله سبباً في سَنِّها.

خامساً: البشارة بإسحاق نبيّاً من الصالحين، ومن وراء إسحاق بشارة بحفيد يدركه هو يعقوب.

سادساً: جعل الله النبوة في ذريته عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

سابعاً: إثبات الإحسان له والثناء عليه به: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الصافات].

سادساً: في جواب الابن صغير السنِّ إذ ذاك إسماعيل عليه السلام، الذي بلغ مع أبيه السعيَ، قيل في عمره: ثلاثة عشر عاماً، وقيل: خمسة عشر عاماً، وقيل سبع سنين، وقيل أدرك المشي معه، في جوابه في هذا الموقف الصعب! ما يهز النفوس، ويذهل العقول: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات:١٠٢]، استسلام تام لا يعتريه التواءٌ أو اعتراضٌ أو بحثٌ عن مخارج شرعية! ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات]، وأمْعِن النظر في قوله «إن شاء الله»، لم يَكِل الأمر لنفسه، ولكن إلى ربه: إن شاء الله، فما أعظم حلمه! فوض الأمر إلى الله،

وعلق الوعد بمشيئته سبحانه، ثم تبع ذلك استسلامٌ بدنيّ، طاوع أباه وهو يهيئه للذبح، فأي حلم هذا وأي صدق! إنّه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً.. وكان عند ربّهِ مَرضيّاً. فحرِيٌ بمثله أن يُحييَ اللهُ ذكرَه، وأن يُكرمه بها أكرمه، ومن كرامته أن جعل محمداً ﷺ من ذريته، وهذا شرف عظيم مبدؤه تحقيق العبودية، والاستسلام لأمر الله تعالى، ولذلك خلق الله الخليقة، فيا لفوز المقتدين.

فوائد تربوية من القصة

وأختم هذه الصفحات بفوائد وعبر تتعلّق بأسلوب إبراهيم مع أبنائه ومنهاجه في التربية، فمن ذلك:

أولاً: شاور إبراهيم عليه السلام ابنه، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات:١٠٢]، شاوره عليه السلام ليهيئه، وليشاركه أجرَ الانقياد والإقرار، ولِيظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرَّة عينٍ له حيث يراه قد بلغ من الحِلم هذا الحدَّ العظيم، وفي الصبر على المكارِه تلك الدرجةَ العالية، ولِيحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة، والثناء الحسن في الدنيا، وقد كان ذلك فقد حُفظ هذا الحَدَثُ وتكرر الثناء عليه على مرّ الأجيال.

ثانياً: ومن العبر، أنّ إبراهيم حمّل ابنه المسؤولية من صغره، ما احتقره، وما ألغى رأيه، مع أنه يَصْدُر في أمرِه عن وحيٍ، فحريٌ بنا أن نتقي الله تعالى في أبنائنا، وأن نتعامل معهم كما تعامل إبراهيم مع أبنائه عليهم السلام. تَعامَلْ مع عقول أبنائك ومع قلوبهم ومع عواطفهم، رَبِّهم منذ الصِّغر على تحمّل المسؤولية، على أن يكون لهم رأيٌ، واربطهم بشريعة الله جلّ وعلا، اربطهم بملة إبراهيم عليه السلام، وستجد -والله- خيراً عظيماً، وستجد من أبنائك ما لا يخطر لك على بال.

ثالثاً: قد يكون الأمر جَلَلاً، والمُصَاب عظيماً، والمطلوبُ مؤلماً، ولابد أن تباشِرَه بنفسك، ولكن ذلك كلَّه لا ينبغي أن يُنسي الأبَ رحمة الأبوة، ولا الابن واجبَ التوقير، قال: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، على سبيل الترحم، قال هو: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، على سبيل التعظيم والتوقير، وهكذا ينبغي أن يكون الأب والمُربي رحيماً بذويه مظهراً حُبَّه لهم، وإن كان المقام ضيقاً صعباً، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهكذا الأبناء تقودهم التربية الخَشِنَةُ العسكرية التي لاتعرف إلاّ الأمَرَ والطَّاعَةَ إلى النُّفُورِ والمُعَانَدَة، وأمّا التربية المعتدِلة الحانِية فتقودهم إلى الانقياد والموافقة.

خاتمة

إنَّ الحديثَ عن أخبار إبراهيم ﷺ ذو شجونٍ، في البال فوائدُ وعِبر، وفي الأوراق التي جمعتها غيرُها، وفي بطون الكتب أضاعفها، وكتاب الله معين لا يَنْضَب يُبدئ فيه ويُعيد المتدبرون! وكما قال ربُّنا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل]، وحسبك بها!

وقد آثرت الاكتفاء بما سُطر، فالاسترسال ليس له آخِر، ومن تدَبَّرَ ثم راجع كُتبَ أهلِ العلم اكتفى، والمطلوب هو العمل والاقتداء، ولست أعني عمل الجوارح وحدَها، بل عمل القلبِ قبلَها ثم الجوارحِ بعدَه، وإنها لكبيرة! إلاّ على من أعانه الله وسدَّدَه، فاستعن بالله ولا تَعْجَز، ثم شَمِّر عن ساعد الجِدِّ وقل: اللهم لا سهل إلاَّ ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحَزْنَ إذا شئت سهلاً!

وإنَّ الرَّزِيَّةَ كلَّ الرَّزيَّةِ أن يُشبه بعض هذه الأمة أقواماً زعموا أنهم على جادَّة إبراهيم، وادَّعوا أنَّه عليه السلام كان منهم! فأكذبهم الله عز وجل بقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ.. ﴾ [البقرة: ١٤٠]، فلا يهودية جائرة، ولا نصرانية حائرة، ولا وثنية تعزى إليه، بل الملَّة الحنيفية السمحة! وقد مرَّت معنا معالمها، في التوحيد، وفي الولاء وفي البراء، وفي أبواب شتى، تشمل عقائد ومنهاج في الدعوة والتربية والأخلاق والآداب، إلى غير ذلك، وقد تشبَّث ببعضها اليومَ أقوامٌ وأغفلوا بعضها ويحسبون أنَّهم مهتدون! فلا تغتر –أخا الإسلام– بهم ولا تَحفل بالدعاوى، والزَم المعيار الذي لا يحيف، فإنَّه ثابت محفوظ في قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران]، أَلْزَمَني اللهُ وإيَّاك خيرَ دينٍ، وسَلَك بنا سبيلَ نبيِّنا عليه أفضل الصلاة والتسليم، ووفقنا لاتباع ملَّةِ أبيه إبراهيم، ﴿ وَمَن

أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء].

هذا وما كان في هذا الكتاب من صوابٍ فمن الله وحدَه، وما كان فيه من خَطَلٍ ونقصٍ وزلل فمن نفسي والشيطان، والله ورسولُه منه بريئان، واللهَ أسأل أن يفتح علي وعليكم من العلوم ما ينفعُنا، وأن يُلهِمَنا رُشدنا كما ألهم إبراهيم، ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة]، واغفر لنا خطأنا وجدنا وهزلنا وعمدنا وكل ذلك عندنا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهـــرس